"بيت الجغرافيا"

من التراث الجغرافي العربي

(١)

جغرافية مصر التاريخية

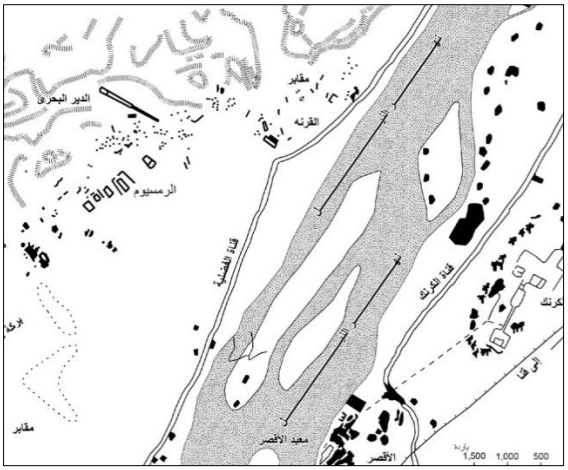

تأليف

عبد الفتاح وهيبة

الإسكندرية عام ١٩٦٢

جغرافية مصر التاريخية

من إصدارات بيت الجغرافيا

العنوان : **جغرافية مصر التاريخية**

تأليف: **عبد الفتاح وهيبة**

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٣٨٧٨

عدد الصفحات: **٢٤٨ صفحة**

الطبعة: **الأولى ٢٠١٧**

."**بيت الجغرافيا**" جهة بحثية غير هادفة إلى الربح تعنى بالبحث والترجمة، تأسست في القاهرة في ٢٠١٦.
الموقع على الويب geo-house.com

سلسلة "من التراث الجغرافي العربي " : (١)

المشرف على السلسلة : جهان أبو اليزيد

"بيت الجغرافيا"

من التراث الجغرافي العربي

(١)

جغرافية مصر التاريخية

تأليف

عبد الفتاح وهيبة

الإسكندرية عام ١٩٦٢

على سبيل التقديم والتحقيق

بقلم/ عاطف معتمد

أبدت المدرسة الجغرافية المصرية في نشأتها الحديثة (منذ الربع الأول للقرن العشرين) نزوعا واضحا نحو "الجغرافيا التاريخية". ولما لا؟ فالجغرافيا بدون التاريخ لا تستطيع أن تقول شيئا علميا عميقا. والكتاب الذي بين أيدينا نموذج معبر عن نضج هذه المدرسة خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين. وما زال الكتاب صالحا للقراءة والتدبر. صحيح أن هناك كثيرا من المعلومات التي تجاوزها الزمن بحكم الكشوف الجغرافية ونتائج الأبحاث المتنوعة في جغرافية مصر إلا أن معلوماته ما تزال مناسبة جدا كمدخل لفهم البعد التاريخي في تطور جغرافية مصر. هذا ناهيك عن أن الكتاب في حد ذاته شاهد إثبات على مدى ما وصل إليه الاهتمام الجغرافي المصري بملاحقة البحث العلمي وتطوراته قبل نصف قرن من اليوم.

ولد عبد الفتاح محمد وهيبة فى نهاية ثلاثينيات القرن العشرين وتوفى في مطلع القرن الحادي والعشرين. تخرج من جامعة الإسكندرية فى عام ١٩٤٨ وعين معيدا بقسم الجغرافيا بالجامعة حديثة النشأة آنئذٍ (أنشئت عام ١٩٤١) ومالبث أن ابتعث إلى المملكة المتحدة للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه من جامعة لندن. كانت رسالته للماجستير بعنوان "الزراعة في مصر في العصر العربي" ورسالته للدكتوراه بعنوان "الجغرافيا الاجتماعية والاقتصادية لإقليم مريوط".

بعد عودته من البعثة إلى جامعة الإسكندرية تركزت اهتماماته فى مجالات الجغرافيا التاريخية وجغرافية العمران والسكان. وأصدر كتابه "جغرافية مصر التاريخية" عن دار الثقافة الجامعية عام ١٩٦٢، وهو الكتاب الذي نقدم له ونراجعه هنا. كان الأستاذ الدكتور عبد الفتاح وهيبة مثالا للأستاذ الجامعى الملتزم خلقا وعلما

ومثلا أعلى لتلاميذه ومن عرفوه. أعير وهيبة لعدة دول عربية مثل لبنان والسعودية وأشرف هناك على إصدار موسوعة عن جغرافية العالم الإسلامى. أشرف وهيبة على عديد من رسائل الماجستير والدكتوراه وناقش الكثير منها فى الجامعات المصرية والعربية، وتقاعد عن العمل فى كلية الآداب قبل وفاته لفترة من الزمن. جرى تكريمه من قبل زملائه وتلاميذه فى جامعة الإسكندرية وقسم الجغرافيا وصدر كتاب تذكارى على شرفه(*).

مضمون هذا الكتاب ومحتواه

صاغ المؤلف همه العلمي في تسعة فصول بدأت بتمهيد تناول أهمية الجغرافيا التاريخية كتخصص علمي لا غنى عنه لفهم "جغرافية الحاضر" مؤكدا على ضرورة حيازة باحث الجغرافيا التاريخية أدوات علمية مثل إلمامه بأسس الجغرافية الطبيعية والحيوية وضرورة رجوعه لنتائج أبحاث علوم التربة والجيولوجيا والمناخ والآثار والهندسة المعمارية واللغة فضلا عن المخطوطات والخرائط القديمة وكتب الرحلات، ودراسة أصل أسماء الأماكن. كما يجب عليه أن يستشير المتخصصين في فروع العلوم التي لها صلة بموضوعه، فضلا عن تقوية ملكة الاستنتاج والربط(**).

(*) انظر لترجمة وافية عن عبد الفتاح وهيبة: محمد مدحت جابر (٢٠١٢) المعجم الدولي للجغرافيين. تقديم رونالد أبلر. الجمعية الجغرافية المصرية . القاهرة. ص ٣٩٣.

(**) من أسفٍ فإنه رغم تلك البداية الناجحة للجغرافيا التاريخية في مصر إلا أن الاهتمام بها أخذ في الأفول تدريجيا مما ترك فراغا كبيرا في ميادين البحث الجغرافي وحلت محلها اتجاهات أخرى إما بالغة التخصص الرأسي (كالجيومورفولوجيا والعمران والسكان) أو غلبة الاهتمام المبالغ فيه بأدوات ووسائل البحث وتقنياته (ما عرف بالثورة الكمية في سبعينيات القرن العشرين وما عرف بثورة نظم المعلومات والاستشعار عن بعد منذ نهاية تسعينيات القرن العشرين).

يستهل المؤلف فصول كتابه بتناول مسرح البيئة المصرية قبل ظهور الإنسان، فقبل أن يبدأ التاريخ المصري بنحو ألف عام (عصر ما قبل الأسرات) كانت البيئة المصرية قد اتخذت ملامحها المعروفة حاليا والمتمثلة في: مناخ آخذ في الجفاف؛ نهر كوَّن واديه ودلتاه وأرسب تربة خصبة جلبها من منابعه في هضبة الحبشة.

وتختلف بيئة مصر حاليا عما كانت عليه إبان تلك الفترة في عدة معالم أهمها أفرع الدلتا ومعدل تعرجات النهر ، وعدد جزره، ومدى اتساع نطاق مستنقعات شمال الدلتا، فضلا عن مستوى غني الحياتين النباتية والحيوانية، وهو ما تؤشر عليه الآثار النباتية والحيوانية، والرسوم على الأواني الفخارية التي تنتمي إلى عصر ما قبل الأسرات. أما سكان مصر فتميزت حياتهم بالاستقرار قرب النهر ومارسوا الزراعة وأقاموا الجسور والترع. مما ساهم في تأمين فائص من المواد الغذائية سمح بتفرغ جزء من المجتمع للاشتغال بالصناعة والفنون والتجارة التي امتدت عن طريق النهر بين مناطق مصر المختلفة وعن طريق البر بالبلاد المجاورة. وقد تجلى ذلك في انتقال السكان من المرحلة القبلية إلى الإقليمية وسكنوا القرى التي تطورت إلى حواضر ومدن في العصر التاريخي؛ ويعرض المؤلف لأهم أربعة مراكز حضارية في عصر ما قبل الأسرات وهي: العمرة؛ جرزة؛ سماينة؛ و المعادي. وضمت هذه الأمثلة منجزات حضارية ممثلة في بعض الأواني من البازلت وتماثيل وأدوات للزينة في بعض المقابر وقليل من المساكن وأنواع من الفخار المرسوم عليه حيوانات وشعارات العشائر في الفترة القبلية السابقة.

يعرج المؤلف في الفصل الثاني على مسمى مصر وحدودها فينبه قراءه إلى أن ما نعرفه اليوم عن اسم "إجيبت" أو "مصر" أو النيل" ليست أسماء أصلية أطلقها المصريون القدماء على بلادهم، بل كانت الأسماء المصرية هي "كمي" أو "تا كمي" ومعناها "الأرض المثمرة" كما عرفت باسم "تامرا" أي أرض الفلاحة، وتحيطها أرض

صحراوية حمراء هي "دشرت". هذه الأرض الطيبة المثمرة كانت تقع في وسط العالم ويرويها النهر العظيم "حابي" الذي ينبع من نهر سماوي عند شلال في البلاد الجنوبية.

ثم غير الإغريق (خلال فترة الاحتلال البطلمي لمصر) هذه الأسماء فصارت مصر تعرف باسم إيجيبتوس ربما نسبة إلى بلدة "Coptos (قفط)" أو ربما نسبة إلى كلمة "حا كا بتاح" وهي اسم بلدة منف القديمة. وتغير اسم حابي فأصبح على يد الإغريقي "نيلوس". وفي هذا الفصل يتناول المؤلف أيضا الثغور التاريخية خلال العهدين البطلمي الروماني (والتي ورثت مواقع ثغور سابقة من عهد قدماء المصريين) خاصة على البحر الأحمر مثل ليكوس ليمن قرب القصير الحالية، وموبس هورمس (قرب الغردقة) وأرسنوي أو القلزم (قرب السويس) وبرنيك (برنيس عند رأس بناس).

كما يتناول المؤلف جذور ربط البحرين الأحمر بالأبيض (وتمثلها حديثا قناة السويس). إذ يتتبع ما قام به المصريون القدماء من حفر قناة تربط البحر الأحمر بالنيل عن طريق وادي طميلات[*] وبحيرة التمساح والبحيرات المرة التي كانت متصلة بخليج السويس خلال فترة طويلة من التاريخ، ومن ثم كانت منفذاً من منافذ مصر إلى البحر الأحمر. وقد حفرت هذه القناة عدة مرات ولكنها سرعان ما كانت تترك لتردمها الرمال. فقد حفرها لأول مرة الملك سيزوستريس الثاني (أحد ملوك الدولة الوسطى) سنة ١٩٠٠ ق.م. وحفرها في المرة الثانية سيتي الأول (سنة ١٣٥٠ ق.م) وفي المرة الثالثة نخاو في سنة ٦٠٩ ق.م. وفي المرة الرابعة داريوس الفارسي (٥٢٠ ق م) الذي أراد أن يصل مصر ببلاد الهند. وفي المرة الخامسة بطليموس الثاني (٢٨٥ ق.م) وفي المرة السادسة حفرها تراجان (سنة ٩٨م). وفي المرة السابعة والأخيرة حفرها عمرو بن العاص (سنة ٦٤٠م) لينقل عليها الغلال إلى مكة ولكنها ردمت بأمر الخليفة العباسي

---

[*] وردت عند المؤلف بصيغتين: "طميلات" و "الطميلات" وقد وحدنا الكل إلى "الطميلات". (المحقق).

سنة ٧٦٧م. غير أن منافسة هذه القناة للطرق التي كانت تعبر الصحراء الشرقية إلى ثنية قنا لم تكن إلا لفترة قصيرة من التاريخ وبعدها تترك القناة لتردمها الرمال ويملؤها طمي النيل.

يتناول المؤلف في الفصل الثالث من كتابه موضوع قديم جديد هو التغيرات المناخية (أسماها الذبذبات المناخية) وعلاقة ذلك بتطور الحياة في الصحارى وخاصة شمال إفريقيا ومصر في العصر التاريخي (ما يسمى حاليا بالمناخ القديم). وقد بين كيف انقسم العلماء إلى فريقين، أحدهما يرفض أن يعترف بحدوث الذبذبات المناخية خصوصاً ذبذبات المطر، والآخر يؤكد حدوث هذه الذبذبات ويدعمها بالأدلة.

الذين يرفضون فكرة حدوث أي تغير مناخي خلال العصر التاريخي يرجعون اضمحلال الزراعة والمدن على حواف الصحراء إلى عوامل بشرية مثل تعرية التربة التي نتجت عن قطع الغابات وسوء استخدام المراعي. ويؤكد هؤلاء أنه فى حوض البحر المتوسط مثلاً لا تختلف المحاصيل التي كانت تزرع في القديم عما يُزرع الآن باستثناء بعض المحاصيل التي أدخلها العرب في القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، كما أن طرق الزراعة القديمة لا زالت قائمة ومواعيد الزراعة وجني المحصول والمدة التي يقضيها لينضج لم تتغير. أما من يؤيد فكرة تغير المناخ فيذهبون إلى أنه منذ سنة ٦٠٠٠ ق.م حدثت ذبذبات عِدة في المناخ كان من نتيجته فتراتها الجافة هجوم الجماعات المتبربرة من المناطق القاحلة في آسيا على جماعات الزراع الذين يعيشون في وديان الأنهار مثل وديان دجلة والفرات ووادي السند ويانجتسي والنيل.

ويري هؤلاء أن الحضارة الإغريقية الرومانية ازدهرت في الفترة بين ٥٠٠ ق م و٢٠٠ ميلادية وهي في نظرهم الفترة التي زادت فيها كمية الأمطار مما سمح بحياة زراعية مستقرة وغنية في حوض البحر المتوسط وفي نفس الوقت كثر الماء والمرعى في

الجهات الجافة نسبياً فضمن الرعاة بذلك رزقهم في مواطنهم ولم يتجهوا نحو نهب وسلب جيرانهم من الزراع.

وعن علاقة ذلك بتغير المناخ في مصر في العصر التاريخي، هناك من يعترض على حدوث أي تغير في المناخ ويرجع اضمحلال الشريط الساحلي في غربي الإسكندرية مثلاً إلى العوامل البشرية البحتة وأهمها تعرض هذا الإقليم لهجوم الرعاة من الشرق والغرب والجنوب وقضائهم على آثار المدنية وإهمالهم للآبار والخزانات. ويؤكد أن المنطقة يمكن أن ترجع إلى سابق ازدهارها إذا اهتمت الحكومة بتوفير الماء عن طريق حفر الآبار وتطهير الخزانات وتشجيع الرعاة على الاستقرار والزراعة وخاصة زراعة المحاصيل الشجرية.

ويقتصر أثر تذبذب المناخ في مصر على الصحراء. ففي وادي النيل تعتمد الزراعة على الري ويعتمد الناس في شربهم على ماء النيل. ويمكن القول بأن الأجزاء الساحلية في الصحراء الغربية هي التي تأثرت في حياتها الاقتصادية والاجتماعية. وسواء كانت الحياة في هذه المناطق قد تأثرت نتيجة لعدم انتظام الأمطار وارتفاع درجة الحرارة أو بسبب تغير نظام الحياة والحرفة بعد دخول البدو الرحل فإن هذا النطاق كان حتى القرن ١٥ غنياً بزرعه ومائه وأكثر سكاناً منه الآن.

يتناول المؤلف في الفصل الرابع نهر النيل ومنابعه منذ عهد قدماء المصريين وإشارات الجغرافيين في العصرين اليوناني الروماني ثم ما قاله عنه الجغرافيون والرحالة العرب في العصر الحديث. ويعرج المؤلف على قياس ارتفاع مياه الفيضان وأهميته في تقدير الضرائب التي يفرضها الحكام على الفلاحين، منذ عهد قدماء المصريين.وقد تعددت مقاييس النيل منذ أيام قدماء المصريين، وتنوعت مواقعها بين أسوان ومنف، وحلوان وأحدثها وأشهرها مقياس الروضة (القرن ٩ الميلادي).

في الفصلين الخامس والسادس يتناول الكتاب جغرافية الزراعة في مصر، وفيه تناول المؤلف عدة قضايا أهمها التغير السنوي في مساحة الأرض المزروعة في الدلتا والوادي تحت نظام ري الحياض، وتطلب ذلك قياس مساحة الأرض وحصرها وتحديد خراجها وهي العملية التي كانت تمارس منذ أقدم العصور وعرفت باسم أراكة الأرض (من الكلمة المصرية القديم روخ بمعنى يقيس). ويعتبر كتاب ابن الجيعان "التحفة السنية" أحد المصادر الشهيرة في العصر العربي ودون في القرن الرابع عشر.

كما عرج المؤلف على مشكلة الأراضي البور في شمال الدلتا عارضا للأراء المختلفة في تفسير سبب اضمحلال هذه الأراضي وبوارها سواء كانت ظروف طبيعية أو بشرية.

ويتناول المؤلف بعين الاعتبار أيضا التطور الزراعي في الفيوم الذي تسجل المصادر تطوره منذ عهد البطالمة من خلال تجفيف مساحات من بحيرة مويرس، وقد ازدهر إقليم الفيوم أيما ازدرهار في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، ثم أخذ ينكمش ويضمحل حتى بلغ أقصى درجات الاضمحلال في القرن الرابع الميلادي بسبب إهمال مشاريع الري وردم الرمال السافية لعدد من القنوات فهجر كثير من القرى والمدن، قبل أن يستعيد بعضا مما فقده في العهدين البيزنطي والعربي.

يستكمل المؤلف في الفصل السادس الذي يحمل عنوان "الري والزراعة" ما بدأه في الفصل الخامس. هنا يستعرض تفاصيل ري الحياض من الناحية الفنية فيبحث في الجسور بين الأحواض الرزاعية، والترع التي تحمل الماء من النهر وتوصيله إلى الحياض، والمصارف التي كانت تحمل كل ما يزيد عن حاجة الأرض من الماء فترجع به ثانية إلى النهر، فضلا عن نظام الري الفيضي بداية من استهلال الفيضان السنوي في أغسطس ومرورا بمراحل الري من غمر الأرض وطريقة ري الحياض. وتطلب كل ذلك عملا جماعيا وقدرا وافرا من التعاون والإشراف الدقيق من جانب الحكومة. ويعرج

المؤلف في هذا الفصل على الأدوات الزراعية التي ظلت حتى وقت قريب مستخدمة في ربوع مصر (الشادوف، الساقية ، الطنبور، المحراث، الفأس، المنجل، والنورج).

وتناول المؤلف في هذا الفصل المحاصيل الزراعية، والتي كانت محاصيل شتوية في المقام الأول (استجابة للفيضان الرئيس الذي يحل في فصل الخريف) وخاصة القمح والشعير والفول والعدس والبرسيم والكتان. أما المحاصيل الصيفية فكان أهمها الذرة العويجة والقطن والسمسم والنيلة وقصب السكر. وكانت تلك المحاصيل أقل انتشاراً ويقوم بزراعتها خاصة الناس لكثرة نفقتها وعدم قدرة الفلاح العادي على القيام بها، إذ كانت في ريها تعتمد على الماء المرفوع من النهر وفروعه ومن القنوات أحياناً وأيضاً على الماء الباطني من الآبار.

في الفصل السابع يتناول المؤلف علاقات مصر التجارية بدول الجوار عبر التاريخ، ومع التجارة والاتصال بأصحاب الحضارات الأخرى دخلت المؤثرات الحضارية الأجنبية إلى وادي النيل، كما خرجت من مصر مؤثرات حضارية إلى تلك البلاد.

أبرز المحاور كانت مع بلاد النوبة، التي كانت– رغم جنادل النهر – أسهل البلاد التي يمكن الوصول إليها من مصر. قامت على الحدود بينها وبين مصر مدينة "آبو" وهي كلمة مصرية قديمة معناها عاج أو فيل وذلك نسبة إلى تجارة العاج في هذه المدينة (وستترجم في الكتابات الإغريقية الرومانية إلى "إليفنتين"). وفي عصر متأخر ، وعلى أنقاض آبو، ستنهض مدينة سين (أسوان) والتي تعني سوقا أو مكانا للتجارة يتبادل فيه تجار مصر والنوبة السلع والمنافع، خاصة الذهب، الأحجار الكريمة، العاج، ريش النعام وبيضه، الطيب، جلد الفهود، القردة، والماشية. كانت التجارة مع هذه البلاد في عهد الدولة المصريةالقديمة تتم بسفن من أخشاب مجلوبة من بِبلوس (جبيل شمال بيروت حاليا) ذهبت بمختلف أشياء مصر الطيبة من نبيذ وجعة ولحم وفاكهة وخبز وخناجر وفؤوس للقتال وقلائد مختلفة الألوان، وعادت محملة إلى ارتفاع كبير بأكوام

من صمغ المر، وأشجار المر الخضراء، وخشب الأبنوس، والعاج، والذهب، والأخشاب ذات الرائحة الزكية وأنواع البخور وأصباغ للعيون، والقردة وكلاب الصيد وجلود الفهود والرقيق.

محور آخر للتجارة نجده في اتجاه بلاد الشام، التي كانت على صلة مباشرة بمدخل مصر الشمالي الشرقي وما له من أهمية تجارية وعسكرية. وهناك أدلة على وجود علاقات بين مصر وجزر البحر المتوسط وخاصة قبرص،كريت، رودس وصقلية وفي جهات كثيرة من سواحل البحر المتوسط. كذلك أنشأت مصر علاقات تجارية مع مملكة مرويMeroe في شمال السودان ومملكة أكسوم (الحبشة). وعن طريق هاتين المملكتين حصلت مصر على منتجات وسط القارة الأفريقية.

بدخول الإسلام تراجعت فترت التجارة الخارجية المباشرة بينها وبين العالم المسيحي في أوربا وآسيا، بينما نشطت تجارتها مع بقية العالم الإسلامي وبلاد الشرق الأقصى ووسط أفريقية،

في هذه القرون الأولى للإسلام في مصر قام وسطاء تجاريون من الجاليات الأجنبية في الإسكندرية ومن اليهود بنقل التجارة بين الشرق والغرب. وكانت مسارات التجارة البحرية تتم من بلاد المغرب وفرنجة (فرنسا) في البحر الغربي وصولا إلى الفرما ومن هناك تحمل التجارة برا إلى القلزم ثم من القلزم إلى الجار (كانت ميناء المدينة) وجدة ثم إلى السند والهند والصين .

وكان هناك بالمثل خطوط تجارة من مملكة علوة في السودان (في القرن ١١) امتدت إلى قوص (متجاوزة أسوان التي تعرضت للتدمير بسبب ما وقع فيها من فتن).

وفي أواخر العصور الوسطى اشتهر ميناء عيذاب دون بقية مواني البحر الأحمر لكل من التجارة ورحلات الحج، وارتفعت مكانتها خاصة بعد استيلاء الصليبيين على

آيله سنة ١١١٦م. وعظمت أهمية مدن نهرية مثل قوص في القرن الثاني عشر خاصة أنها كانت المحطة الطرفية لطريق قوص – عيذاب العابر للصحراء الشرقية.

وقد جنت مصر أرباحاً طائلة من المكوس التي كانت تفرضها على التجارة العابرة. كانت مكوساً ثقيلة بلغت في أواخر عهد المماليك عُشر ثمن البضاعة مما أثار معارضة البرتغاليين ودفعهم إلى البحث عن طريق آخر إلى الهند يتفادى المرور عبر مصر ومناطق نفوذها في الشرق الأوسط. وقد نجح فاسكودجاما في اكتشاف هذا الطريق بالدوران حول أفريقية سنة ١٤٩٧. وفي سنة ١٥٠٠ ثبت البرتغاليون أقدامهم في كاليكوت Calicut ومنعوا السفن من المرور في البحر الأحمر. وقد أحس السلطان الغوري بخطر هذا الكشف على التجارة الهندية المارة بمصر فخرج أسطوله لحرب البرتغاليين في مياه المحيط الهندي ولكن لم يكتب له النصر في النهاية إذ لحقت به الهزيمة في موقعة ديو Diu البحرية فكان ضربة عنيفة سددت إلى قلب مصر. ومنذ تلك الموقعة فقد موقع مصر الجغرافي قيمته إلى حين فقد تحولت عنه طرق التجارة إلى المحيط وبدأ الكساد والخراب يزحفان على العاصمة والمواني المصرية. ثم لم تلبث أن سقطت مصر نفسها في أيدي العثمانيين في سنة ١٥١٧ وتحولت إلى ولاية عثمانية تدفع ولا تأخذ وتعيش بعيدة عن مجرى الأحداث العالمية.

الفصل الثامن مهم في دراسة الجانب السياسي الإداري في جغرافية مصر التاريخية. يتتبع المؤلف تقسيم مصر الإداري منذ عصر ما قبل الأسرات حين كانت مصر مقسمة إلى عدد من الإمارات اتحدت الجنوبية منها قبل فجر التاريخ وكونت مملكة مصر العليا واتحدت الإمارات الشمالية وكونت مملكة مصر السفلى. ثم خرجت جيوش مملكة مصر العليا بقيادة مينا وهزمت مملكة الشمال واستطاع مينا أن يوحد الوجهين القبلي والبحري تحت زعامته ويؤسس الأسرة المصرية الأولى في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد.

وتسهيلاً لأمور الحكم والإدارة قسمت الدولة خلال عهد الأسرات والعهود اللاحقة إلى أقسام كبرى تشتمل على وحدات أصغر أطلق المصريون القدماء على الواحدة منها سبتSepet أو سبات Sepat. وعرفت أيام الإغريق باسم نوموي Nomoi وأيام العرب بالكور أو الأعمال.

وقد احتفظ البطالمة بالتقسيم الإداري الفرعوني غير أنهم غيروا أسماء المقاطعات المصرية وأعطوا لها أسماء إغريقية جديدة أو ترجمات إغريقية للأسماء الفرعونية القديمة. لكنهم ساروا على قاعدة أخد اسم المقاطعة من اسم العاصمة.

وفي العهد الروماني تغير التقسيم الإداري (في صدر القرن الرابع الميلادي) بعد نحو ٤٠ قرناً من الثبات. ولعل أهم أسباب هذا التغيير ما يتصل بنقص السكان وانخفاض إنتاج الأرض نتيجة للصراع الدموي بين المذاهب الدينية وهجْر كثير من الفلاحين أرضهم هرباً من ظلم جباة الضرائب والتنكيل بأصحاب الأرض وإقبال كثير من القبط على حياة الرهبنة والعزلة اتقاء لشر الحاكم.

قُسمت مصر على أثر صدور هذا المرسوم إلى عدد أكبر من الأقسام الصغيرة Pagi لكل قسم منها عاصمته وأرضه الزراعية ويتمتع بسلطة كبيرة في إدارة أموره. ويبدو أن هذه الأقسام الصغيرة انتظمت فيما بعد داخل إطار سبع "أبروشيات" (مجالس قضائية) Eparchies كان أهمها جميعاً أبروشية مصر Aegyptiaca (غرب ووسط الدلتا) ثم أبروشية أوجستا (الأولى والثانية) والتي كانت تشمل شرق الدلتا وسيناء. أما بقية الأبروشيات في الوادي فكانت أبروشية أركاديا (مصر الوسطى) وتمتد من رأس الدلتا حتى موضع مدينة المنيا الحالية (يدخل ضمنها منخفض الفيوم)؛ ثم أبروشية طيبة السفلى وتقع إلى الجنوب من أركاديا وينتهي حدها الجنوبي قرب بلدة أخميم ودخلت ضمنها الواحات الخارجة؛ ثم أبروشية طيبة العليا وكانت تمتد من

جنوب أخميم حتى جزيرة فيلة[*]؛ وأخيرا أبروشية ليبيا الصغرى وهذه شملت النطاق الساحلى إلى الغرب من الإسكندرية وتبعها أيضاً واحة سيوة.

وقد أبقى العرب في أول عهدهم بمصر على التقسيم الإداري البيزنطي الذي وجدوه وإن كانوا أطلقوا اسم "أسفل الأرض" على الوجه البحري "وأعلى الأرض" على الوجه القبلي. وأطلقوا اسم "الحوف" على أبروشيتي أوجستمنكا الأولى والثانية، كذلك عرفوا الأبروشية المصرية الأولى والثانية باسم "الريف". وهنا نلاحظ أن أبروشية "ليبيا" الرومانية سميت "إقليم الإسكندرية" وقد امتد هذا الإقليم شرقاً ليشمل منطقة رشيد. أما في أعلى الأرض فغيّر العرب اسم "أركاديا" فأصبح "مقدونية" أو "إقليم العاصمة". وأطلقوا على أبروشية طيبة "الصعيد" وجعلوا أسوان عاصمة له. كذلك اعتبرت الواحات كما كان الحال في العصر البيزنطي وحدة إدارية منفصلة.

هذه الأقاليم الرئيسية كانت مقسمة في فجر الإسلام إلى نحو ٨٥ كورة كما تخبرنا الوثائق العربية. ولكن هذا العدد أخذ يتناقص على مر الزمن حتى استبدلت الكورة كأساس للتنظيم الإداري بوحدة أكبر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر عرفت باسم "الأعمال" وهي أقسام ضم الواحد منها أكثر من كورة. ولم يبلغنا من أمر هذا التقسيم الجديد شيء يذكر وكل ما نعرفه هو أن كور الدلتا التي بلغ عددها حينذاك ٤٦ كورة صارت اثنين وعشرين عملاً لكل منها عاصمة.

يتناول المؤلف في الفصل التاسع والأخير "عواصم مصر" متتبعا ظهور المدن المصرية الأولى كعواصم للمقاطعات التي انقسمت إليها مصر الفرعونية. ولم تكن حياة سكان الحواضر الفرعونية وغيرها من المدن تختلف كثيراً عن حياة أهل الريف المجاور.

---

[*] استخدم المؤلف الهجاء الشائع "فيلة" بينما الصواب "فيلي". وقد صوبنا ذلك في كل الكتاب وذلك حرصا منا ألا يحدث خلط لدى الباحثين في اعتبار أن "فيلة" هى ترجمة لكلمة "إليفنتين"، والصواب أن "فيلي" جزيرة أخرى تقع جنوب جزيرة "إليفنتين" (المحقق).

كانت الحاضرة مجرد مكان حصين يحوطه سور أو خندق دائري تلجأ إليه كل مساء طوائف الزراع والرعاة والصيادين حيث تقضي الليل مع طوائف أخرى مستقرة من أصحاب الحرف اليدوية والتجار وموظفي الحكومة. أما موضعها فهو عند ملتقى الطرق التي يصنعها النيل وفروعه وقنواته ليسهل اتصالها بالعالم الخارجي.

وعندما وحد مينا الوجهين ولبس تاجاً يرمز إلى الشمال والجنوب لم يشأ أن يجعل العاصمة طينة Thinis مسقط رأسه لتطرف موقعها نسبياً. فأنشأ "الحائط الأبيض" (منف فيما بعد) في مكان متوسط بين أرض الشمال والجنوب لتكون عاصمة مصر الموحدة "ولتحفظ التوازن بين الوجهين".

بيد أنه لم يكتب "للمكان الجميل" أن تظل عاصمة لمصر طوال حكم الأسرتين الأولى والثانية (نحو ٤٠٠عام) فقد ارتدت عاصمة البلاد إلى الداخل ،إلى طينة وغيرها من المدن الملكية التي ظهرت في مصر الوسطى. وهكذا ذهب من "الحائط الأبيض" سلطانها الذي كان لها أيام مينا وإن بقى لها من مظاهر الملك تتويج فرعون والاحتفال بأعياد ميلاده. ولا شك أيضاً في أن قيام الإسكندرية عاصمة بعد نهاية الدولة المصرية القديمة وقيام دولة البطالمة كان عاملاً حاسماً في انحدار منف وهبوطها إلى المركز الثاني بين مدائن مصر.

أما طيبة (واست) عاصم الإقليم الرابع وعاصمة مصر بل والعالم القديم لعدة قرون فكانت في أول أمرها مدينة صغيرة تكوّن مع إقليمها وحدة اقتصادية واجتماعية لها إلاهها المحلي ولها أطماعها وقت ضعف الحكومة المركزية. وقد بدأ نجم المدينة في الصعود في أوائل عهد الأسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ ق.م)

وعلى الرغم من تطرف موقع طيبة وبُعدها عن الوسط فقد اختيرت عاصمة للبلاد ربما لرغبة حكام طيبة في أن يضمنوا ولاء أهل جنوب الوادي الذين آزروهم في

حرب التوحيد وأعانوهم على طرد الهكسوس من البلاد ورد بعض جميل أهل طيبة عليهم.

بيد أن طيبة لم تزدهر وتصبح "مدينة المدن" إلا بعد قيام الأسرة الثانية عشرة (١٥٠٠ ق.م) فقد تحولت من عاصمة وطنية إلى عاصمة إمبراطورية.

ولكن ما أن انهارت الإمبراطورية (في عصر الأسرة العشرين) حتى بدأت حياة طيبة تنكمش وتفقد بعض مظاهر مجدها وعظمتها ثم أخذ شأنها يقل بعد انتقال العاصمة إلى الدلتا –إلى تانيس وسايس.

قبل أن ينتهي عصر الإمبراطورية كانت الدلتا قد أخذت تجذب فرعون وحاشيته للإقامة على حدودها الشمالية الشرقية بعض الوقت ثم لم يمض وقت طويل حتى استقر الملك في عاصمته الجديدة بي رامسيس Pe-Ramses (تانيس) أيام الأسرة الواحدة والعشرين (١١٠٠- ٩٤٥ ق.م). ولا شك أن ظهور عاصمة وطنية في الدلتا لأول مرة منذ بدء التاريخ المصري كان دليلاً على نجاح أهل الدلتا في انتزاع السيادة من أهل الصعيد.

وقد لعبت الظروف السياسية والدوافع الأسرية فيما بعد دورها على الإبقاء على عاصمة البلاد في الدلتا فظهرت بوباسطة (في عصر الأسرة الثالثة والعشرين) في شرقها وقامت سايس (في عصر الأسرة السادسة والعشرين) في غربها. ويبدو أن منف صارت مركزاً للحكم الفارسي في أواخر عهد الأسرات المصرية إلى أن دخل الإسكندر غازيا وأمر ببناء الإسكندرية (سنة ٢٣١ ق.م) لتكون عاصمة مصر الهيلينية (على أطلال مدينة مصرية قديمة هي راقودة) ويعطي وصفا مسهبا لبنيتها وتكوينها العمراني ودورها الوظيفي.

ويكرس المؤلف جزءا مهما من هذا الفصل في تتبع نشأة وتطور مدينة القاهرة. يبدأ المؤلف مع خطوات عمرو بن العاص لإنشاء مدينة من الخيام ومنشآت الحصير ينزل فيها جنده سميت الفسطاط التي تحولت في بضع سنوات إلى مدينة دائمة مبنية من الحجر تقوم بدور العاصمة.

بعد قرن من التأسيس انتقلت الحكومة إلى "العسكر" في شمال الفسطاط ثم انتقلت ثانية إلى القطائع شمالي العسكر في عام ٨٧٠م. ثم استقر بها المقام في "القاهرة" التي أنشأها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ٩٦٩م. وقد نمت القاهرة بعد ذلك لتضم في محيطها مواضع العواصم الإسلامية السابقة لذلك يمكن القول إن القاهرة الحديثة هي وريثة كل العواصم الإسلامية الأولى وبابليون من قبل ذلك. بل إنها خليفة منف على الشاطىء الشرقي للنيل.

لماذا إعادة نشر الكتاب ؟!

في ظل الإهمال الجسيم في الحفاظ على كتب التراث الجغرافي في مصر تدعو الحاجة دوما لإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها. ونظرا لما وجدته من أهمية في محتوى الكتاب فقد حصلنا على صورة ضوية (بالكاميرا) للكتاب من مكتبة الجامعة الأمريكية(*) وأعدنا كتابة العمل مجددا، وصوبنا ما جاء فيه عرضا من أخطاء إملائية أو طباعية. كما أعدنا رسم الخرائط (١٦ خريطة) كي تناسب الطباعة الرقمية الحديثة.

وبعد ذلك أودعنا نسخا من هذا الكتاب في حلته المطبوعة الجديدة في دار الكتب والوثائق المصرية. كما أودعنا عددا منه في المكتبات المهمة في القاهرة. وفي النهاية رفعت نسخة منه على شبكة الإنترنت. ولا تهدف إعادة طباعة ونشر هذا الكتاب

(*) في القاهرة الجديدة، التجمع الخامس.

إلى تداوله بيعا تجاريا، بل إلى الحفاظ عليه بعد أن اندثرت نسخه الأصلية خاصة أن الناشر كان المؤلف نفسه ولم تقم أية دار نشر بتبني الكتاب وتوزيعه.

والفارق الزمني بين تاريخ صدور الكتاب أول مرة في الإسكندرية (١٩٦٢) وتاريخ إعادة نشره في القاهرة (٢٠١٧) فارق كبير يتجاوز نصف قرن ومع ذلك ما تزال في الكتاب روح نابضة، وذلك للأسباب التالية:

- المنهج الذي كتب به العمل والذي يقوم على دراسة متسلسلة ومنطقية لجغرافية مصر عبر العصور: إسما وهيئة وبيئة وزراعة وريا وتقسيما إداريا.
- اللغة النابضة والبسيطة التي يتمتع بها الكتاب وتعطيه إلى الآن القدرة على البقاء سلسلا مقبولا مفهوما ومعاصرا.
- الخرائط الأساسية التي قدمها المؤلف وعليها توقيع شابين في مطلع الطريق العلمي - سيصبحان من أعلام الجغرفيا لاحقا - وهما محمد سطيحة في جامعة القاهرة وفتحي أبو عيانة في جامعة الإسكندرية.
- قائمة المراجع التي اعتمد عليها الكتاب وهي شاهد عيان على ما وصل إليه البحث العلمي حول مصر حتى منتصف القرن العشرين. ومن خلالها يتبين للباحثين الشبان مدى الأمانة العلمية لدى المؤلف وإحالاته الدقيقة. وأود التوضيح هنا أن المؤلف لم يجمع قائمة مراجعه بشكل مفهرس في نهاية الكتاب، بل أشار إليها اختصارا في متن الإحالات. وقد جمعت تلك المصادر والمراجع وحققت هجائها وأسمائها مستعينا بدراسات عبد العال الشامي، وهو عالم مرجع في جغرافية مصر التاريخية، خاصة في العصر العربي.

وأخذا في الاعتبار الأسباب الأربعة السابقة، فضلا عن سلاسة ودقة عرض الفصل التاسع المتعلق بتطور مدينتي القاهرة والإسكندرية، يمكن القول إن هذا

الكتاب مفيد جدا للجغرافيين عند اختلاف مستوياتهم العلمية وإن كان جمهوره الأساس هو طلاب المرحلة الجامعية.

وقد صوبنا الأخطاء المطبعية والإملائية (وهي جد قليلة) دون الإشارة إلى ذلك لا في النص ولا في الهامش، ولكن عند توضيح ما يستوجب توضيحا وضعت علامة (*) في النص وكتابة التوضيح في الهامش. تمييزا عن الترقيم (١) و (٢) ..ألخ الذي استخدمه المؤلف للإحالات المرجعية.

جغرافية مصر التاريخية

عبد الفتاح وهيبة

طبع في الإسكندرية
١٩٦٢

"فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هى

عنبرة سوداء، فإذا هى زمردة خضراء فإذا هى

ديباجة قشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء".

(من رسالة عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب في وصف مصر)

تقديم

تتفق هذه الفصول فى اتجاهها نحو رسم صور متطورة ومستقلة للظاهرات الجغرافية- طبيعية كانت أم بشرية - خلال زمن طويل، يبدأ بقيام الأسرات المصرية وينتهى بالقرن الثامن عشر الميلادي. زمن بالغ الطول حقاً ولكن طوله ليس له فى هذا المقام وزن كبير. فالتطورات فى جغرافية مصر الطبيعية تمضي بطيئة متثاقلة، والتغيرات التى طرأت على استغلال الأرض وعلى حياة الناس ربما لم تمس جوهر الأشياء. ولما كانت الجغرافية التاريخية تهتم بالتطور والتغير فإن الاستمرار لا يعنيها كثيراً مهما طال الزمن.

ولا أدعى أننى أحطت بأطراف كل ما عالجته من موضوعات فذلك يحتاج إلى موسوعة يتعاون على كتابتها نفر من المتخصصين. ولكنى قمت فقط برسم الخطوط العريضة لما تعرضت له من ظاهرات جغرافية على شكل قطاعات طولية فى مجرى الزمن.

ويدرس الكتاب نشأة الحضارة المصرية وأسماء مصر وحدودها ومداخلها ثم يتطرق إلى مناقشة الآراء المتصلة بالذبذبات المناخية فى العصر التاريخى ومدى تأثر مصر بها. ويتعرض الفصل الرابع للنيل وفيضانه وتطور فروعه بينما يتحدث الفصل الخامس عن الأرض الزراعية وتغير مساحتها ومشكلة الأراضى البور فى شمال الدلتا والفيوم. ويبدأ الجانب البشرى من الكتاب بفصل عن الرى والزراعة يتلوه دراسة للتجارة الخارجية والأقسام الإدارية ثم يأتى فى الختام فصل مطول عن العواصم المصرية.

وأرى لزاماً عليَّ أن أعترف هنا بفضل كل من عاوننى على طبع هذا الكتاب وإخراجه. غير أني أود أن أخص بالشكر زميلي السيد/ محمد محمد سطيحه على تفضله برسم معظم الخرائط.

عبد الفتاح محمد وهيبة

الإسكندرية في ١٩٦٢/١/٦

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة: الجغرافية التاريخية.. موضوعها، طريقتها، أهدافها	٢٧
الفصل الأول: مصر في عصر ما قبل الأسرات	٣٥
الفصل الثاني: مصر التاريخية	٤٣
الفصل الثالث: الذبذبات المناخية في العصر التاريخي	٥٥
الفصل الرابع: نهر النيل	٦٥
الفصل الخامس: أرض مصر	٨٧
الفصل السادس: الري والزراعة	٩٩
الفصل السابع: تجارة مصر الخارجية	١١٩
الفصل الثامن: أقسام مصر الإدارية	١٤٣
الفصل التاسع: عواصم مصر	١٦٥

فهرس الخرائط

الشكل	الصفحة
١. حدود مصر وثغورها	٤٨
٢. فروع النيل كما ذكرها هيرودوت	٧٤
٣. فروع النيل كما ذكرها استرابون	٧٦
٤. فروع النيل ومصباته كما ذكرها بطليموس	٧٨
٥. مجرى النيل عند القاهرة في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي	٨٣
٦. محطات التجارة وطرقها في الفترة الإغريقية الرومانية	١٢٨
٧. طرق التجارة ومراكزها في الفترة العربية	١٤٠
٨. أقسام مصر الرئيسية حسب ما ذكره هيروكليس	١٥٧
٩. أقسام مصر الإدارية ومدنها المهمة حسب ما ذكره جورج القبرصي	١٦٠
١٠. الأقاليم وعواصمها في الوجه البحري في سنة ١٣٧٥م	١٦٤
١١. موضع طيبة	١٧٥
١٢. الإسكندرية في العصر اليوناني الروماني	١٨٣
١٣. انكماش الإسكندرية في العصور الوسطى	١٩٣
١٤. مواضع الفسطاط والعسكر والقطائع	٢٠٥
١٥. القاهرة في العصر الأيوبي	٢١٠
١٦. نمو مدينة القاهرة	٢٣٣

مقدمة:

الجغرافية التاريخية

موضوعها، طريقتها، أهدافها

الجغرافية التاريخية هي الدراسة الجغرافية لأية فترة من فترات التاريخ ترتبط أحداثها بطريقة منظمة بتطور الإنسانية وبالتاريخ العالمي، والذي نقصده بالدراسة الجغرافية دراسة المكان (الذي سكنه ويسكنه الإنسان) بكل عناصره وصفاته مع ملاحظة أوجه الاختلاف بينه وبين الأماكن الأخرى أى مع ملاحظة الاختلافات الإقليمية Areal differentiations. ويدخل تحت هذه الدراسة كل أفرع الجغرافية المعروفة ولكن في الماضي[1]. ندرس مثلاً ماكان عليه المناخ والمظهر الطبيعي لإقليم من الأقاليم (جغرافية طبيعة) والسكان ومحلاتهم (جغرافية اجتماعية) ونوع استغلالهم للبيئة وعلاقاتهم التجارية مع العالم الخارجي (جغرافية اقتصادية) ثم أخيراً تطور التقسيم الإداري والحدود السياسية والمشاكل التي ارتبطت بقيام الدول وإمكانيات هذه الدول وأطماعها (جغرافية سياسية).

وعند الحديث عن جغرافية الماضي يجب ألا نهتم كثيراً بالتمييز الدقيق بين فترة ماقبل التاريخ والعصر التاريخي وبين الماضي والحاضر؛ فالذي يهمنا هو أن تكون الدراسة جغرافية، تهتم أكثر ما تهتم بوصف المكان وليس بسرد الأحداث التاريخية التي مرت به[2] ومن الخطأ أن نميز بين الجغرافي والمؤرخ على أساس أن الجغرافي يهتم بالحاضر بينما يهتم المؤرخ بالماضي أو أن الجغرافي يهتم بدراسة الأقطار المتباينة بينما يركز المؤرخ اهتمامه على فترات التاريخ المختلفة. هذه من غير شك توضيحات ليست صائبة بشأن مهمة كل من الجغرافي والمؤرخ[3] . فالمؤرخ لا يعنى فقط بدراسة الماضي البعيد بل إنه يطبق طرق بحثه على دراسة الماضي القريب. هذا ولا يمكن أن ينكر أحد على المؤرخ دراسته للحاضر أو الفترة التي يعيش فيها، وإذا فعل ذلك لا يتحول إلى جغرافي ولا يتعدى على اختصاص الجغرافيين. وكما أن المؤرخ يستطيع أن يدرس تاريخ

---

(1) Hartshorne, R. The Nature of Geography. Lancaster, 1951, P. 148.
(2) Mitchell, J. Historical Geography. London, 1954, pp. 12-15.
(3) المرجع السابق ص ١٢ – ١٥.

دولة كالهند كذلك يستطيع الجغرافي أن يدرس جغرافية القرن التاسع عشر. وفي كلا الحالين لا يتحول الجغرافي إلى مؤرخ ولا يستطيع المؤرخ أن يدعي أنه أصبح جغرافياً. وليس معنى ذلك أن طبيعة الدراسة الجغرافية تختلف كل الاختلاف عن الدراسة التاريخية إذ لا يوجد حد واضح بين الجغرافية والتاريخ وذلك لسببين ، الأول: أن جغرافية أي مكان في الوقت الحاضر ما هي إلا صورة مؤقتة متغيرة ستدخل في عداد التاريخ بعد فترة طالت أم قصرت. وينطبق ذلك على وجه الخصوص على الجغرافية الاقتصادية فخرائطها وإحصائياتها سرعان ماتصبح وثائق تاريخية ؛ والسبب الثاني: أن الاختلافات في شخصيات الأقاليم ليس مرجعها فقط اختلافات في التضاريس والتربة والمناخ وإنما مردها أيضاً إلى التباين في طرق استغلال الأرض طوال التاريخ[1]. وقد كان فيدال دلا بلاش Vidal de la Blache هو أول من عرَّف الجغرافيا بأنها علم المكان ولكنه كان يعني المكان الذي سكنه الإنسان وليس المكان قبل ظهور الإنسان.

ويجب أن نشير هنا إلى أن الحديث عن جغرافية أي إقليم في فترة من الفترات الماضية لن يكون حديثاً وافياً جامعاً لكل الحقائق التي نود سردها. فالإجابة على السؤالين التقليديين اللذين يسألهما الجغرافي وهما أين؟ ولماذا؟ ستكون صعبة وسيقضي الجغرافي التاريخي أو المؤرخ الجغرافي وقتاً طويلاً في محاولته للإجابة عليهما[2] . الصورة ستكون إذن ناقصة في بعض أجزائها كما أن النتائج لن تكون مؤكدة أما الخرائط فستكون تقريبية ويرجع هذا النقص والقصور إلى عدم ترابط وقلة الحقائق الجغرافية التي يمكن العثور عليها واستنتاجها من بين المصادر المعروفة [3]. ولكن من

---

(1) Darby, H. On the Relations of Geography and History. Reprinted from "Transactions and Papers, 1953, No. 19, P. 5.

(2) Mitchell J. (1954) pp. 12-15.

(3) Ibid.

وأنظر كذلك Hartshorne, R(1951) pp. 186-88.

البديهي أن درجة قصور الدراسة وقلة النتائج التي نصل إليها يتوقف على الفترة التي تنصب عليها الدراسة. هل هي فترة بعيدة في التاريخ أم قريبة فكلما كان التاريخ قديماً كانت الحقائق التي يمكن استخلاصها أقل وبالتالي تكون الصورة التي نرسمها أقل وضوحاً وعكس ذلك فصحيح. هناك عامل آخر يؤثر في قيمة المعلومات وفي وفرة الحقائق ألا وهو درجة تقدم السكان وحظهم من الحضارة. فكلما تقدمت حياتهم المادية والثقافية كلما تعددت مصادر الدراسة وأصبح من السهل دراسة بيئتهم بشكل أفضل.

وعلى كل من يرغب في أن يجعل حقل دراسته الجغرافية التاريخية أن يحيط إحاطة تامة بأسس الجغرافية الطبيعية والحيوية وأن يقوي ملكة الاستنتاج السليم والربط بين الحقائق[١]. كما يجب أن يمتد أفقه إلى ما وراء موضوع دراسته. يجب عليه أن يقرأ لعلماء التربة والجيولوجيا والآثار والمؤرخين والمهندسين المعماريين وعلماء اللغة. كما يجب عليه أن يستشير المتخصصين في فروع العلوم التي لها صلة بموضوعه. أما أهم مصادر الجغرافية التاريخية: المصدر الأول وتمثله الدراسات الجيولوجية المتعلقة بتطور مظاهر سطح الأرض وتطور المناخ وأثر ذلك على الحياة النباتية والحيوانية السائدة ودراسة علاقة اليابس بالماء منذ أن ظهر الإنسان العاقل في البليستوسين. وتعتمد هذه المباحث على الحفريات النباتية والحيوانية وعلى توزيع وشكل الأرصفة البحرية والنهرية ومظاهر الإرساب الأخرى. المصدر الثاني يتمثل في الدراسات الأثرية التي تكشف عن جنس الجماعات القديمة بدراسة هياكلها كما تتعرف على حياتها المادية ودرجة حضارتها من دراسة كتابتها وأثارها من الحلى والآلات والأسلحة والمساكن والقلاع والمعابد وغيرها[٢]. المصدر الثالث هو دراسة أصل أسماء الأماكن المختلفة. فهذه الدراسة كثيراً ما تلقي الضوء على تاريخ تعمير المكان كما أن الاسم ربما يشير إلى نظام المجتمع أو

---

(١) Darby, H. (1953) p. 11.
(٢) Mitchel, J (1954) pp. 18-40.

طبيعة البيئة المحلية وهذه المعلومات تهم من يبحث في الجغرافية التاريخية[١]. أما المصدر الأخير فيشمل المخطوطات والإحصاءات المختلفة وما جاء في كتب الجغرافيا والتاريخ والخرائط القديمة وكتب الرحلات. بقيت نقطة أخيرة في هذا الصدد وهي أنه على الجغرافي بعد أن يرجع إلى تلك المصادر أن يزور المنطقة التي يزمع دراستها ويقوم بتحقيقاته الخاصة إن أمكن حتى تكون الدراسة أكثر واقعية واتزاناً[٢]. كما يجب عليه أن يرجع قليلاً إلى ما وراء الفترة التي يدرسها ويتوقف مدى الرجوع إلى الوراء على طبيعة المشكلة التي يعالجها أو صفات المكان التي يود دراستها. فقد تأخذه بعض المشاكل والتفسيرات بعيداً خلال التاريخ البشري بل خلال التاريخ الجيولوجي ، بينما نجد مشاكل وموضوعات يكفي لاستكمال دراستها الرجوع إلى الماضي القريب.

ويمكن أن تكون دراسة الجغرافية التاريخية دراسة جذرية أو رأسية Vertical Study وهذه تعني ببحث تطور عناصر البيئة كل عنصر على حدة خلال الزمن، كدراسة تطور أفرع النيل أو الزراعة أو التعدين في مصر في العصر التاريخي. هذه الدراسة ربما لا تظهر بجلاء وحدة البيئة إلا أنها تعرض عناصر البيئة والنشاط البشري بغير تكرار وبكثير من العمق وهي في ذلك تتفق مع منهج الجغرافيا العامة في الاهتمام بدراسة ظواهر أو عناصر فردية يرتبط بعضها ببعض بطريق مباشر وغير مباشر. وقد تكون الدراسة أفقية Horizontal Study وهذه تقسم الزمن إلى عصور وتعالج جغرافية كل فترة عن حدة، ربما لا تحاول أن تصور الجغرافية كوحدة إلا أنها تعجز عن تفسير كل عناصر البيئة كما أنها لا تسلم من التكرار. ويتشابه منهج الدراسة الأفقية مع منهج الجغرافية الإقليمية في الجمع بين أكثر من عنصر من عناصر المكان[٣]. ومهما يكن من

---

(١) Ibid.
(٢) Sauer, Carl, “The Survey Method in Geography and its Objectives” Ann. Ass. Am. Geogrs, 41 (1954) 17-33.
(٣) Darby (1953). pp. 3-6.

شيء فإن طبيعة الموضوع هي التي تحدد أي الطريقتين أفضل وأمثل. وسنتبع في بحثنا هذا الطريقة الرأسية.

وربما نتساءل ما قيمة الجغرافية التاريخية ولماذا ندرسها؟ الجغرافية التاريخية مقدمة ضرورية لفهم جغرافية الوقت الحاضر. وإذا كانت مهمة الجغرافي هي وصف المكان وتفسير ما به من ظاهرات فمن الواضح أنه لن يستطيع أن يعتمد فقط على ما يراه لأن مظهر المكان أو المنظر المرئي The visible scene لا يمكن أن يهدينا إلى مجموعة العوامل التي أثرت فيه وأعطته طابعه المميزة[١]. كما أن المظهر العام للمكان ما هو إلا صورة متغيرة، كانت شيئاً وستكون شيئاً آخر أو هو صورة في شريط سينمائي بغير نهاية[٢]. أما العامل الرئيسي في هذا التغيير التاريخي في صورة المكان فهو الإنسان نفسه ويمكن الرجوع إلى أعماله في كل المراجع والحوليات والوثائق التي تتحدث عن أنواع النشاط البشري على سطح الأرض. وواقع الأمر أن الدراسة الحقلية على الرغم مما تلقاه هذه الأيام من اهتمام ليست كل شيء ولا يمكن أن تجيب على كل سؤال. ولنسأل المنكرين على الجغرافية التاريخية قدرتها على الإيضاح والتفسير كيف يستطيعون مثلاً تفسير نشأة ومظهر الإسكندرية الخارجي من الدراسة الحقلية التي تعتمد على الملاحظة. فأية مدينة ظهرت في ضوء التاريخ وتطور كل من مظهرها ووظائفها خلال العصور المختلفة ؛ وما مظهرها الحاضر ووظائفها الحالية إلا حلقة في سلسلة متصلة تستمد وجودها ومعناها من الماضي والتاريخ. لذلك فمن البديهي أن أي دراسة لمدينة لا تعتمد على جغرافية الماضي لهي دراسة سطحية ولا يمكن أن تعطي تفسيرات مقبولة. ومثل الجغرافي التاريخي في ذلك كمثل الجيمورفولوجي الذي لا يستطيع أن يفسر الخريطة الجيولوجية بغير معرفة سابقة للتتابع الزمني للتكوينات الصخرية المبينة على

---

(١) Ibid., p. 7.
(٢) Hartshorne, R. (1951) P. 188.

الخريطة[1]. سؤال آخر. كيف يستطيع الجغرافي الذي يعتمد على الملاحظة فقط أن يفسر كل ما تصوره الخريطة الطوبوغرافية؟ لا شك أنه بالعمل الحقلي وحده لا يمكنه أن يفسر كل الظاهرات والخطوط لسبب بسيط وهو أن كلها خطتها يد الزمن على وجه الطبيعة.[2]

لهذا كله فإن الدراسة الحقلية يجب أن تكملها الدراسة المكتبية التي تعتمد على كل ما يتصل بالمكان من خرائط قديمة وحديثة ووثائق وأبحاث جغرافية تتصل بماضيه وحاضره[3]. وإذا كانت الجغرافيا التاريخية مقدمة ضرورية لفهم جغرافية الوقت الحاضر فهي مقدمة منطقية أيضاً. فعندما ينظر الجغرافي حوله فإن السؤال الذي سرعان ما يتردد في ذهنه هو: ما الذي أعطى المكان طابعه الخاص؟ أو لماذا يظهر هذا المكان بهذه الصورة؟ وفي اللحظة التي يبدأ الجغرافي الإجابة على هذا السؤال فإنه يكون بطريقة أو بأخرى قد بدأ يكتب في الجغرافية التاريخية[4].

والجغرافي التاريخي رغم ذلك متواضع، لا يدعي أن دراسته تجيب على كل سؤال وتجد الحلول لكل مشكلة. ولكنه يميل إلى الاعتقاد في أن دراسته تُلقي كثيراً من الضوء على المشاكل الجغرافية وتمكِّنه من الإجابة على أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها كثير من العلوم الإنسانية. فعدم التوازن بين عدد السكان وموارد البيئة، وتقبل الحضارة وعدم تقبلها والعلاقة بين التقدم الصناعي ونمو السكان وتقدمهم كلها مشاكل وظاهرات

---

(1) Wooldrigde, s. & East, W.The Spirit and Purpose of Geography. London, 1952, p. 87.
(2) Ibid, p. 82.
(3) Darby, H. (1953) pp. 9-11.
(4) Ibid,

ليست جديدة على العالم تعرض لها كثير من العلماء ولكن الجغرافي المؤرخ يمكنه التنبؤ بما سيحدث بل ربما يستطيع توجيه التغيير في الطريق السليم[1].

[1] Clark, A. "Historical Geography" In American geography Ed, James, Syracuse University Press, 1954, pp. 70-96.

الفصل الأول:

مصر في عصر ما قبل الأسرات

قبل أن يبدأ التاريخ المصري بأكثر من ألف عام كانت جغرافية مصر الطبيعية قد اتخذت صورتها التاريخية المعروفة، فالمناخ آخذ في الجفاف والنهر كوَّن واديه ودلتاه وأرسب تربة خصبة جلبها من منابعه في هضبة الحبشة ومنخفضات الصحراء قد تم تكوينها وبانت معالمها الفيزيوجرافية. وإذا كان من اختلاف بين جغرافية مصر الطبيعية في عصر ما قبل الأسرات واليوم فهو في درجة جفاف المناخ وانحناءات النهر وعدد فروعه ومدى اتساع "ظهور السلاحف" ونطاق المستنقعات في الدلتا ومبلغ غني الحياتين النباتية والحيوانية[1]. ومهما يكن من شيء فمجرى النهر كان يختلف في مستواه وبعض اتجاهاته عما هو معروف عنه الآن ، وكانت فروعه في الدلتا أكثر من سبعة. كما كانت "ظهور السلاحف" في جنوب شرق الدلتا ونطاق المستنقعات في شمالها أوسع منها اليوم. ومن دراسة البقايا النباتية والحيوانية والرسوم على الأواني الفخارية التي تنتمي إلى عصر ما قبل الأسرات يتبين أن نباتات طبيعية وحيوانات برية كثيرة كانت تعيش في تلك الفترة في وادي النيل والصحراء ولكنها انقرضت خلال التاريخ. من تلك النباتات البردي وزهرة اللوتس ومن الحيوانات الأسد والفيل وفرس النهر والتمساح.

أما السكان فأغلبهم كان قد استقر قريباً من النهر وأعطى ظهره للصحراء. كانوا في واقع الأمر أكثر استقراراً من أصحاب حضارات العصر الحجري الحديث. ففي هذه الفترة نزل السكان إلى قاع الوادي وقطعوا ما فيه من أحراج وأعشاب وزرعوا الأرض وأقاموا الجسور والترع للاستفادة من مياه النهر وقت الفيضان وعرفوا السنة والشهر. وربطوها بالمواسم الزراعية ومواعيد الفيضان وزاد اهتمامهم بتربية الحيوانات للانتفاع بها في الغذاء والانتقال والعمل في الحقل كل ذلك ساعد على وجود وفرة وفائض في

---

[1] لمتابعة هذا الموضوع راجع:

Huzayyin, S. The place of Egypt in Prehistory Cairo, 1941, Butzer, K. W. “Envrionment and Human Ecology in Egypt” Bull. Soc. De geog D’ Egypte, T. XXXII, 1959, pp. 43-85.

المواد الغذائية سمح بتفرغ جزء من المجتمع للاشتغال بالصناعة والتجارة والفنون فظهرت صناعات عدة شملت صناعة الأسلحة والأدوات المتنوعة الجميلة من الحجارة والمعدن والخشب والعاج والأواني من البازلت والمرمر والجرانيت إلى جانب الأواني الفخارية ذات الرسوم والأواني والأشكال البديعة. كما تقدمت التجارة فامتدت الصلات التجارية عن طريق النهر بين مناطق مصر المختلفة، وعن طريق البر بالبلاد المجاورة؛ ونهضت الفنون فنحتت التماثيل من الحجر أو العاج ورسمت المناظر الطبيعية ومناظر الحروب والصيد وزاد الاهتمام بأدوات الزينة وانتقل السكان من المرحلة القبلية إلى الإقليمية وسكنوا القرى التي تطورت إلى حواضر ومدن في العصر التاريخي. ومن دراسة النقوش والرسوم يتبين أنه أصبح لكل إقليم طوطم يرمز له ويبدو أن وحدة ما بين بعض هذه الأقاليم أدت إلى ظهور إمارات صغيرة أصبحت فيما بعد أقسام مصر الإدارية إبان العهد الفرعوني. في هذا العصر أيضاً تعقدت الحياة الدينية عن ذي قبل وتطورت فكرة ما بعد الحياة وانعكس أثر ذلك على فن بناء المقابر فظهرت جبانات واسعة بها مقابر مستطيلة صُنعت من الطين وانقسمت إلى قسمين: قسم للدفن وقسم للأثاث الجنائزي. وكان ذلك مقدمة لظهور المصطبة ثم الهرم المدرج ثم الهرم الكامل في الأسرة الرابعة.

وقد عرفنا الشيء الكثير عن حضارة ما قبل الأسرات والنشاط الاقتصادي لأصحابها من الآثار التي عثر عليها علماء ماقبل التاريخ والأثريون في مناطق العمرة وجرزة وسماينة والمعادي. وسنحاول هنا رسم الخطوط الرئيسية لهذه الحضارات لنرى كيف ساهمت كلها في خلق حضارة مصر التاريخية.

حضارة العمرة

تعد حضارة العمرة ممثلة لعصر ما قبل الأسرات الأسفل ، ويطلق عليها أحياناً نقادة الأولى ، وهي حضارة محلية ظهرت في جنوب الصعيد وتأثرت بحضارة البدارى التي

سبقت عصر ما قبل الأسرات[1] وقد أثرت حضارة العمرة بدورها في الحضارتين اللاحقتين الجرزية والسماينية، ورغم أنه وجد في العمرة بعض المقابر وقليل من المساكن وأنواع من الفخار، إلا أن أهم ما تمتاز به هذه الحضاره نوعان من الفخار نوع أحمر عليه خطوط متقاطعة باللون الأبيض والنوع الآخر فخار أسود عليه رسوم محفورة ويملأ الحفر بمادة بيضاء[2]. أما الرسوم المحفورة فكانت لحيوانات مثل فرس البحر والزراف والتمساح ونباتات وأشخاص وقوارب وكذلك ظهرت علامات على هذه الأواني ربما تدل على شعارات العشائر في الفترة القبلية السابقة. ووجد إلى جانب الأواني الفخارية الشراشر والسكاكين وبعض الأواني من البازلت وتماثيل وأدوات للزينة من أمشاط ودبابيس. في هذه الحضارة وضحت صلات مصر مع الخارج[٣] فقد كثر استعمال الذهب المجلوب من بلاد النوبة وظهرت نباتات غريبة جلبت من بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط، أما النحاس الذي صُنعت منه بعض الآلات والأدوات فقد استخرج من مناجم سيناء ورغم ذلك فلم تكن التجارة أساساً من أسس الحياة الاقتصادية المصرية وإنما كانت الزراعة وتربية الحيوانات.

حضارة جرزة وسماينة

الفصل بين هاتين الحضارتين ليس دقيقاً ولا واضحاً، لذلك يمكن اعتبار حضارة سماينة امتداداً واستمراراً للحضارة الجزرية ويطلق بعض العلماء عليهما معاً حضارة نقادة الثانية. ويغلب على الظن أنها قادمة من شمال مصر وانتشرت في جزء كبير من مصر الوسطى. وهي أرقى من حضارة العمرة ففيها أرسيت قواعد الحضارة الزراعية المصرية وتعقدت الحياة الدينية وقد استطاع أصحاب هذه الحضارة تحديد المواسم

---

(1) Mc Burney, C. The Stone Age of Northern Africa. London. 1960, P 245.
(2) Peake, H and Fleure. H. Times and Places, Oxford, 1956, P. 118.
(٣) Mc Burney. P. 245.

الزراعية بما يتفق مع مواعيد ارتفاع النهر وهبوطه وظروف المناخ[١]. كما حددوا طول السنة وقسموها إلى إثنى عشر شهراً. وجدّوا في توسيع الرقعة الزراعية بقطع الأحراج وتجفيف المستنقعات واستغلوا مياه الفيضان أحسن استغلال بعد أن حفروا الترع وصنعوا الجسور. فزاد إنتاج الأرض وفاض الغذاء، مما ترتب عليه تنوع المهن والحرف وظهور صناعات جديدة ونشاط التجارة خصوصاً مع بلاد الشرق الأدنى. وربما ظهرت الكتابة في أواخر هذه المرحلة الحضارية[٢] فقد اكتشفت قائمة بأسماء ملوك محليين مدونة على بعض الآثار[٣]. ومما يدعو للدهشة ما وصلت إليه الآلات الحجرية من تطور لم تبلغه في أي عصر سابق أو لاحق. فقد صنعت أنواع مختلفة من السكاكين مشظاة بمهارة عجيبة ولها مقابض عاجية حفرت عليها رسوم تدل على تأثر الفن المصري بالفن السومري[*][٤]. كذلك ظهرت سكاكين تشبه ذيل السمكة ومقاشط وخناجر وحراب ورؤوس سهام إلى غير ذلك من الأسلحة. وكان من أثر استخدام النحاس بكثرة في صناعة الآلات والأسلحة أن سهل تشكيل الأخشاب وتصنيعها. أما الفخار فقد صنعت منه أشكال جديدة غير الأشكال القديمة المعروفة فظهرت أوان لها مصبات وعليها رسوم ملونة وشعارات إقليمية وأخرى قاتمة اللون ذات مقابض مموجة بها آثار زيت[٥]. ولما كان لهذه الأواني الأخيرة ما يشبهها في سوريا فقد ظن بعض العلماء أن مصدرها سوريا وأنها نقلت بواسطة تجار الزيت من سوريا إلى مصر. ولكن الأرجح أنها نشأت في مصر نشأة مستقلة لأنه من الصعب القول أن هذه الأواني الفخارية كانت تتحمل هذا السفر الطويل الشاق بين مصر وسوريا دون أن يصيبها كسر أو تلف. كذلك امتد التطور إلى

---

(١) Childe, G. Man Makes Himself, London, 1951, p. 137, Ibid, p. 184.
انظر ايضاً:.Breasted. J. A History of Egypt. London, 1935 p. 33
(٢) Childe, (1951), 184.
(٣) Breasted (1935), p. 35.
(*) كتبت "الصوموي" في النسخة الأصلية للكتاب. (المحقق).
(٤) Peake and Fleure, (1956) Op, cit. p 20.
(٥) Ibid,

المساكن والمقابر فقد أخذت المساكن ذات الجدران الأربعة في الظهور وأصبحت المقبرة قبيل بدء العصر التاريخي مستطيلة الشكل لها جدران من الطوب اللبن يدفن الجثمان في قسم منها ويخصص القسم الثاني للأثاث الجنائزي. وكانت هذه المقبرة الأصل الذي تطورت عنه المصطبة والأهرامات في العصر التاريخي.

حضارة المعادي:[١]

تمثل حضارة المعادي حضارة الشمال أو الدلتا وهي تتبع نقادة الثانية. وتنتشر آثارها على مسافة تقدر بحوالي ٤٥ فداناً تمتد شرق ضاحية المعادي خارج الأراضي الزراعية. والآثار لقرية كبيرة من بينها بقايا مساكن تنتشر بينها مقابر وُضع فيها الموتى القرفصاء. كذلك وجدت مواقد وأفران ومخازن غلال ويلاحظ أن الفخار أقل جودة من فخار نقادة الأولى ولو أنه وجد بعض قطع كفخار ملون مما يرجح وجود اتصال بفلسطين. ومن بين ما اكتشف أيضاً آلات حجرية كثيرة متقنة الصنع وأدوات زينة وأواني خشبية وبقايا تماثيل[٢]. وكان المجتمع زراعياً يشتغل بعض أفراده بالتجارة ربما في المعادن التي كانت تُجلب من سيناء والشرق الأوسط. كذلك اهتم أصحاب هذه الحضارة بتربية الحيوانات مثل الخنازير والبقر والأغنام والحمير[٣]. أما الناحية الدينية فلا نعرف عنها كثيراً.

---

[١] بدأ الكشف عن هذه الحضارة في سنة ١٩٣٠. قام به أول الأمر الأستاذ مصطفى عامر بالاشتراك مع الأستاذ منجيني ثم تولاها الأستاذ مصطفى عامر بمفرده.

[٢] Peake, H. and Fieure, H. Op. cit, pp.I -22.

[٣] راجع في ذلك: Amer, M, (with Menghin, O,) Excavations at Maadi: Cairo, 1932 and 1936,

واقرأ كذلك الجزء الخاص بحضارات مصر في عصر ماقبل الأسرات في كتاب "حضارة مصر والشرق القديم" تأليف الدكتور إبراهيم رزقانه والدكتور أنور شكري والدكتور عبد المنعم أبو بكر والدكتور حسن أحمد محمود.

من هذا يتبين أن الدلتا لم تكن أقل من الصعيد في حضارتها ولم يكن دورها في تطور الحضارة وظهور المدنية المصرية دوراً ثانوياً كما ادعى بعض العلماء. الحقيقة أن الدلتا كانت طوال عصر ما قبل الأسرات منطقة غنية تمتاز بكبر قراها واتساع أراضيها الزراعية ومراعيها ومستنقعاتها حيث الطير والسمك كما كانت صلاتها بما حولها سهلة مما ساعد على نقل المؤثرات الحضارية منها وإليها[1]. وكما عرف الصعيد الإمارات (أو الممالك الصغيرة) فقد عرفتها الدلتا أيضاً وقد اتحدت هذه الإمارات قبيل عصر الأسرات وظهرت مملكة الشمال[2] في نفس الوقت الذي ظهرت فيه مملكة الجنوب. ويبدو أن مملكة الشمال (وكانت عاصمتها بوتو Buto) حاولت أن تضم مملكة الجنوب لتؤسس أول وحدة سياسية بين الدلتا والصعيد. وقد قامت هذه الوحدة بالفعل ولكنها لم تدم طويلاً ثم جاء نارمر أو مينا مؤسس الأسرة الأولى ووحد الوجهين ولبس تاجاً واحداً يمثل تاجيَّ مملكة الشمال والجنوب. فالدلتا إذن لم تكن أقل حظاً من الصعيد ولم تكن مختلفة عنه في الأخذ بأسباب الحضارة بل ساهم أهلها قبل الوحدة السياسية في وضع الأسس الثابتة لحضارة مصر التاريخية.

---

(1) انظر. Breasted J, A History of Egypt. London 1935, p 32

(2) Ibid,

راجع كذلك الفصل الثاني من كتاب حضارة مصر والشرق القديم للدكتور إبراهيم رزقانه وآخرين.

الفصل الثاني:

مصر التاريخية

أسماؤها، حدودها، مداخلها، ثغورها

أطلق المصريون القدماء على وطنهم أسماء تخالف أسماءه في العصور اللاحقة. أطلقوا عليه اسم كمي ، أو "تا كمي" [1] في نهاية الدولة القديمة ومعناه "الأرض المثمرة" امتدت على جانبيها أرض صحراوية حمراء هي "دشرت". وفي عهد أخر أصبحت الأرض المثمرة تعرف ب "كمي" أي الأرض السوداء وأحياناً سميت "تامرا" أي أرض الفأس أو الفلاحة. ثم اندثر هذا الاسم وتردد اسم "أخت" أي الأرض الطيبة التي تنقسم إلى "تامحيت" أرض الشمال و "تاشمع" أرض الجنوب، هذه الأرض الطيبة المثمرة كانت تقع في وسط العالم ويرويها النهر العظيم "حابي" الذي ينبع من نهر سماوي عند شلال في البلاد الجنوبية ويجرى شمالاً ليصب في "الأخضر الفاقع" أي البحر المتوسط. أما "الشديد السواد" (البحر الأحمر) فكان الطريق إلى "بُنت" بلاد البخور والحيوانات الغريبة[2].

وقد تغيرت هذه الأسماء وتبدلت على مر العصور، ففي العصر الإغريقي الروماني عرفت مصر باسم إيجيبتوس ربما نسبة إلى بلدة "Coptos (قفط) " أو ربما نسبة إلى كلمة "حا كا بتاح" وهي اسم بلدة منف القديمة. وقد صارت "إيجيبتوس" المصدر لأسماء مصر في اللغات الحديثة. أما البحر المتوسط فسمى البحر الداخلي في العصر الإغريقي [3]Mare Internum والمتوسط Mediterraneum Mare في العصر الروماني كما كانت أقسامه تُعرف بأسماء محلية "كالبحر المصري" "والبحر التيراني" "والبحر الإيجي". كذلك أُطلق على البحر الأحمر "الخليج العربي Arabicus Sinus" ولو أن هذا الاسم كان يطلق على خليج السويس أحياناً. وتغير اسم حابي فأصبح "نيلوس" ومنذ دخول العرب وادي النيل حلت كلمة مصر محل إيجيبتوس وهي كلمة أشورية الأصل ولو أنها تعني في العربية الصقع أو القطر أو المدينة. وعرف البحر المتوسط ببحر الروم وأُطلق على

---

[1] سليم حسن. أقسام مصر الجغرافية. القاهرة ١٩٤٤ ص ٦.

[2] Ball, J. Egypt in the Classical geographers. Cairo, 1942, p, 384.

[3] Atlas of Ancient & Classical geography, London, 1952, p. 5.

أقسامه أسماء محلية كبحر الإسكندرية وبحر الشام وأُطلق على البحر الأحمر بحر القلزم نسبة إلى مدينة كليزما Clysma الرومانية التي كانت تقع إلى الشمال من مكان مدينة السويس الحالية. أما نهر النيل فاحتفظ باسمه الإغريقي وعرِّب فأصبح النيل.

ولم يكن لمصر خارج وادي النيل حدود ثابتة خلال تاريخها الطويل. ويحدثنا استرابون ٦٣ ق.م - ٢٤م في هذا الشأن فيقول إن القدماء قبله كانوا يطلقون اسم مصر على ذلك الشريط الضيق من الأرض الزراعية التي كونها النيل ورواها بمائه[1]. هذا الشريط يمتد من أسوان حتى البحر. أما المصريون فهم دون سواهم الذين يعتمدون على ماء النيل في الشرب والري ولكن يظهر أنه منذ العصر الإغريقي أصبحت مصر تشمل إلى جانب الدلتا والوادي (شمال أسوان) الصحراء الشرقية وشمال سيناء وجزءًا كبيرًا من الصحراء الغربية فقد كان حد مصر الغربي يبدأ من قرب السلوم ويتجه نحو الجنوب والجنوب الشرقي ليشمل واحة سيوة والبحرية والفرافرة والداخلة والخارجة. بل إن مصر خلال الحكم البطلمي كانت تمد حدودها الغربية لتشمل برقة وتُوسِّع حدودها الشمالية لتشمل قبرص[2]. وخلال العصر الروماني والعربي انتهت حدودها الغربية عند السلوم والواحات وحدودها الشمالية عند ساحل البحر المتوسط. أما حدودها الجنوبية فكانت تنتقل بين أسوان ووادي حلفا. فبينما يذكر استرابون أن الحد الجنوبي يمتد بالقرب من مدينة أسوان نجد بطليموس الجغرافي (القرن الثاني الميلادي) يضع الحدود الجنوبية لمصر عند وادي حلفا وهو ما يتفق إلى حد كبير مع

---

(1) انظر "استرابون في مصر" لوهيب كامل.

يقول بلني Pliny في هذا الشأن أيضاً أن مصر تقع بجوار أفريقية، وهي تمتد في الداخل نحو الجنوب حتى بلاد الأثيوبيين. ويكون فرعا النيل الحد الشرقي والغربي لمصر السفلى"

راجع في ذلك: Pliny's Natural History Trans. Bostoch, J. and Riley, H. Vol. I, P. 404.

(2) Ball, J. (1942) pp. 3-6.

الحدود الجنوبية الحالية. وإذا انتقلنا جهة الشرق نجد أن الحدود الشرقية اتفقت مع ساحل البحر الأحمر وامتدت شمالاً لتضم جزءًا كبيرًا من شبه جزيرة سيناء. والخريطة (شكل١) تبين حدود مصر في العصر العربي وحدودها الحديثة التي مدت في النصف الأول من القرن العشرين.

ورغم إحاطة الصحاري بوادي النيل ووجود عقبات في سبيل الوصول إلى سواحل مصر المطلة على البحر الأحمر والمتوسط واعتراض الجنادل للنيل جنوبي أسوان الأمر الذي جعل سكان وادي النيل "يختلفون عن بقية الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم[١]" كما يقول هيرودوت. بالرغم من كل ذلك فقد اتصلت مصر بالعالم المجاور والبعيد عن طريق ثغور ومداخل انبثت على طول حدودها. وإذا نظرنا إلى حدود مصر الشمالية وثغورها نجد أن الساحل غربي الإسكندرية ساحل مستقيم، قليل التعاريج والرؤوس، ضحل المياه، تهب عليه رياح قوية، لا يتأثر بظاهرة المد والجزر، قليل المراسي، وإن وجدت فهي صغيرة حتى بالنسبة لحجم المراكب الشراعية القديمة[٢]. هذه المراسي كانت تحتمي عادة في الرؤوس الصخرية كسيدي براني الحالية Ennesyphora أو تشرف على مستنقع ساحلى تحميه حواجز جيرية ويتصل بالبحر بفتحات ضيقة غير دائمة، وأحسن مثل على ذلك مرسى مطروح Paraetonium التي فقدت أهميتها بعد العصر الإغريقي الروماني. ورغم وفرة عدد المحلات التي ذكرها بطليموس (القرن الثاني الميلادي) على طول الساحل بين الإسكندرية والسلوم فإنه يعتقد أنها كانت تمثل مراسي صغيرة تخدم المهاجرين الإغريق الذين استوطنوا الساحل، كما يرجح أنها لا ترجع كلها إلى فترة معينة وإنما إلى فترات مختلفة أي أن كثيراً منها كان مجرد أسماء لمحلات اختفت. وباستثناء الإسكندرية التي تقوم على منطقة تلالية بعيدة عن طمي النيل ورواسبه التي يُلقي بها في البحر نجد أن ساحل مصر إلى الشرق منها كان ساحلاً كثير

---

(١) Herodotus, The Histories. London, 1954, p. 115.
(٢) Semple, E. The Mediterranean Region. London, 1933, p, 159.

المستنقعات وإن وجدت به موانىء فكانت في الغالب قرب مصبات أفرع النيل السابقة مثل بلوز في العصر الإغريقي على الفرع البلوزي القديم وكانوب Canopus على الفرع الكانوبي ثم دمياط ورشيد في العصر العربي والتركي. ولكن هذه الموانىء النهرية لم تلبث أن فقدت أهميتها واضمحلت بسبب الإرساب النهري. هي إذن الإسكندرية مدخل مصر على ساحلها الشمالي ونافذتها على العالم الخارجي، ظلت عاصمة لمصر وميناءها الأول قرابة ١٠٠٠عام ثم أخذ شأنها يقل بعد دخول العرب وازداد اضمحلالها في العصر التركي حتى لم تعد أكثر من قرية صغيرة، ثم عاودها النشاط رويداً رويداً بعد فتح قناة السويس واحتلت مكانها الأول. هذا هو شأن ساحل البحر المتوسط، ساحل قليل السكان منخفض رملي في بعض أجزائه تكثر به المستنقعات، أشهر ثغوره الإسكندرية.

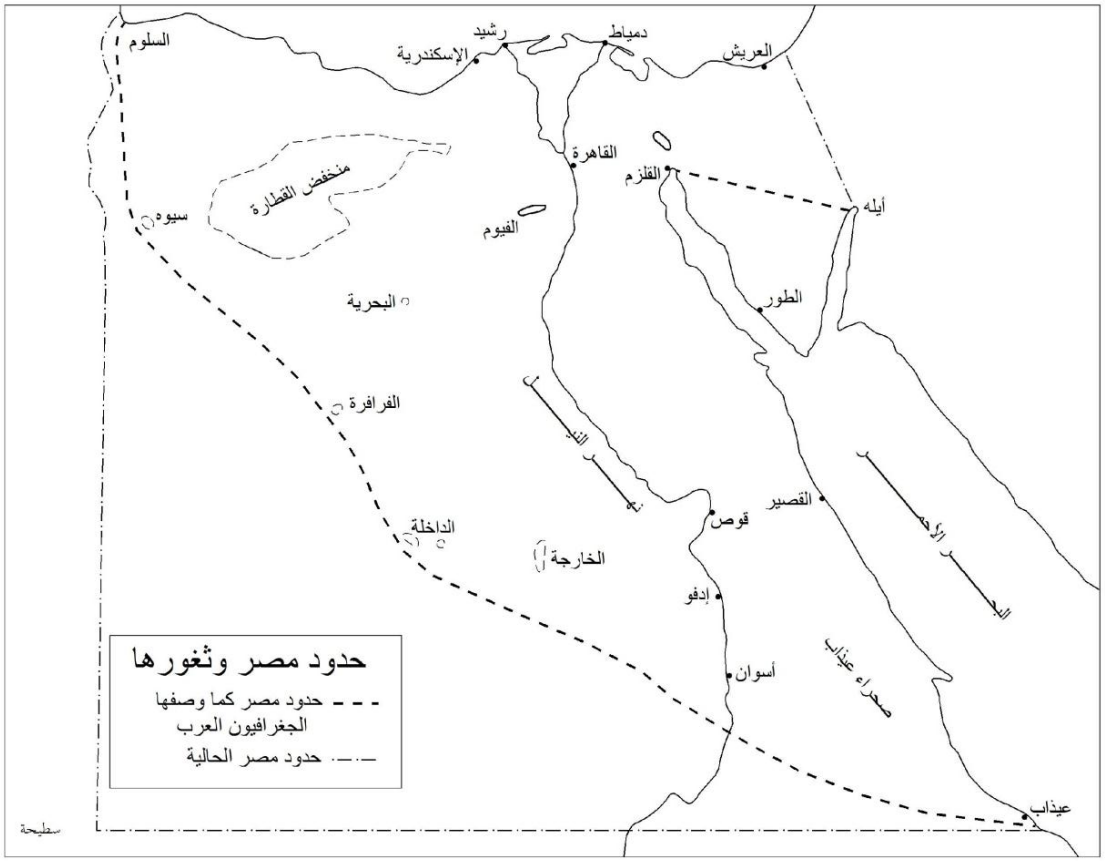
السلوم
رشيد
الإسكندرية
دمياط
العريش
القاهرة
القلزم
أيله
منخفض القطارة
سيوه
الفيوم
البحرية
الطور
الفرافرة
النيل
القصير
قوص
الداخلة
الخارجة
إدفو
أسوان
صحراء عيذاب
عيذاب
حدود مصر وثغورها
حدود مصر كما وصفها الجغرافيون العرب
حدود مصر الحالية
سطيحة

الشكل (١)

وإذا انتقلنا إلى البحر الأحمر نجد أن مصر تطل عليه بجبهة واسعة تمثل جزءًا كبيرًا من حدودها الشرقية. ورغم قلة الموانىء الصالحة على طول هذه الساحل وصعوبة الملاحة في مياهه وفقر ظهيره فإن سكان وادي النيل اتصلوا بالهند وجنوب شرقي آسيا عن طريق عدد قليل من الثغور ظهرت في فترات مختلفة من التاريخ ارتبطت بوادي النيل بواسطة وديان الصحراء الشرقية كوادي الحمامات. نذكر من هذه الثغور ليكوس ليمن Leucos Limen قرب القصير الحالية وهو ثغر قام إلى الجنوب قليلاً من موضع ثغر مصري قديم. وموس هورمس Myos Hormes (قرب الغردقة[*]) وأرسنوي Arsinoi والقلزم Clysma (قرب السويس) وبرنيس أو برنيك Berenice (قرب الحدود الجنوبية) وكلها ترجع إلى العصر الإغريقي الروماني ثم القلزم والسويس وعيذاب وقد اشتهرت في العصر العربي. واتصال مصر ببلاد بنت Punt وأمم الشرق الأقصى قديم فقبل ظهور أية آثار مكتوبة عن العلاقات التجارية عبر البحر الأحمر كان قد وصل مصر من بلاد الشرق الأقصى أنواع البخور والمر والأصباغ والبرنز والقصدير وربما حمل هذه التجارة الشرقية القديمة وكذلك منتجات بلاد بنت وسطاء تجاريون من جنوب الجزيرة العربية نقلوها أول الأمر إلى ميناء قرب سواكن الحالية ثم حملت بعد ذلك بالدواب إلى مدينة مروى Merö (Premi magna) على النيل النوبي، ومن ثم وصلت إلى مصر[1]. ويظهر أن المكاسب الضخمة التي كانت تجلبها هذه التجارة أغرت الفراعنة بتحويلها إلى ساحل البحر الأحمر المصري عند مرفأ يقع قرب القصير الحالية (ساو أو فيلوتيرا) ويلاحظ أن منطقة القصير الحالية قريبة من النيل فالنهر يصنع في هذه العروض ثنية ضخمة هي ثنية قنا تجعل وادي النيل يقع على بعد ١٠٠ ميل فقط من البحر الأحمر. وعلى الثنية ظهرت مدن خلال فترات التاريخ مثل طيبة وقفط وقوص وقنا اكتسبت أهميتها من موقعها قرب البحر الأحمر عند ملتقى الطريق النهرية وطرق القوافل عبر

---

[*] أثبتت الدراسات الحديثة أن ميوس هورموس هي "القصير القديم" (المحقق).

[1] Semple (1932), p. 163.

وديان الصحراء الشرقية خصوصاً وادي الحمامات. وكان عبور وادي الحمامات بالدواب لا يستغرق أكثر من ستة أيام ، فقد حفرت فيه الآبار على مسافات متقاربة كما كانت حراسته شديدة في عهد الحكومات القوية. ويمكن القول بصفة عامة أن تجارة بلاد بنت مع مصر كانت نشطة مزدهرة خلال الجزء الأكبر من التاريخ المصري القديم ولكنها كانت أنشط ما يكون في أيام الإمبراطورية، خصوصاً أيام الرعامسة[*]. وقد اتسعت دائرة نشاط موانىء البحر الأحمر أيام البطالمة والرومان والعرب وامتدت صلاتها التجارية إلى الهند وجنوب شرقي آسيا. هذه التجارة لم يصاحبها على ما يبدو تغلغل ثقافي إلا أنها جلبت لوادي النيل ثروة طائلة وضاعفت من نصيب مصر في تجارة البحر المتوسط[1]. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى القناة التي ربطت البحر الأحمر بالنيل عن طريق وادي الطميلات وبحيرة التمساح والبحيرات المرة التي كانت متصلة بخليج السويس خلال فترة طويلة من التاريخ فهذه كانت أيضاً منفذاً من منافذ مصر إلى البحر الأحمر. وقد حفرت هذه القناة عدة مرات ولكنها سرعان ما كانت تترك لتردمها الرمال. فقد حفرها لأول مرة الملك سيزوستريس الثاني Sesostris II (أحد ملوك الدولة الوسطى) سنة ١٩٠٠ ق.م. والرأي الراجح أن هذه القناة الأولى كانت تأخذ من أحد فروع النيل القديمة ثم اتجهت نحو الشرق في وادي الطميلات حتى مدينة Pithom أو Heroopolis التي كانت تقع على مسافة ٢٣ ميلاً إلى الغرب من مدينة الإسماعيلية الحالية وعلى بعد ٤٣ ميلاً شمالي خليج السويس ، وحفرها في المرة الثانية سيتي الأول في (سنة ١٣٥٠ ق.م) وفي المرة الثالثة نخاو Necho في سنة ٦٠٩ ق.م. وفي المرة الرابعة داريوس الفارسي (٥٢٠ ق م) الذي أراد أن يصل مصر ببلاد الهند. وفي المرة الخامسة بطليموس الثاني (٢٨٥ ق.م) وفي المرة السادسة حفرها تراجان (سنة ٩٨م). وفي المرة السابعة والأخيرة حفرها عمرو بن العاص (سنة ٦٤٠م) لينقل عليها الغلال إلى مكة ، لاحقا ردمت بأمر

---

[*] وردت في الأصل "الرمامسة". (المحقق)

[1] Semple (1932), p. 167.

الخليفة العباسي سنة ٧٦٧م[١]. غير أن منافسة هذه القناة للطرق التي كانت تعبر الصحراء الشرقية إلى ثنية قنا لم تكن إلا لفترة قصيرة من التاريخ وبعدها تترك القناة لتردمها الرمال ويملؤها طمي النيل.

ولكن لماذا كانت القناة تهمل وتترك للرمال..؟ السبب هو صعوبة الملاحة وخطورتها في خليج السويس والجزء الشمالي من البحر الأحمر فهنا تشتد الرياح الشمالية الغربية التي تمنع استخدام الشراع وتحتم استخدام المجداف للوصول إلى الشاطىء كما أنها تدفع أمامها تيارات بحرية قوية ليس هذا فحسب بل إن سواحل خليج السويس تحفها شطوط مرجانية غاطسة لأعماق قليلة وممتدة في الماء لمسافة كبيرة تُعرِّض السفن إلى التحطيم والهلاك إذا ارتطمت بها. كما أن مستوى المياه في الخليج ينخفض بحوالي ثلاثة أقدام وقت هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية على البحر العربي مما يؤثر على مستوى المياه في شمال البحر الأحمر وبالتالي يزيد من شدة التيارات في الخليج. لكل هذه الصعوبات فإن منتجات بلاد بنت والشرق الأقصى كانت تنقل في الغالب إلى أحد الموانىء الجنوبية على ساحل البحر مثل Leucos Limen (القصير) أو مويس هورمس أو برنيس Berenice أو عيذاب ومنها تنقل بالدواب إلى إحدى المدن على ثنية قنا (قد تكون قفط Coptos أو قنا أو قوص) ومن ثم تنقل بالقوارب النهرية إلى ساحل البحر المتوسط، إلى الإسكندرية.

وإذا ما انتقلنا إلى شمالي سيناء حيث المدخل الشمالي الشرقي لمصر، نجده عبارة عن سهل ساحلي تسقط عليه بعض الأمطار في الشتاء وتنتشر به الكثبان الرملية التي تحجز في باطنها بعضاً من مياه المطر لذلك كان من السهل الحصول على المياه بحفر الآبار. ونظراً لغنى هذه المنطقة بمياهها الباطنية وآبارها فقد سلكها التجار والحجاج

---

[١] Ibid.

والمهاجرون والغُزاة[1]. فمن طريقها مثلاً خرجت من مصر الغزوات إلى آسيا وخرج بنو إسرائيل ودخل الهكسوس والإغريق والعرب والأتراك. كذلك كان هناك طريق وسط سيناء وقد ظهرت أهميته في العصور الوسطى كدرب للحجاج. وكانت أهم المحطات على طوله مدينة نِخِل عاصمة سيناء قبل العريش.

أما عن مداخل مصر الغربية فكان هناك مدخلان هما: الطريق الساحلي وطريق الواحات. أما الطريق الساحلي فكان أقل شأناً من طريق شمال سيناء وذلك بسبب فقر المنطقة التي تقع على حدود مصر الغربية وعدم قيام دولة قوية فيها وبسبب قلة المياه الباطنية ومع ذلك سلكته جيوش البطالمة عندما همت بالاستيلاء على برقة وسلكه جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي وسلكه رومل في الحرب العالمية الثانية كما اتبعه التجار وحجاج المغرب وجماعات الرعاة الوافدة إلى الدلتا. أما طريق الواحات فكان يبدأ من ليبيا ويمر بواحة جغبوب وسيوة ثم يتفرع إلى عدة أفرع منها فرع يتجه شمالاً ليتصل بالطريق الساحلي وآخر يتجه شرقاً عبر منخفضي القطارة ووادي النطرون إلى الدلتا والفيوم وثالث يتجه نحو الجنوب الشرقي إلى الواحات البحرية فوادي النيل ومن الواحات البحرية أيضاً يتجه نحو الجنوب إلى الواحات الجنوبية الداخلة والخارجة. هذا الطريق على أى حال كان قليل الأهمية مرت عليه هجرات صغيرة وعرفه رجال القوافل والحجاج.

وإذا تركنا حدود مصر الغربية وانتقلنا إلى حدودها الجنوبية نجد ثلاثة طرق توصل من السودان إلى مصر: الطريق الجنوبي الشرقي ويسلك وديان الصحراء الشرقية مثل وادي العلاقي وينتهي عند بلدة العلاقي ووادي خريط وينتهي عند كوم أمبو وقد ربط هذا الطريق بين شمال السودان ووادي النيل ووصلت منه هجرات قديمة. الطريق الأوسط وهو أهمها ويتمثل في نهر النيل. ورغم صعوبة الملاحة في النهر جنوبي أسوان

---

[1] انظر "المدخل الشرقي لمصر" للدكتور عباس عمار.

فقد وصلت الحضارة المصرية القديمة إلى السودان ودخلت المسيحية والإسلام فيما بعد. وقد كانت جزيرة فيلى في عهد الأسرات المصرية كما كانت سِينِ (Syene) أو أسوان فيما بعد السوق الذي يلتقي فيه تجار الجنوب والشمال أو تجار النوبة وتجار مصر، وكان على كل منها حاكم يلقب بحامي المدخل الجنوبي مهمته حماية الحدود الجنوبية من غارات القبائل المجاورة وتأمين طريق التجارة عبر الحدود. على هذا الطريق وصل مصر من حاصلات السودان ووسط أفريقية الذهب والفضة وريش النعام والعاج والأخشاب الثمينة والبخور والصمغ. أما الشعبة الثالثة أو الطريق الثالث فهو ما يُعرف بدرب الأربعين ويبدأ من دارفور وكردفان وينتهي في مصر الوسطى ماراً بالواحة الخارجة. وهذا الطريق قديم استخدم في العصر الفرعوني واشتهر في العصور المتأخرة بتجارة الرق والعاج وريش النعام.

الفصل الثالث

الذبذبات المناخية في العصر التاريخي

ومدى تأثر مصر بها

يختلف الجغرافيون وعلماء الآثار فيما بينهم حول الذبذبات المناخية في العصر التاريخي. فريق يرفض أن يعترف بحدوث الذبذبات المناخية خصوصاً ذبذبات المطر، والفريق الآخر يؤكد حدوث هذه الذبذبات ويدعم قوله بالأدلة. وسنتعرض هنا لرأي كل فريق ثم نحاول أن نرى مدى تغير المناخ في مصر في العصر التاريخي وأثر ذلك على الحياة الاقتصادية إن كان هناك أثر.

تعد مس سمبل [1] E. Semple والأستاذ ديمارتون De martonne من الذين يرفضون فكرة حدوث أي تغير مناخي خلال العصر التاريخي. ويرجح من شايعهم اضمحلال الزراعة والمدن على حواف الصحراء وفي حوض البحر المتوسط إلى أسباب لا تمت بصلة إلى المناخ. فهم يرون أن الاضمحلال يرجع إلى زوال التربة نتيجة لقطع الغابات وسوء استخدام المراعي وقد تبع ذلك انخفاض مستوى الماء الباطني وجفاف الآبار والينابيع. ومن العوامل التي أدت إلى الاضمحلال أيضاً هجوم الجماعات المتبربرة وتدميرها لمشاريع الري وانتشار الفوضى والاضطراب السياسي نتيجة لتكرار هذه الهجمات.[2] ويؤكدون أن كثيراً من الأدلة في الماضي والحاضر تشير إلى عدم حدوث أي تغير في المناخ وخاصة في كمية المطر الساقطة. ففى حوض البحر المتوسط مثلاً لا تختلف المحاصيل التي كانت تزرع في القديم عما يُزرع الآن باستثناء بعض المحاصيل التي أدخلها العرب في القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، كما أن طرق الزراعة القديمة لا زالت قائمة ومواعيد الزراعة وجني المحصول والمدة التي يقضيها لينضج لم تتغير. فيذكر Hesoid (ذلك الكاتب الإغريقي الذي عاش في القرن الثامن) أن ميعاد بذر القمح في جنوب شرق اليونان (Boeatia) يقع في ٢٠ أكتوبر. هذا التاريخ لم يتغير إلى الآن. إذن لم يتغير مناخ سهل Boeatia ولم يتغير تبعاً لذلك ميعاد البذر وميعاد

---

(1) Semple, E.The geography of The Mediterranean Region. London 1932, p. 99.
(2) Fisher, W. The Middle East. London, 1950, P. 59.

الحصاد. وهنا نقف قليلاً عند وثيقة تاريخية هي سجل لأحوال الطقس في الإسكندرية في بعض سني القرن الثاني الميلادي أعده شخص يدعى كولوديوس بطليموس[*] Claudius Ptolemaeus أشار فيه بطريقة وصفية إلى أيام المطر واتجاه الرياح والحرارة. من هذا السجل يتبين أن الأمطار كانت تسقط طوال العام في الإسكندرية ولو أن كمية المطر لم تتغير عما هي عليه الآن. وقد تعرض هذا السجل لنقد شديد من معارضي فكرة تغير المناخ ويرون أنه ليس سجلاً لأحوال الطقس بالإسكندرية بل لمكان ما باليونان كما أن السجل وصفي ويصعب تفسيره.

ومن المؤيدين لفكرة تغير المناخ خلال التاريخ جريجوري J. W. Gregory[1] وبروكس C. E. Brooks وهنتجتن E. Huntington[2] وصون ألمان Hans W: Son Ahlmann[3].

ويشير بروكس في كتابيه "Climate through the ages" و " The evolution of climate" أنه منذ سنة ٦٠٠٠ ق.م حدثت ذبذبات عِدة في المناخ استمرت فترات متفاوتة في الطول. فهناك تغير حدث حوالي ٤٠٠٠ ق.م أدى إلى تحول المناخ من الجفاف وارتفاع الحرارة إلى الرطوبة والاعتدال وذلك في الأقاليم المعتدلة والباردة (المرحلة المحيطية Atlantic Stage) ثم حدث في أواخر الألف الثالثة أن زادت الرطوبة في الجو (فترة نمو الغابات) Forest Period وظهرت غابات كثيفة في غرب أوربا وقد انتهت هذه الفترة حوالي ٨٠٠ ق.م تلتها فترة تحول المناخ فيها إلى الجفاف وتحولت

---

[*] يبدو مستغربا ذكر بطلميوس بهذه الإشارة العابرة، رغم شهرته الكبيرة. (المحقق)

[1] Gregory, J. "Is the earth drying up? Geog, J, vol. 48, pp 148-77, 1914.

[2] واقرأ لهنتنجتن:

Huntington, E. The pulse of Asia. Principles of human geography. N. Y. 1951.

[3] Hans W. Son Ahlmann."The present climatic fluctation." G. J. vol. CXII, 165-195, 1948.

الغابات إلى أحراج وتحول الاستبس إلى شبه صحراء فقل العشب والماء وأدى ذلك إلى هجوم الجماعات المتبربرة من آسيا على جماعات الزراع الذين يعيشون في وديان الأنهار مثل وديان دجلة والفرات ووادي السند ويانجتسي والنيل. ثم تحسن المناخ مرة ثانية وزادت الأمطار نسبياً (Classical Rainfall Maximum) في الفترة بين ٥٠٠ ق.م – ٥٠٠ ميلادية (عصر الحديد). ويري هنتنجتن E. Huntington أن الحضارة الإغريقية الرومانية ازدهرت في الفترة بين ٥٠٠ ق م و٢٠٠ ميلادية وهي في نظره الفترة التي زادت فيها كمية الأمطار وأصبح الجو متقلباً بشكل واضح. وفي رأيه أن ازدياد الأمطار سمح بحياة زراعية مستقرة وغنية في حوض البحر المتوسط وفي نفس الوقت كثر الماء والمرعى في الجهات الجافة نسبياً فضمن الرعاة بذلك رزقهم في مواطنهم ولم يتجهوا نحو نهب وسلب جيرانهم من الزراع. أي أنه كان عصراً متميزاً بالوفرة والاستقرار والاطمئنان. ولكن لم تلبث هذه الأحوال المناخية المناسبة أن تغيرت فقلت الزوابع والأعاصير وقلت الأمطار. وقد حل هذا التغير مبكراً في اليونان قبل إيطاليا، وصحب قلة الأمطار في اليونان تدهور الزراعة وانتشار الملاريا في مياه الأنهار الراكدة وقد أدى ذلك كله إلى تدهور الحضارة.

أما في إيطاليا فقد بدأت الأمطار في القلة بعد سنة ٢٠٠ ميلادية. وصحب قلة الأمطار فقدان التربة لخصوبتها فأصبح من الصعب على الزرَّاع زراعة القمح. فاستغنت إيطاليا عن القمح المنتج محلياً اعتماداً على القمح المستورد من الخارج، وحلت زراعة الكروم والزيتون محل زراعة القمح، ووجد الفلاح الفقير نفسه غير قادر على استثمار الأرض فهاجر إلى روما وإلى بعض المدن الأخرى التي تعتمد على القمح المستورد. ويلاحظ بروكس أن التغيرات المناخية في العالم القديم تتفق إلى حد كبير مع تلك التي حدثت في العالم الجديد وقد اعتمد في تأريخ فترات تغير المناخ على نتائج دراسة القطاع العرضي لجذوع الأشجار الضخمة المعمرة Sequoias في كاليفورنيا (يزيد عمرها على ٤٠٠٠ سنة).

فقد وجد أن سمك الحلقات التى تظهر في خشب جذوع هذه الأشجار له صلة مباشرة بكمية الأمطار الساقطة. فكل حلقة تشير إلى سنة في عمر الشجرة وتشير إلى كمية الأمطار السنوية أهي في زيادة أم في نقصان.

هذا عن الذبذبات المناخية فيما قبل سنة ٥٠٠ م. أما الذبذبات المناخية بعد هذا التاريخ فعليها خلاف شديد وهناك كثير من المنكرين والمؤيدين. وقد ظهرت مؤخراً عدة دراسات حديثة تعتمد في بحثها الذبذبات المناخية على أكثر من دليل (أشجار الـ Sequoia، التحليل النباتي، دراسة حبوب اللقاح، معدلات مناخية، أدلة جيولوجية وبحرية، دراسة مستويات فيضان النيل) تشير ليس فقط إلى الذبذبات المناخية في القرون الماضية بل إلى تغيرات طفيفة في كمية الحرارة والضغط والأمطار في العصر الحديث.

وقبل أن نشير إلى الذبذبات الحديثة ربما يكون مفيداً أن نشير إلى التغيرات الطفيفة التي أصابت المناخ منذ سنة ٥٠٠م. ويذكر الأستاذ Hans W. Son Ahlmann[1] أنه من دراسة حبوب اللقاح التي وجدت في مستنقعات اللبد النباتي Peat bogs ثبت حدوث تغير في المناخ بين ١٢٠٠، ١٣٠٠م. فقد زادت الأمطار وانخفضت درجة الحرارة خاصة في الجهات الشمالية وتقدمت الثلاجات في أيسلند وجرينلند واسكتلند وزادت فرص سكني المناطق الجافة نسبياً وتوقفت هجمات الرعاة على الزراع. ولكن حدث تحول إلى الجفاف والبرودة في العروض الشمالية في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي فجدّت على أثره غزوات المغول في أوربا وآسيا. ويظهر أن المناخ لم يتحسن بشكل ملحوظ إلا في الجزء الأول من القرن العشرين. وهذا ينقلنا لدراسة الذبذبات المناخية في العصر الحديث (١٧٦٠-١٩٤٠). قام بهذه الدراسة إلى جانب ألمان Ahlmann، كل من:

---

[1] Hans W. Son Ahlmann. op, cit. pp. 165-195.

- ليسارد L. Lysgaard في دراسته: Recent climatic fluctuations (Nature, 1948)
- بروكس C. Brooks في دراسته: Climate through the ages
- مانلي Manley في دراسته: Temperature trends in Lancashire (1753-1940)

وتشير دراسة ألمان - وقد انصبت كلها على غرب أوربا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة - إلى اتجاه متوسطات الحرارة نحو الارتفاع وتغير كمية الأمطار إما بالزيادة أو النقصان. ففي الفترة بين ١٧٦٠-١٩٤٠ ارتفعت درجة الحرارة في استكهولم مثلاً بما يقرب من ٢.٥ درجة فهرنهيتية وزادت الأمطار في الفترة بين ١٨٦١ وحتى ١٩٣٠ في شمال السويد بما يقرب من ٥ % وارتفعت في جنوبه بما يقرب من ٢.٥%. وينطبق ذلك بصفة عامة على درجات الحرارة والأمطار في الاتحاد السوفيتي. أما في الولايات المتحدة فقد ارتفعت فيها درجات الحرارة وقلت كمية الأمطار. وقد قام ليسارد L. Lysgaard بدراسة مقارنة لدرجات الحرارة والتساقط في العالم في الفترة بين ١٨٨١ و١٩١٠ والفترة بين ١٩١١ و ١٩٤٠. وقد خرج من دراسته بأنه في أجزاء واسعة من العالم وخاصة في الأقاليم المعتدلة والمتجمدة ارتفعت درجة الحرارة في الصيف والشتاء بشكل محسوس بينما انخفضت درجة الحرارة في أجزاء أخرى من العالم وخاصة في الأقاليم المدارية. كذلك لاحظ ازدياداً في كمية الأمطار في الجهات المعتدلة والباردة وفي الأقاليم الموسمية ونقصاناً في كمية الأمطار في الأقاليم المدارية الأخرى وشبه المدارية. ويظهر ذلك في أفريقيا وأستراليا والبرازيل والولايات المتحدة الأمريكية.

ولن ندخل هنا في تفاصيل أكثر ويكفي أن نشير إلى أن تفسير تلك الذبذبات المناخية لا زال غامضاً. ولكن النظرية التي يحبذها Ahlmann لتفسير هذه الذبذبات تتعلق باختلاف كمية الإشعاع الشمسي الواصلة إلى الأرض. فهذا الاختلاف يؤثر على توزيع أقاليم الحرارة ومناطق الضغط واتجاه الرياح وحركتها ويؤدي فوق ذلك إلى

تغيرات في درجات الحرارة وكمية الأمطار. ونختم هذه الدراسة العامة لذبذبات المناخ في العصر التاريخي مما أكده Ahlmann من أن ذبذبة المناخ في العصر الحاضر ما هي إلا واحدة في سلسلة الذبذبات والتغيرات التي أصابت وستصيب مناخ العالم. والأمل الكبير في الوصول إلى معرفة ماهية هذه التغيرات بما لا يدع مجالاً للشك.

والآن ماذا عن مشكلة تغير المناخ في مصر في العصر التاريخي؟ هناك من يعترض على حدوث أي تغير في المناخ ويرجع اضمحلال الشريط الساحلي في غربي الإسكندرية مثلاً إلى العوامل البشرية البحتة وأهمها تعرض هذا الإقليم لهجوم الرعاة من الشرق والغرب والجنوب وقضائهم على آثار المدنية وإهمالهم للآبار والخزانات. ويؤكد أن المنطقة يمكن أن ترجع إلى سابق ازدهارها إذا اهتمت الحكومة بتوفير الماء عن طريق حفر الآبار وتطهير الخزانات وتشجيع الرعاة على الاستقرار والزراعة وخاصة زراعة المحاصيل الشجرية[1]. والرأي المعارض يذكر أن كمية الأمطار قلت منذ سنة ٥٠٠م[2] وكان لذلك أثر واضح في اضمحلال هذه المنطقة، ومن الصعوبات التي تعترض دراسة هذا الموضوع أن أي نقص أو زيادة في الأمطار سيكون من الضآلة بحيث لن يترك وراءه دليلاً واضحاً نعتمد عليه. ولكن يغلب على الظن أن اضمحلال إقليم مريوط كان نتيجة لعاملين: العامل البشري الذي سبق الإشارة إليه والعامل الطبيعي الذي لا يتمثل في تغير متوسط كمية الأمطار بل في نظام سقوطها وكثرة السنين التي تمتنع فيها الأمطار عن السقوط، واستمرار الارتفاع في درجة الحرارة مما يقلل من القيمة الفعلية للأمطار، فمن المعروف أنه في كل خمس سنوات ينجح محصول الشعير (الذي يعتمد على المطر) مرة واحدة.

---

(1) Weedon A. "Report on Mariout" Cairo. Sc. J. vol. VI, 1912, pp. 209-212.

(2) راجع في ذلك:

Huzayyin, S. "Changes in Climate, Vegetation, and Human Adjustment in TheSaharo-Arabian Belt, With Special Reference to Africa." In Man's Role in Changing The Face of The Earth. Ed. Thomas, W & Others Chicago, 1955.Part 1.

أما محاصيل السنين الباقية فغالباً ما تكون أقل من المعتاد أو فاشلة. ومن المرجح أن تكرار هذه السنين العجاف كفيل بالقضاء على المحاصيل الشجرية كالكروم والزيتون التي كانت تشتهر بها هذه المنطقة في تاريخها القديم. ومن دراسة المعدلات الحرارية لمصر منذ أوائل القرن العشرين نجد أن درجة الحرارة في ارتفاع مستمر. ففي أوائل هذا القرن كان متوسط درجة حرارة الإسكندرية والقاهرة في الصيف هي على الترتيب ٢٣,٢°م، ٢٤,٤°م. ولكن بعد الحرب الأولى ارتفعت إلى ٢٤°م في الإسكندرية، ٢٥°م في القاهرة وينطبق ذلك أيضاً على بقية أجزاء القطر. وهذا يؤيد ما ذكرناه من أن ازدياد ارتفاع الحرارة ربما يكون عاملاً في ازدياد جفاف السواحل الشمالية لمصر.

وقد ظهر مقال لمري G. Murray في مجلة Geog. J. 1951 عن تطور المناخ في مصر خلال العصر التاريخي يؤكد أنه رغم وجود دلائل تشير إلى جفاف المناخ منذ ابتداء الأسرات المصرية حوالي ٣٤٠٠ ق.م (من هذه الأدلة أنه وجد في بلاد النوبة بعض المقابر ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات تحوي أجساداً لا زالت محفوظة في حالة جيدة مما يشير إلى شدة الجفاف) لكن مري رغم تلك الأدلة يذهب إلى أن هناك آثار تدل على استمرار سكني الصحراء النوبية حتى الدولة الوسطى أي حتى ٢٠٠٠ ق.م. وهو يرى أيضاً أُن الجهات المرتفعة التي تعلو خط كنتور ٦٠٠ متر حول هضبة الجلف الكبير ظلت تتمتع ببعض الأمطار. وكان يسكنها بعض الجماعات الرعوية هجرتها كما ذكرنا في عهد الدولة الوسطى. وكذلك الحال في شرق النهر. ويستعين في تبرير وجهة نظره بأدلة أثرية منها وجود مقبرة للمواشي في جهة لا يمكن أن تعيش فيها المواشي الآن. وفي الشمال على طول البحر المتوسط كان نطاق المطر يمتد إلى الجنوب إلى مسافة أكبر مما عليه الحال الآن. كان ذلك في الفترة بين ٥٠٠ ق م – ٥٠٠ م. ومن الأدلة آثار معبد يقع على بعد ٣٥ كيلو متراً جهة الجنوب وآثار "فيلا" تقع على بعد ٦٧ كيلو متراً جنوبي الساحل وبين آثار هذه الفيلا يوجد جذعان صغيران لشجرتي بلوط وأرز وكلتاهما لا تنموان في مصر الآن.

ولا يعترض مري Murray على ما في يوميات كلوديوس بطليموس (الذي كان في الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي) من أن المطر على الإسكندرية كان موزعاً على شهور السنة وأن الأمطار كانت بصفة عامة أكثر انتظاماً منها الآن[1]. ويرى أن انخفاض منسوب مياه الآبار في الشريط الساحلي في شمال شرق وشمال غرب الدلتا لا يرجع إلى نقص في كمية الأمطار وإنما إلى انقطاع تسرب مياه النيل إليها بعد انخفاض ساحل الدلتا واندثار الفرع الكانوبي والبلوزي. وقد أدى ذلك إلى ازدياد اضمحلال نطاق الساحل الشمالي.

ويقتصر أثر تذبذب المناخ في مصر على الصحراء. ففي وادي النيل تعتمد الزراعة على الري ويعتمد الناس في شربهم على ماء النيل. ويمكن القول بأن الأجزاء الساحلية في الصحراء الغربية هي التي تأثرت في حياتها الاقتصادية والاجتماعية. وسواء كانت الحياة في هذه المناطق قد تأثرت نتيجة لعدم انتظام الأمطار وارتفاع درجة الحرارة أو بسبب تغير نظام الحياة والحرفة بعد دخول البدو الرحل فإن هذا النطاق كان حتى القرن ١٥ غنياً بزرعه ومائه وأكثر سكاناً منه الآن. يشهد بذلك الكُتَّاب الإغريق والرومان كهيرودوت واسترابون وبطليموس الجغرافي وبلني والكُتَّاب العرب كاليعقوبي (القرن التاسع م) والمسعودي (القرن العاشر م) والإدريسي (القرن الثاني عشر م) والقلقشندي (القرن الرابع عشر م) والمقريزي (القرن الخامس عشر م) ومما ذكره المقريزي في هذا

---

[1] يتفق بوتزر Butzer مع مري Murray في هذه الآراء- انظر في ذلك:
Butzer, K. "Environment and Human Ecology in Egypt." Bull Soc. Geog, d'Ègypte, T. XXXII, 1959, pp. 63-74.

الصدد "إن مريوط كورة من كور الإسكندرية كانت في نهاية العمارة بها الجنان المتصلة وهي اليوم من قرى الإسكندرية يزرع بها الفواكه وغيرها"[1].

---

[1] المقريزي – الخطط – الجزء الأول، القاهرة ، ١٩٠٥ ، ص ١١٠ ، انظر كذلك – القلقشندي – صبح الأعشى – الجزء الثالث – القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٨٦ ، واليعقوبي – كتاب البلدان – ليدن، ١٩٠٥ ، ص ١٩٧.

الفصل الرابع:

نهر النيــل

ظلت منابع النيل طوال التاريخ سراً غامضاً لم ينكشف إلا في أواسط القرن الماضي حين قام سبيك وبرتون وسير صمويل بيكر برحلاتهم المشهورة. وقد تعارضت آراء القدماء حول مكان النبع. فاعتقد قدماء المصريين أنه ينبع من نهر سماوي تنزل مياهه إلى الأرض في شكل شلال عظيم، ومن عند هذا الشلال يبدأ النيل[1]. ورأى بطليموس الجغرافي (القرن الثاني م) أنه ينبع من جبال تسمى "جبال القمر" وراء خط الاستواء. وقد ردد مثلاً هذا الرأي بعده بعض الكُتَّاب العرب في العصور الوسطى. فأبو صالح (القرن ١٢ م) يقول في كتابه "كنائس مصر" إن النيل ينبع من جبل القمر وهو الذي يعطي لماء النيل لونه الداكن وهو جبل قاحل لا نبات فيه ولا حيوان[2]. ويذكر القلقشندي (القرن ١٤ م) نقلاً عن قدامة بن جعفر (القرن ٩ م) أن انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجري منها عشرة أنهار كل خمسة تنصب إلى بطيحة ثم يخرج من كل بطيحة نهران. وتجري الأنهار الأربعة إلى بطيحة كبيرة مدورة عند خط الاستواء تعرف ببحيرة كورى فيفترق النيل منها إلى ثلاث فرق:

١- فرقة تأخذ شرقاً وتذهب إلى مقدشو من بلاد الحبشة المسلمين على ساحل البحر الهندي مقابل بلاد اليمن.

٢- فرقة تأخذ غرباً وتذهب إلى بلاد غانة وتمر حتى تصب في البحر المحيط الغربي.

---

[1] راجع في ذلك:

Maspero, G. “Histoire ancienne des peoples de l’Orientclassique.” Vol. I, Les Origines: Egypte et Chaldeé. Paris 1897, pp. 16-19.

[2] Abu Salih, Churches and Monasteries of Egypt, Trans. By B. Evetts, Oxford 1895, pp. 170-80.

٣- فرقة تأخذ شمالاً وهي نيل مصر.[١]

من هذا الوصف يتبين أن الكاتب يربط بين نهر النيل والنيجر والأنهار الصغيرة في شرق أفريقية وقد ظهر خطأ هذا الرأي في القرن التاسع عشر. وكما تضاربت الآراء حول منابع النيل تعددت حول تفسير فيضانه السنوي، فذكر هيرودوت أنه ينتج من دفع الرياح الشمالية لمياه النهر[٢]. ولكن الرأي الذي ساد في العهد الإغريقي الروماني وذكره ديودور الصقلي (القرن الأول ق.م) واسترابون (القرن الأول ق.م) أنه يحدث نتيجة سقوط أمطار غزيرة على جبال الحبشة. وفي العهد العربي ذكر بعض الكتاب أنه ينتج من دفع الرياح الشمالية لمياه النهر جهة الجنوب فتفيض على جوانبه (رأي هيرودوت القديم) وهناك من الكتّاب العرب من ذكر أن زيادته من عيون في شاطئه رآها من سافر ولحق بأعاليه أو أن زيادته من ثلوج يذيبها الصيف[٣] (ذكر هذا الرأي قبل ذلك Pomponius Mela سنة ٤٠ ق م). ولكن بعد الاستكشافات الجغرافية في حوض النيل في القرن التاسع عشر استطعنا تفسير ظاهرة الفيضان ومعرفة منابع النيل بكثير من الدقة.

وكان قياس ارتفاع مياه الفيضان أمراً مهمًا منذ أيام قدماء المصريين، فنحن نسمع عما قام به بعض الفراعنة من إنشاء وإصلاح لبعض المقاييس. وفي العصر الإغريقي الروماني كان هناك مقياس قرب منف أشار إليه ديودور الصقلي (الذي زار مصر في القرن الأول ق م) وظل هذا المقياس حتى دخل العرب مصر. وفي العهد العربي أُنشئت بضعة مقاييس منها مقياس في أسوان بناه عمرو بن العاص ومقياس في حلوان

---

[١] القلقشندي "صبح الأعشى" الجزء الثالث ص ٢٩٠.

[٢] Herodotus (1954) pp. 109-211.

[٣] المرجع السابق ص ٢٩٢. أنظر كذلك النويري "نهاية الأرب" الجزء الأول ص ٢٦٢.

بناه عبد العزيز بن مروان[1]. ولكن أشهرها مقياس الروضة الذي بنى في القرن التاسع الميلادي (٢٤٧هـ) أيام المأمون[2]. وطوال العهد العربي حتى القرن التاسع عشر كان صاحب المقياس يقيس زيادة النيل في كل يوم ثم يعلن ذلك من الغد دون أن يشير إلى ارتفاع الماء بالأذرع حسب ما يسجله المقياس حتى إذا وصل ارتفاع الماء إلى الحد الذي يسمح بري الأرض نودي في الناس بارتفاع النيل بالأذرع والأصابع. وخلال التاريخ حتى أوائل العهد العربي تشير كل الوثائق إلى أن النيل كان يبلغ نهاية ما تدعو الحاجة إليه إذا سجل قرب رأس الدلتا ١٦ ذراعاً وتستبحر الأرض إذا زاد عن ذلك ولكن في أواخر العهد العربي بلغت النهاية الضرورية أكثر من ١٨ ذراعاً[3]. ويفسر ذلك باستمرار ارتفاع مستوى الأرض القريبة من النهر وضعف جسور الحياض وارتفاع قاع النيل بدرجة أقل من ارتفاع الأرض القريبة. وقد درس ويلكوكس Willcocks (في كتابه Egyptian Irrigation في الجزء الأول، ص ٢٩٤) ظاهرة الاستمرار في ارتفاع مستوى مياه الفيضان واستنتج أنه منذ أن أُنشىء مقياس الروضة سنة ٨٦١ م حتى أوائل القرن العشرين زاد الفرق بين متوسط منسوب مياه النهر في وقت الفيضان ومنسوبه في وقت التحاريق ما يعادل ١٢ سم كل ١٠٠ سنة. كما أن متوسط منسوب الفيضان ارتفع من ١٧.٥ ذراعاً في القرن السابع الميلادي إلى ٢٠.٥ ذراعاً في القرن العشرين.

وقبل إنشاء مشاريع الري الحديثة من خزانات وقناطر كانت حياة مصر معلقة بمستوى الفيضان فتبور الأرض وتنتشر المجاعة والأوبئة إذا انخفض منسوب مياه الفيضان عن الحد الذي يسمح بملء الحياض ويعم الرخاء إذا ارتفع النيل فامتلات جميع الحياض . ويحدثنا القلقشندي (ق ١٤م) في كتابه "صبح الأعشى" الجزء الثالث،

---

[1] صبح الأعشى الجزء الثالث ص ٢٩٤.

[2] نفس الصفحة.

[3] المرجع السابق ص٢٩٢.

ص ٢٩٩) نقلاً عن المسعودي الذي عاش في القرن العاشر الميلادي: "فإذا أتم خمس عشرة ذراعاً ودخل ست عشرة كان فيه صلاح لبعض الناس وكان فيه نقص لخراج السلطان. وإذا انتهت الزيادة إلى ١٦ ذراعاً ففيه تمام خراج السلطان وأخصب الناس وفيه ظمأ ربع البلد وهو ضار للبهائم لعدم المرعى. وأتم الزيادات العامة النافعة للبلد ١٧ ذراعاً فتروي جميع أرض مصر. وإذا زاد عن ١٧ ذراعاً وبلغ ١٨ ذراعاً استبحر من مصر الربع وفي ذلك ضرر لبعض الضياع (الزراعات الصيفية) قال وذلك أكثر الزيادات. ثم يُعقِّب القلقشندي بعد ذلك بقوله "هذا ما كان عليه الحال في زمان المسعودي وما قبله أما في زماننا فقد علت الأرض مما يرسب عليها من الطين المحمول مع الماء في كل سنة وضعفت الجسور وصار فيضان النيل إلى ثلاثة أقسام متقاصرة وهي ١٦ ذراعاً فما حولها ومتوسطة وهي ١٧ ذراعاً إلى ١٨ ذراعاً فما حولها وعالية وهي ما فوق ١٨ وربما زادت عن ٢٠ ذراعاً"[1].

يتبين من ذلك أنه على قدر منسوب المياه تكون درجة الغنى والوفرة ومستوى أسعار المواد الغذائية. وتاريخ مصر منذ عهد المصريين القدماء حتى بناء سد أسوان ملىء بأخبار المجاعات والأوبئة التي اجتاحت مصر في عصورها المختلفة وأشارت إليها الكتب السماوية والنصوص الأثرية وكتب الرحالة والمؤرخين.

فقد وصف الملك زوسر Zoser مؤسس الأسرة الثالثة الحالة عندما انخفض النيل في عهده مدة طويلة عن الحد الضروري بقوله "إني شديد الحزن لأن النيل في عهدي لم يفض لمدة سبع سنوات. القمح عزيز المنال والحقول جافة وما يصلح كغذاء قد أصابه العدم..." (عن Moret ص٣٢). وقصة يوسف والسبع سنوات العجاف هي قصة النيل وانخفاض منسوب فيضانه عن الحد الضروري سبع سنوات متوالية.

---

[1] القلقشندي "صبح الأعشى" الجزء الثالث ص ٢٩٩.

والشدة الكبرى أيام المستنصر بالله الفاطمي في القرن الحادي عشر الميلادي كانت نتيجة لتقاصر النيل بضع سنوات. وقد كتب المقريزي عن سني المجاعة التي أصابت مصر منذ أقدم العصور حتى القرن الخامس عشر في كتاب سماه "إغاثة الأمة بكشف الغمة" وفيه ذكر السنين التي تقاصر فيها النيل ووصف حالة مصر وقت المجاعة كما حاول ذكر الأسباب التي كانت تزيد من شدة المجاعة وأشار إلى الأساليب الممكنة لعلاجها.

ومن الرحالة العرب الذين وصفوا الحالة وقت المجاعة عبد اللطيف البغدادي الذي زار مصر في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (٥٩٥هـ-٥٩٨هـ) وقد ورد وصفه الحي في كتاب "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"[١]. ومنه يتبين مدى الخسارة في الأرواح والاضطراب الذي كان يلحق بالحالة الاقتصادية والاجتماعية. ولنترك البغدادي يحدثنا عما شاهده وقت الشدة التي أصابت مصر في الفترة بين ٥٩٥هـ - ٥٩٨هـ (١١٩٨-١٢٠١م).

"ودَخَلَتْ سنة ٥٩٧ بعد الهجرة (١٢٠٠م) مفترسة أسباب الحياة وقد يأس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحت البلاد وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد أيادي سبأ. ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم. فكثيراً ما يعثر عليهم معهم صغار مشويون أو مطبوخون. ومما شاع أيضاً نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحومهم وهذه البلية وجدت في جميع بلاد مصر. وأما خراب البلاد والقرى وخلوّ المساكن والدكاكين فهو مريع فإن القرى التي كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نفس تمر عليها فترات خاوية ".

---

[١] انظر من ص ١٠٩- ١٥٧ طبعة باريس سنة ١٨١٠.

ثم يتابع البغدادي وصفه للحالة فيقول: "وفي السنة التالية تناقص موت الفقراء لقلتهم وانحطت أسعار القمح لقلة الآكلين ثم انتشرت الأوبئة بعد ذلك فقضت على عدد كبير من الناس بحيث أصبحت كثير من القرى خالية من فلاح أو حراث. وكثير مما روى من الأرض يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه".

وقد أصيبت المدن أيضاً في نشاطها الاقتصادي فيخبرنا البغدادي أنه كان بمصر (الفسطاط) ٩٠٠ منسج للحصر فلم يبق إلا ١٥ منسجاً. وقس على هذا سائر ما جرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين. هكذا كانت الحالة في مصر بالغة السوء في سني القحط والمجاعة ثم لا تلبث أن تتحسن ولكن تحسنها يتوقف على درجة ارتفاع الفيضان. وهنا يجب أن نشير إلى أن الزيادة المفرطة في ارتفاع الفيضان كانت ولا زالت خطراً على جسور النيل والزراعات الصيفية والمدن والقرى الواقعة على النهر وتحت أيدينا وثيقة ترجع إلى الأسرة الثالثة والعشرين تصف الحالة عندما جاء فيضان النهر خطراً "أصبح كل الوادي كبحر. لقد تدافعت أمواج الماء في المعابد وأصبح الناس كطير الماء أو كسباحين في سيل جارف"[1]. ويقول المقريزي "أنه في سنة ٧١٠هـ (١٣١٦م) ارتفعت مياه النيل ارتفاعاً كبيراً فغرقت الأقصاب التي في الصعيد، فإن الماء أقام عليها ٥٦ يوماً فعصرت كلها عسلاً فقط. وخربت الجسور وعلاها الماء وتأخر هبوطه عن الوقت المعتاد فسقطت عدة دور بالقاهرة"[2] ولكن في الماضي وقبل انتشار الري الدائم كانت الخسارة الناجمة عن الفيضانات العالية أقل بكثير من الخسارة في سني انخفاض النيل بل وكان يعوضها وفرة في المحاصيل الشتوية

---

[1] Daressy, G. In Bull. De l'inst. Egypt. Dec, 1895.

[2] المقريزي- "الخطط" الجزء الثالث ص. ٢٧.

وفي الثروة الحيوانية. فيقول المقريزي مشيرا لنتائج فيضان سنة ٧١٠هـ "وقد حسن الزرع في هذه السنة وأفلح فلاحاً عجيباً وانحط السعر لكثرة ما زرع من الأراضي"[١].

ننتقل الآن إلى التغيرات التي أصابت أفرع النيل ومجراه الرئيسي. كانت أفرع النيل في تغير مستمر منذ ظهرت الدلتا وكان عددها في أواخر عهد الأسرات المصرية أكثر من سبعة اختفى معظمها ولم يبق إلا اثنان. ويختلف الكُتَّاب القدماء فيما بينهم على مواقعها وأسمائها وأهميتها وسنتعرض فيما يلي لأراء بعض هؤلاء الكتاب بحسب ترتيبهم الزمني.

أقدم معلومات عن أفرع النيل ذكرها هيرودوت في كتابه المسمى "تاريخ هيرودوت" وقد زار هيرودوت مصر حوالي سنة ٤٥٠ ق م. وكتب عن مصر والنيل[٢]. ومما قاله عن أفرع النيل أن النهر يبدأ في التفرع قرب بلدة الوراق الحالية شمال غرب القاهرة حيث يتفرع إلى ثلاثة أفرع رئيسية. الفرع الشرقي ويسمى الفرع البلوزي Pelusaic يصب قرب الفرما، والفرع الغربي ويسمى الفرع الكانوبي Canopic ويصب في خليج أبي قير. وفي وسط الدلتا يجري الفرع الرئيسي الثالث المسمى بالسبنيتي Sebennytic ويصب قرب بلدة البرج في منطقة البرلس ويتفرع من الفرع السبنيتي (في المسافة بين سمنود وميت غمر) ثلاثة أفرع تتجه نحو الشمال الشرقي هي الفرع السايسي Saitic ويصب قرب فتحة الجميل غربي بور سعيد والفرع المنديسي Mendesian ويصب عند حلق الوحل (إلى الجنوب الشرقي من رأس البر بما يقرب من ١٣ كم) ثم الفرع الباكولي Bucolic ولم يكن فرعاً طبيعياً وإنما كان محفوراً كما زعم هيرودوت ويتفق مع الجزء الشمالي من فرع دمياط. ومن الفرع الكانوبي كان يتفرع جهة الشرق فرع غير طبيعي آخر من عمل الإنسان سماه هيرودوت الفرع البولبيتي

---

[١] المرجع السابق.

[٢] راجع في ذلك: Herodotus. The Histories London 1954, pp. 108-132.

Bolbitine يبدأ إلى الجنوب قليلاً من دمنهور ثم يتجه نحو الشرق ثم إلى الشمال متخذاً نفس المجرى الذي يجري فيه الآن فرع رشيد. وقد حقق ج.بول J. Ball في كتابه Egypt in the Classical Geographers, 1947. ماذكره هيرودوت ورسم خريطة للأفرع القديمة مستعيناً بمواقع المدن القديمة أيام هيرودوت وبدراسة سطح الدلتا وبما دونه الكُتَّاب المتأخرون عن أفرع النيل. ولكن إذا قارنا الأفرع التي ذكرها هيرودوت بأفرع النيل الحالية نجد أن أول ما يلفت النظر اختفاء معظم الأفرع القديمة وأن الأجزاء الشمالية من فرعي دمياط ورشيد كانت غير طبيعية كما زعم هيرودوت، كذلك نجد أن نقطة التفرع القديمة انتقلت شمالاً إلى القناطر الخيرية (مسافة ١٥ كم). وإذا دققنا النظر في فرعي دمياط ورشيد نجد أنهما يتفقان في بعض أجزائهما مع الأفرع القديمة. ففرع رشيد يتفق مع الفرع الكانوبي في المسافة بين بلدة الوراق وقرية زاوية البحر التي تقع إلى الجنوب من كفر الزيات بحوالي ٢٠ كم.

ويتفق مع الفرع البولبيتي Bolbitine في المسافة بين بلدة الرحمانية والبحر، أما فرع دمياط فيتفق مع الفرع السبنيتي في المسافة بين كفر عليم وشبرا اليمن. ويتفق مع الفرع الباكولي Bucolic من شبرا اليمن إلى البحر.

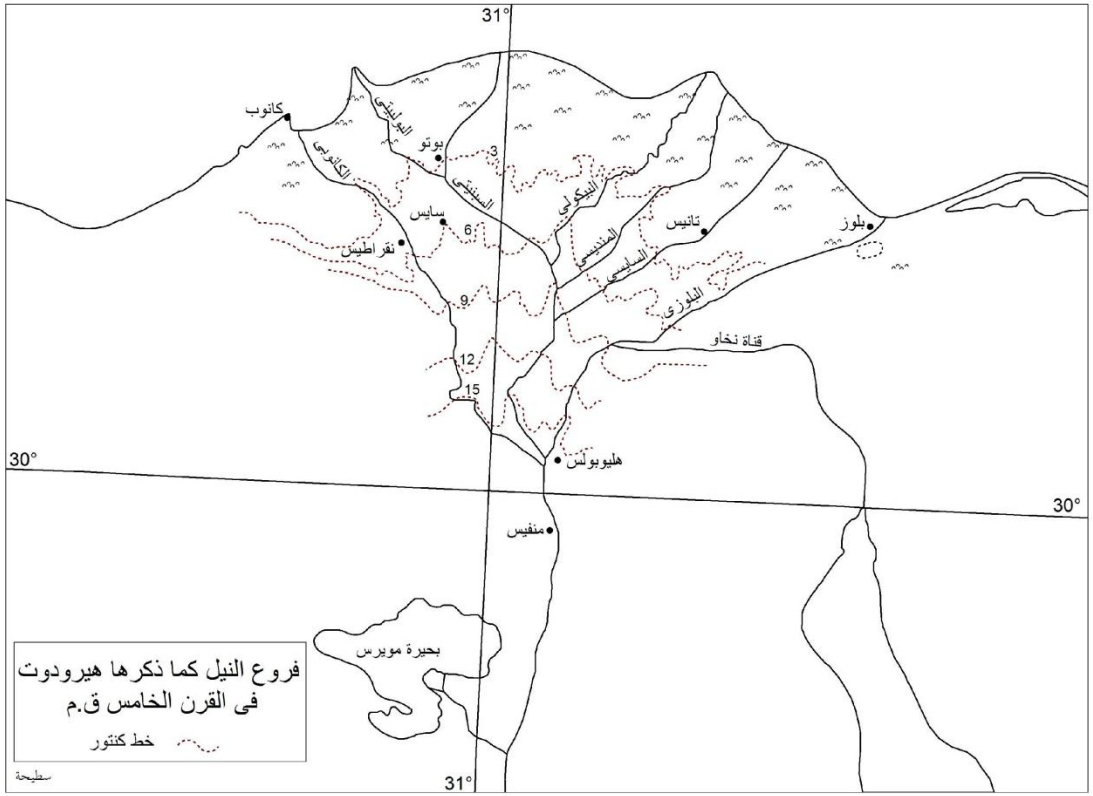
31°
30°
30°
31°
كانوب
بوتو
سايس
نقراطيس
تانيس
بلوز
هليوبولس
منفيس
قناة نخاو
بحيرة مويرس
الكانوبى
البولبيتى
السبنيتى
البيكولى
المندسى
السايسى
البلورى
3
6
9
12
15
فروع النيل كما ذكرها هيرودوت
فى القرن الخامس ق.م
خط كنتور
سطيحة

الشكل (٢)

وفي مخطوطة قديمة ترجع إلى القرن الرابع ق.م ليس لها مؤلف معروف ولكن تعرف باسم Periplus of Scylax إشارة إلى مصبات أفرع النيل السبعة وهي من الشرق إلى الغرب: البلوزي، التانيسي (نسبة إلى تانيس)، المنديسي، الفاتنيتي، السبنيتي، البولبيتي والكانوبي. وتتفق أسماء هذه المصبات مع مصبات الأفرع التي ذكرها هيرودوت ما عدا مصب الفرع التانيسي (السايسي عند هيرودوت) والفاتنيتي (الباكولي عند هيرودوت) وتتفق الأسماء التي ذكرتها هذه المخطوطة مع الأسماء التي ذكرها ديودور الصقلي (القرن الأول ق.م) واسترابون (في القرن الأول ق.م) وبليني Pliny (القرن الأول الميلادي) ولكن عند ذكر العلاقة بين فروع النيل نجد أن هناك اختلافاً بين هذه المخطوطة وبين ما ذكره هيرودوت واسترابون فهي تشير إلى أن الفرع المنديسي يتفرع من السبنيتي والفاتنيتي يتفرع من المنديسي والفرع التانيسي يتفرع من البلوزي.

هذا في شرق الدلتا، أما في غربها فتذكر المخطوطة أن هناك فرعاً يمتد من الكانوبي ويتجه نحو الشرق وينتهي في بحيرة سبنيت (بحيرة البرلس) كما أن الفرع البولبيتي يمر في البحيرة ليصل إلى البحر. ولكن يبدو أن هذه الفروع غيرت من اتجاهاتها في أيام استرابون. فمثلاً نجد أن الجزء الأعلى من الفرع السبنيتي والفرع الباكولي اللذين ذكرهما هيرودوت أصبحا يكونان الفرع الفاتنيتي Phatnitic أيام استرابون كما أن هذا الفرع أصبح يتفرع من الفرع البلوزي عند نقطة تبعد إلى الشمال قليلاً من رأس الدلتا الحالية عند قرية كوم أشفين بعد أن كان يتفرع قرب بلدة الوراق الحالية.

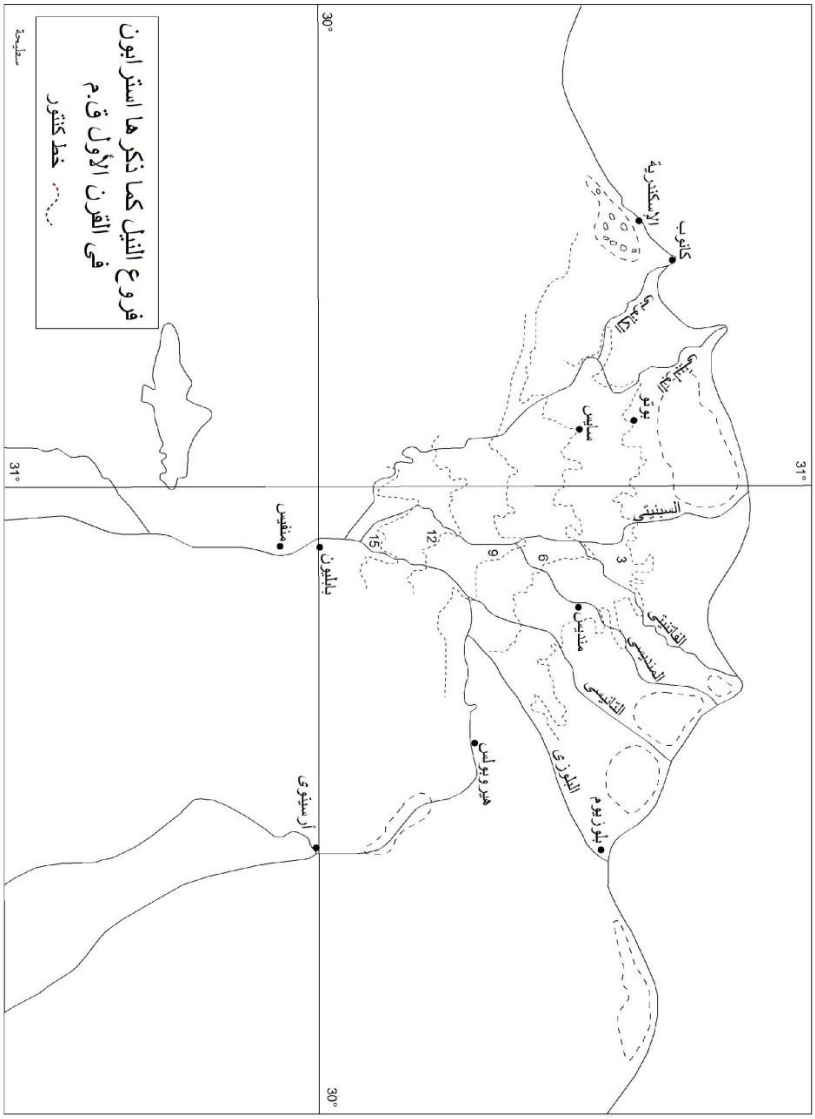

الشكل (٣)

كذلك نلحظ أن الجزء الأدنى من الفرع السبنيتي أيام هيرودوت غير اتجاهه وأصبح يسير في اتجاه بحر شبين وبحر تيره الحاليين ولكنه ينتهي عند مصبه القديم

(عند بلدة البرج) إلى الشرق من بلطيم كما أن الفرع السايسي الذي ذكره هيرودوت والذي سماه استرابون التانيسي ربما غير مكان تفرعه فأصبح يأخذ من الفرع البلوزي بعد أن كان يأخذ من الفرع السبنيتي وأصبحت نقطة الابتداء عند تل بسطة أي قرب مدينة الزقازيق الحالية.

وفي القرن الثاني الميلادي أشار بطليموس الجغرافي في كتابه المسمى "الجغرافيا" إلى أفرع النيل ولكنه سماها بأسماء جديدة غير التي ذكرها استرابون وبليني كما أن مصباتها لها أسماء مختلفة عن أسماء الفروع أو "الأنهار". (انظر شكل ٤) ويلاحظ أن ثلاثة من الأفرع التي ذكرها بطليموس تتفق في اتجاهاتها مع ثلاثة من الأفرع التي ذكرها هيرودوت. فأجاثودايمون Agathodaemon هو الكانوبي والبوباسطي هو البلوزي وتالى هو البولبيتي. (راجع شكلي ٢ و٤) أما الستة "أنهار" الأخرى التي ذكرها بطليموس فتختلف في اتجاهاتها عما ذكره من سبقه من الكُتَّاب فأصبح هناك فرعان يتجهان من الشمال إلى الجنوب ويتفقان في بعض أجزائهما مع بحر شبين وترعة الجعفرية وترعة القاصد. واضمحل الفرع التانيسي والمنديسي فأصبحا قصيرين ويأخذان من الفرع البوتي الذي كان يخترق الدلتا من الشرق إلى الغرب ويربط الكانوبي بالبلوزي. وينفرد بطليموس بذكر الفرع البوتي وكان يبدأ من دمنهور الحالية Hermopolis Parva ويتجه نحو الشرق ماراً بسخا الحالية xois وتمي الأمديد Thmuis (في شمال السنبلاوين) وصان الحجر الحالية في محافظة الشرقية وينتهي في الشرق حيث يتصل بالفرع البلوزي أو الفرع البوباسطي كما سماه بطليموس عند قرية كوم دفنة ويُرَجَّح أن هذا الفرع غير طبيعي وشق لتحسين ري أراضي الحياض في الجنوب.

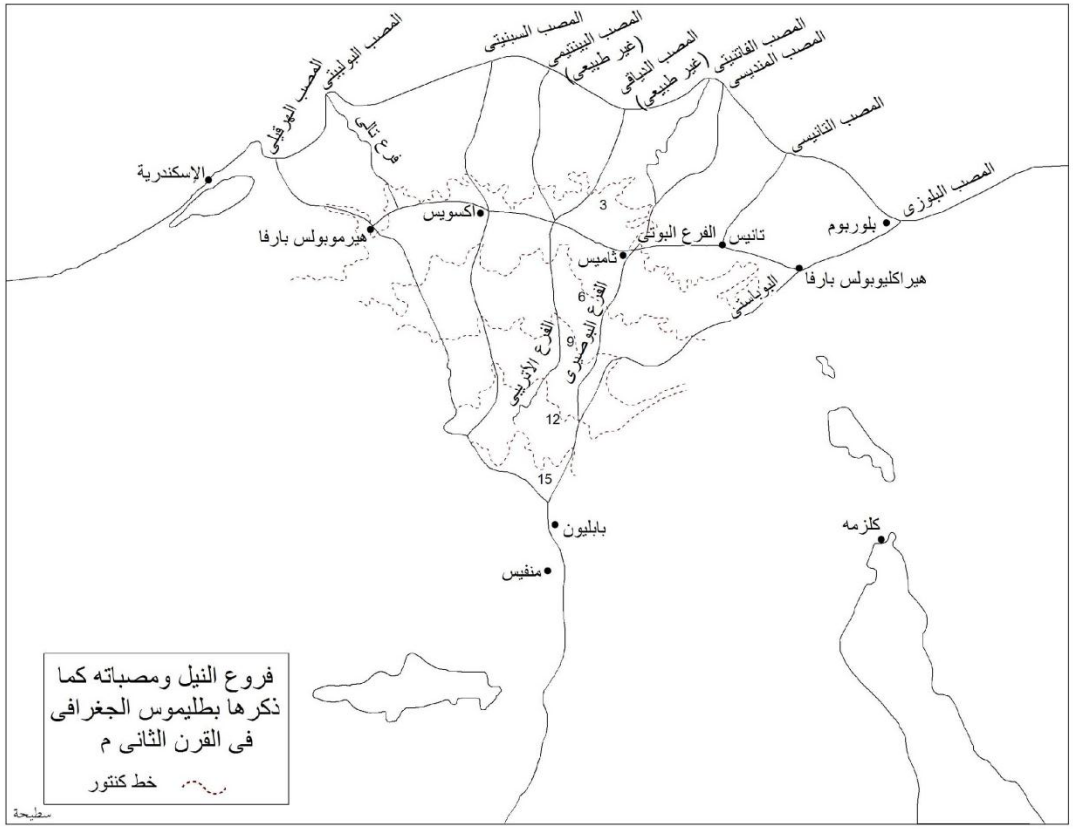
المصب البولبيتى
المصب السبنيتى
المصب البينتيمى (غير طبيعى)
المصب الدياقى (غير طبيعى)
المصب الفاتنيتى
المصب المنديسى
المصب الثانيسى
المصب البلوزى
المصب البوفلى
فرع تانى
الإسكندرية
اكسويس
هيرموبولس بارفا
3
الفرع البوتى
تانيس
بلوربوم
تاميس
هيراكليوبولس بارفا
البوباستى
6
الفرع البوصيرى
9
الفرع الأتريبى
12
15
بابليون
منفيس
كلزمه
فروع النيل ومصباته كما ذكرها بطليموس الجغرافى فى القرن الثانى م
خط كنتور
سطيحة

الشكل (٤)

وقبل دخول العرب مصر بحوالي ٣٥ سنة كتب جورج القبرصي George of Cyprus كتاباً وصف فيه العالم الروماني وأشار إلى أفرع النيل ومصباتها ولكن أسماء المصبات مختلفة عما ذكره بطليموس واسترابون وإن كانت مواقع ستة منها تتفق مع تلك التي ذكرها استرابون وبطليموس. والمصب الجديد الذي ذكره هو مصب الإسكندرية وهو نهاية فرع الإسكندرية الذي كان يأخذ من الفرع الكانوبي ويتفق في بعض أجزائه مع ترعة المحمودية الحالية. ومما هو جدير بالملاحظة أن جورج لم يشر إلى أي فرع يقع شرق الفرع التانيسي، ومعنى ذلك أن الفرع البلوزي كان قد اختفى قبل بداية القرن السابع الميلادي.

وقد ترك لنا الكُتَّاب العرب معلومات كثيرة عن أفرع النيل ولكنها للأسف متضاربة وتحتاج إلى دراسة دقيقة قبل رسم صورة صحيحة لتطور أفرع النيل في العصور الوسطى، ومن الكتّاب الذين كتبوا عن أفرع النيل: ابن عبد الحكم وابن خرداذبة وابن سرابيون في القرن التاسع الميلادي، اليعقوبي والمسعودي وابن حوقل في القرن العاشر الميلادي، الإدريسي والمخزومي في القرن الثاني عشر الميلادي، أبو الفدا والقلقشندي في القرن الرابع عشر الميلادي، المقريزي والزاهري في القرن الخامس عشر الميلادي.

ومن دراسة ما كُتِب عن هذا الموضوع منذ دخول العرب مصر حتى الآن وما كتبه الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر بعد ذلك يتبين لنا أن فرعي رشيد ودمياط ظهرا بشكلهما الحالي حوالي القرن العاشر الميلادي. ظهرا كفرعين رئيسيين بينما أخذت بقية الفروع في الاضمحلال. هذه الأفرع التي أخذت في الاضمحلال هي الفرع المنديسي القديم وقد أصبح يسمى بالبحر الصغير وينتهي في بحيرة المنزلة ، والفرع التانيسي الذي أصبح يسمى فرع تانيس ويتفق الآن في بعض أجزائه مع بحر حادوس. أما الفرع البلوزي فقد اختفى كما ذكرنا قبل القرن السابع الميلادي. وفي وسط الدلتا نلاحظ أن الفروع

القديمة التي كانت تتفرع من رأس الدلتا وتجري نحو الساحل لتصب في البحر أو بحيرة البرلس (نستروه) غيرت مجاريها وابتعدت مخارجها عن رأس الدلتا ولم تنته عند الساحل الشمالي بل عند نقط على فرع رشيد ودمياط. من هذه الأفرع فرع مليج الذي يتفق مع بحر شبين الحالي في جزء منه وفرع سخا الذي يتفق في بعض أجزائه مع ترعتي القاصد والجعفرية الحاليتين وفرع إبيار ويتفق في بعض أجزائه مع ترعة الباجورية الحالية.

وفي غرب الدلتا كان يوجد فرع الإسكندرية، وهو يتفق في بعض أجزائه مع الفرع الكانوبي وفرع الإسكندرية القديم اللذين ذكرهما جورج القبرصي. وربما اتفق في بعض مجراه مع أجزاء من مجرى ترعتي المحمودية ودياب الحاليتين. ويمكن القول أنه لم يزد عدد مصبات النيل في البحر في أيه فترة خلال العهد العربي على ثلاثة بعد أن كان تسعة أيام بطليموس الجغرافي (القرن الثاني الميلادي). ولا ننسى أن نشير إلى أن بحر يوسف الحالي فرع من فروع النيل القديمة ينتهي الآن في بركة قارون ولم يطرأ على مجراه إلا تغيرات طفيفة ولكنه غيَّر مكان تفرعه من النيل أكثر من مرة.

ولم يكن رأس الدلتا ثابتاً خلال آلاف السنين التي انقضت منذ أن بدأ التاريخ المصري. كان خلال جزء كبير من العهد الفرعوني يمتد قرب منف[1] . ثم أخذ على مدى القرون يتراجع ببطء شديد نحو الشمال حتى بلغ موضع بلدة الوراق الحالية في القرن الخامس قبل الميلاد[2]. وقد استمر تراجعه بعد ذلك في نفس الاتجاه حتى توقف تقريباً في القرن السابع الميلادي. ولكن لم يلبث أن أخذ يتقدم نحو الجنوب عدة قرون ثم بدأ يتراجع نحو الشمال مرة ثانية في القرن الثالث عشر. ولم يأت القرن الخامس عشر حتى كان مكان تفرع النيل عند بلدة شطانوف الحالية[3]. ثم بدأت مرحلة أخرى في تطور

---

(1) Clerget, M. Le Caire. Le Caire 1934, T. I. p. 14.
(2) Ibid. p. 15.
(3) Ibid.

رأس الدلتا منذ هذا التاريخ. فقد أخذ يتقدم نحو الجنوب حتى قام الإنسان في السنين الأخيرة ببناء سور من الحجر يحيط به ويثبته في مكانه. ويمثل رأس الدلتا الآن الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الشعير.

هذا فيما يختص بتطور أفرع النيل ورأس الدلتا. أما التغيرات التي حدثت في المجرى الرئيسي خلال العصور التاريخية فتتلخص في تآكل شاطىء بفعل التعرية النهرية ونمو شاطىء آخر بفعل الإرساب النهري وفي ظهور جزر نيلية واختفاء أخرى. ونعتمد في هذه الدراسة على الأبحاث الأثرية وعلى ما ذكره الكُتَّاب والرحالة بشأن مواقع مدن الوجه القبلي وقراه بالنسبة لشاطىء النهر. وسنكتفي في هذا البحث بدراسة التغيرات التي أصابت المجرى الرئيسي عند القاهرة منذ دخول العرب مصر. في هذا الجزء من النيل أدى الإرساب النهري إلى ظهور أرض جديدة على الضفة الشرقية تمتد إلى الشمال من مصر القديمة وتنتهي عند اتصال ترعة الإسماعيلية الحالية بالنيل. ويبلغ متوسط عرض هذه الأرض حوالي ثلاثة أرباع ميل. وعلى الضفة الغربية في مقابلة جزيرتي الروضة والجزيرة ظهرت أيضاً أراض جديدة ولكنها أضيق من تلك التي ظهرت في الشرق. في أول الأمر كانت تظهر الجزر في النهر ثم يبدأ المجرى الضيق الذي يفصل الجزيرة عن الشاطىء في الامتلاء بالرواسب وبعد مدة نجده يُردَم بالرمال والطين من الجانبين ويكون بركة لا يصلها ماء النهر إلا في الفيضان ثم بالتدريج تجف هذه البركة بسبب البخر وارتفاع مستواها بسبب الإرساب النهري. وهكذا تتصل الأراضي الجديدة بالقديمة.

ومن أشهر الجزر التي ظهرت وصارت فيما بعد جزءًا من بر القاهرة جزيرتا "بولاق" و "الفيل". أما جزيرة بولاق فقد ظهرت بعد القرن الحادي عشر وأنشئت بها البساتين في العهد الأيوبي من أشهرها بستان عُرف ببستان الفاضل (كان يمير القاهرة

من ثماره وأعنابه)[1]. وظهرت جزيرة الفيل (يقوم على أرضها حي شبرا الآن) إلى الجنوب قليلاً من منية السيرج في أوائل حكم الأيوبيين ثم أخذت تكبر وتمتد شمالاً وجنوباً حتى اتصلت بجزيرة بولاق في الجنوب وامتدت شمالاً إلى موضع اتصال ترعة الإسماعيلية الحالية بالنيل. وما لبث أن أُقيم على أرضها القصور وأنشئت البساتين. وقد تحدث المقريزي عن نشأة هذه الجزيرة وتطورها بشيء من الإسهاب وفيما يلي بعض ما قاله:

---

[1] المقريزي –الخطط – الجزء الثاني ص ١٥٤.

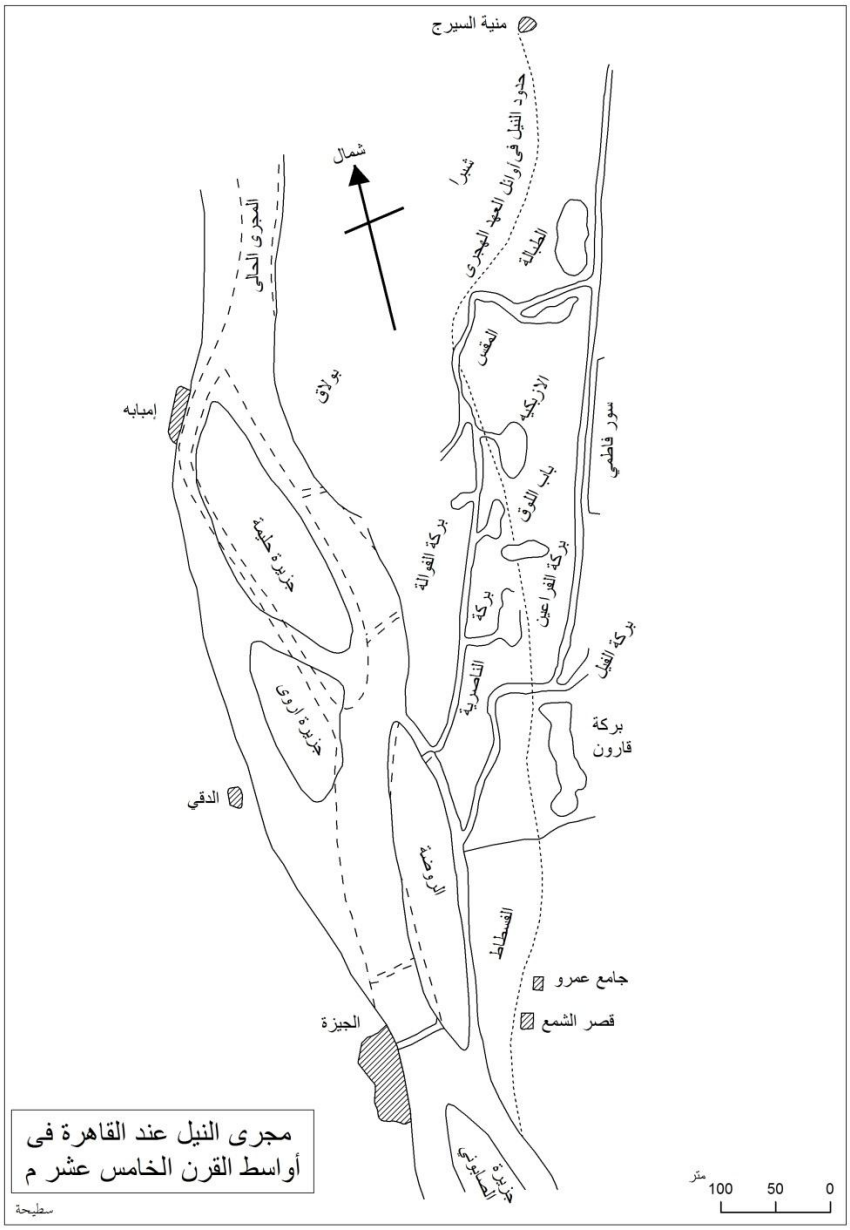
منية السيرج
حدود النيل فى أوائل العهد الهجرى
شبرا
شمال
المجرى الحالى
الطبالية
المقس
الأزبكية
بولاق
إمبابه
سور فاطمى
باب اللوق
بركة القوالة
خريدة حلمية
بركة الفراعين
بركة
بركة الفيل
الناصرية
خريدة أروى
بركة قارون
الدقي
الروضة
الفسطاط
جامع عمرو
قصر الشمع
الجيزة
خريدة الصابونى
مجرى النيل عند القاهرة فى
أواسط القرن الخامس عشر م
متر
100
50
0
سطيحة

الشكل (٥)

"جزيرة الفيل هي الآن (منتصف القرن الخامس عشر م) بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة وتتصل بمنية السيرج من بحريها ويمر النيل من غربيها وبها جامع وسوق كبير وعدة بساتين جليلة. وموضعها كله مما كان غامراً بالماء في الدولة الفاطمية. فلما كان بعد ذلك انكسر مركب كبير كان يعرف "بالفيل" وتُرك في مكانه فربا عليه الرمال وانطرد عنه الماء فصارت جزيرة فيما بين المنية وأرض الطبالة سماها الناس الفيل.... وما برحت هذه الجزيرة تتسع إلى أن زُرعت في أيام صلاح الدين.... وكثرت أطيانها بانحسار النيل عنها في كل سنة وغرس الناس بها الغروس... وسكن الناس من المزارعين هناك" ويستطرد المقريزي فيقول "فلما كانت أيام الملك الناصر محمد بن قلاون.... وانحسر النيل عن جانب المقس الغربي وصار ما هنالك رمالاً متصلة من بحريها بجزيرة الفيل المذكورة ومن قبليها بأرض اللوق، افتتح الناس باب العمارة بالقاهرة ومصر فعمروا تلك الرمال في المواضع التي تعرف اليوم ببولاق خارج المقس وأنشأوا بجزيرة الفيل البساتين والقصور. ولم يبق مكان بغير عمارة وصار فيها ما ينيف على ١٥٠ بستاناً"[1].

وقد حدثنا المقريزي عن جهود السلاطين لوقف هذا التغير في مجرى النهر بعمل الجسور ولكن دون جدوى فقد ظل الشاطىء الشرقي من النهر يتقدم ويتسع وكان على القاهرة أن تتقدم بمبانيها وبساتينها نحو النهر ويمثل الشكل (٥) خريطة للنيل عند القاهرة موضحاً عليها المجرى القديم عند دخول العرب مصر في سنة ٦١٤م والجزر التي كانت بالنهر في القرن الخامس عشر وأيضاً حدود المجرى الحالي. ويظهر من الخريطة أن الشاطىء الغربي طرأ عليه بعض التغيرات البسيطة بينما تقدم الشاطىء الشرقي بمصر القديمة والقاهرة نحو الغرب لمسافة كبيرة. وإذا تتبعا الشاطىء الشرقي القديم عند دخول العرب مصر نجد أنه كان يمر بناحية أثر النبي جنوبي مصر القديمة ثم يسير إلى

---

[1] المقريزي- الخطط. الجزء الثالث ص ٣٠٧.

الشمال بجوار شارع أثر النبي إلى أن يتلاقى بسكة حديد حلوان عند محطة المدابغ فيسير النيل بجوار هذه السكة إلى أن يتقابل بشارع ماري جرجس فيسير ماراً بقصر الشمع "الكنيسة المعلقة بمصر القديمة" فجامع عمرو ثم يسير محاذياً شارع سيدي حسن الأنور إلى نهايته ثم يتجه شمالاً ماراً بعدة شوارع حتى يصل إلى شارع محمد فريد ويستمر إلى نهايته ثم ينعطف النهر مائلاً إلى الشرق ويسير بجوار شارع الجيش حتى يصل إلى ميدان رمسيس (باب الحديد) فشارع غمرة ثم يسير بعد ذلك شمالاً محاذياً لخط السكة الحديدية بين مصر والإسكندرية ثم ينحني قليلاً نحو الغرب حتى يتقابل مع مجراه الحالي عند مخرج ترعة الإسماعيلية.

ومن الخريطة يتبين أن جزيرة الروضة كانت موجودة قبل فتح العرب لمصر وأن حدودها لم تتغير كثيراً منذ القرن السابع الميلادي، أما جزيرة حليمة فهي النواة التي نمت حولها "الجزيرة" وقد ظهرت كما أخبرنا المقريزي في النصف الأول من القرن الرابع عشر (سنة ١٣٣٢م)[1]. وارتفع ثمن الأراضي بها كثيراً. يقول هذا الكاتب "هذه الجزيرة خرجت في سنة ٧٤٧هـ "ما بين بولاق والجزيرة الوسطى "جزيرة أروى" سمتها العامة بحليمة ونصبوا فيها عدة أخصاص وكان فيها من هذه الأخصاص عدة وافرة وزرع حول كل خص من المقاتي وغيرها. وتردد إلى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة ألا يثبت بها أحد. وبلغ أجرة كل قصبة في هذه الجزيرة مبلغ ٢٠ درهماً فوقف الفدان بمبلغ ٨٠٠٠ درهم، وكان الانتفاع بها ستة أشهر فقط، فعلى ذلك يكون الفدان بمبلغ ١٦٠٠٠ درهم[2]. وظهر إلى الجنوب في جزيرة حليمة جزيرة تعرف بجزيرة أروى أو الجزيرة الوسطى ويظهر من الخريطة أنها اتصلت فيما بعد بالشاطىء الغربي وأصبحت جزءاً منه.

---

[1] المقريزي – "الخطط" الجزء الثالث ص ٣٠٢ وما بعدها.

[2] المرجع السابق - نفس الصفحة.

يقول المقريزي "هذه الجزيرة تعرف بالجزيرة الوسطى لأنها فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الجيزة لم ينحسر عنها الماء إلا بعد سنة ٧٠٠هـ (حوالي ١٣٠٠م). وبنى فيها الناس الدور والأسواق والجامع والطاحون والفرن وغرسوا فيها البساتين وحفروا الآبار وصارت من أحسن متنزهات مصر يحف بها الماء". ولكن يظهر أن اتصالها بالبر الغربي جاء بعد القرن الخامس عشر الميلادي. فليس في كلام المقريزي مايدل على أنها اتصلت بالبر الغربي في أيامه.

الفصل الخامس:

أرض مصر

كانت مساحة الأرض المزروعة في الدلتا والوادي تحت نظام ري الحياض تتغير من سنة إلى أخرى ومن عصر إلى عصر. فمساحة الزراعات الشتوية كانت تتوقف أولاً وقبل كل شيء على ارتفاع منسوب الفيضان ثم على مقدار العناية بتطهير الترع والمحافظة على الجسور.

ففي سنة من السنين قد تروى كل الأرض القابلة للزراعة وفي سنة أخرى قد لا يروى إلا ربع الأرض. وينتج عن ذلك المجاعات وهلاك الناس والحيوان. ويمكن القول إنه في أغلب السنين كان من الصعب غمر الأراضي البعيدة عن النهر القريبة من حافة الصحراء بمياه الفيضان (كانت تترك كمراعي)، وكذلك الأراضي العالية المكونة لجسور النهر، وإن كان يستفاد بأجزاء منها في زراعة المحاصيل الصيفية كقصب السكر والذرة الرفيعة. أما تغير المساحة من عصر إلى عصر فكان مرتبطاً بمدى اهتمام الحكومة بأمور الري واستصلاح الأرض وعدالة نظامها الضرائبي، وعلى قدرتها على المحافظة على الأمن ومنع الفوضى والاضطراب. ثم أخيراً على عدد السكان القائمين بالزراعة. إلى جانب هذه العوامل البشرية كانت هناك حركات القشرة التي ترتب عليها انخفاض الأجزاء الشمالية من الدلتا وحدوث هبوط جهة الشرق والغرب كان محوره فرع دمياط. ونتج عن ذلك انخفاض مستوى الأرض وارتفاع مستوى الماء الباطني بها وصعوبة تصريف مائها، وساعد ذلك على بوارها في النهاية. وسنرجع إلى هذا الموضوع بعد قليل.[1] وتجدر الإشارة إلى أن مجموع مساحة الأرض التي يمكن استصلاحها إما بغسلها من الأملاح أو توصيل ماء الري لها وتلك التي كانت تزرع فعلاً لم تتغير كثيراً في مجموعها خلال التاريخ. الذي

---

[1] يدعى ولكنصن J, Wilkinson في كتابه (Manners and Customs of the Anc.Egs. ص١١٢ أنه ترتب على استمرار ارتفاع قاع النيل في العصور التاريخية اتساع مساحة الأرض التي يغمرها النهر بمائه. ويرى أن السهل الفيضي كان يتسع قبل إدخال نظام الري بمعدل ٧ بوصات سنوياً جهة الغرب. ولكن يبدو أن ولكنصن نسى أن مستوى الأرض الزراعية كان كقاع النهر يرتفع بالتدريج مما لا يسمح باتساع الأرض التي تغمرها مياه الفيضان.

كان يتغير بشكل واضح هو مساحة الأرض المزروعة. ومن الصعب وضع تقديرات لمساحة الأرض الزراعية خلال العصور المختلفة. ولكن يمكن القول إنه قبل القرن العاشر الميلادي وقبل اضمحلال شمال الدلتا كانت مساحة الأرض في فترات الازدهار والقوة في العهد الفرعوني والبطلمي والروماني والعربي تصل إلى أكثر من ١/٢ ٥ مليون فدان.

ولكن بعد هذا التاريخ وبعد انتشار الأراضي البور في شمال الدلتا انخفضت المساحة بما يقرب من مليون فدان وربما لم تزد في عهود الرخاء واستتباب الأمن الداخلى فيما بعد على ١/٢ ٤ مليون فدان، ونحو ٣/٤ ٣ مليون فدان في عهود الفوضى والاضطراب. وبالرغم من إحاطة الصحاري بوادي النيل، فلم تطغ الرمال السافية على الأرض الزراعية إلا في حالات نادرة ولظروف خاصة. فمن الملاحظ أن الرمل قد يطغى أحياناً إذا كانت الأرض على حافة الصحراء وقريبة من نهاية أحد الأودية الصغيرة الجافة. ولو كان خطر الرمال شديداً على أرض مصر لاندثر كثير من الأماكن الهامشية التي ورد ذكرها في الوثائق التاريخية ولردم بحر يوسف الذي يجرى قريباً من الصحراء[1]. وقد ساعد تغير أفرع النيل على تنوع التربة في الدلتا وظهور اختلافات كنتورية في سطحها. وساعد نظام ري الحياض على ازدياد سمك التربة عاماً بعد عام بفضل ما يرسب عليها من غرين وقت الفيضان. وقد قدر بول J. Ball في كتابه Contributions to the Geography of Egypt أن معدل الزيادة السنوي في سمك التربة بحوالي مليمتر واحد في السنة. وإذا علمنا أن التاريخ المصري بدأ في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد فإن الأرض الزراعية يكون قد زاد سمكها أكثر من ٥ أمتار حتى نهاية القرن الثامن عشر.

---

(1) Reynier, M. L'Agriculture de l'Egypte.Mémoires sur l'Egypte, vol. IV, P. 4 & 5.

ويبلغ متوسط سمك أرض الدلتا اليوم حوالي ٩.٨ أمتار، بينما لا يزيد متوسط سمكها في الوادي على ٨.٣ أمتار[١]. والتربة في مصر فقيرة في النيتروجين والبوتاس لذلك كان الفلاح يعمد إلى تسميدها إذا قام بزراعتها بمحصول من المحاصيل الصيفية. ففي جنوب الوادي كان السماد عبارة عن طَفل يحوي نسبة صغيرة من النترات ويحصل عليه قريباً من حافتي الهضبة الشرقية والغربية. وفي الدلتا كان السماد يستمد إما من خرائب المدن والقرى (يعرف بالسماد الكفري) أو من حظائر الماشية وأبراج الحمام[٢].

ولم تكن أرض مصر ملكاً للشعب إلا في فترات قصيرة خلال التاريخ. كانت ملكاً للحاكم والأمراء ورجال الدين والحاشية ورجال الجيش. أما الفلاحون فكانوا رقيق الأرض يزرعونها لسادتهم ويؤدون ما عليهم من ضرائب قد تكون عينية أو نقوداً نظير انتفاعهم بها. وكانت ضريبة الأرض تتفاوت من عصر لعصر، ومن إقليم لإقليم. وكثيراً ما كانت فداحة الضرائب سبباً في هجر الأرض. فتحدثنا أوراق البردي التي ترجع إلى العهد البيزنطي مثلاً أن الفلاحين كانوا يهربون من الريف إلى المدن بسبب فداحة الضرائب[٣]. ويذكر المقريزي أنه في العهد المملوكي هجر كثير من الفلاحين الأرض هرباً من دفع الضرائب، منهم من نزح إلى المدن ومنهم من ترك مصر كلية إلى بلاد الشام[٤]. وقد تكررت نفس الظاهرة أيام محمد علي.

وكانت العادة في كل سنة أن يخرج موظفو الحكومة إلى الحقول بعد انحسار مياه النيل لتقدير مساحة الأرض التي غمرتها مياه الفيضان والتي لم تغمرها وعلى هذا التقدير كانت تُفرض الضرائب ويقدر خراج الأرض. وكان الخراج أي ضريبة الأرض المنبع الرئيسي لدخل مصر. وكان لكل عصر نظامه في طريقة الانتفاع بهذا الدخل. فمثلاً في

---

(١) Ball, J. (1952) p. 153.
(٢) Hardy, E.The Large Estates of Byzantine Egypt, N. Y. 1931.Chap. I.
(٣) Ibid,
(٤) المقريزي – الخطط ص ١٢٣ وما بعدها.

الفترة التي كانت مصر فيها تحت حكم الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطميين كان هناك ما يسمى بنظام الأعطية. فمن الخراج كانت تصرف أعطية الجند ورواتب الولاة وموظفي دواوين الدولة فما زاد عن ذلك من مال الخراج أودع في بيت المال. ومنذ عهد الدولة الأيوبية حل نظام الاقطاع في مصر محِل نظام الأعطية، فكان الخليفة أو السلطان يُقطِع من يريد إقطاعاً من الأرض ويقرر على من أقطعت له شيئاً يؤديه لبيت المال في كل سنة[١]. وتحت هذا النظام كان الخراج يقسم ٢٤ قيراطًا: للسلطان منها ٤، ولرجال الجيش ١٠، وللأفراد ١٠.

وقد عرف المصريون منذ فجر التاريخ كيف يقيسون الأرض ويحسبون مساحتها وكانت لها مقاييس اختلفت من عصر إلى آخر[٢]. وقد دعت الحاجة في أول الأمر إلى هذه المعرفة فزيادة مساحة الأرض بسبب الإرساب النهري ونقص مساحتها بفعل نحت المياه في العصور المختلفة والرغبة في معرفة مساحة الأرض التي يشملها الفيضان دفعت إلى الاهتمام بعلم المساحة والهندسة. وقد اهتمت الحكومات المتعاقبة بمعرفة مساحة أراضي مصر الزراعية لتقدير خراج الأرض وتعديه إذا لزم الأمر. فكانت أرض كل إقليم تمسح وتقدر مساحة البائر منها والعامر وتعرف غلاتها وتقدر محصولاتها وما عليها من حيوانات وتسجل البلاد والقرى وما بها من أملاك ثابتة[٣]. وعلى هذا الأساس تقدر ضريبة الأرض ويعدل توزيعها على الطبقة الحاكمة. وسنكتفي هنا بالإشارة إلى هذه العملية خلال العهد العربي.

كانت هذه العملية تعرف بأراكة الأرض "والروك" كلمة محرفة للأصل الديموطيقي "روخ" ومعناها تقسيم الأرض. وهذه الكلمة أيضاً أصل الكلمة القبطية

---

[١] المقريزي – كتاب السلوك – القاهرة ١٩٤٣ الجزء الأول ص ١٤٦ وما بعدها.

[٢] راجع في ذلك: Ball, J. Egypt in the classical geographers. Cairo 1942, P, 6.

[٣] انظر في ذلك: De Sacy. S. Droit de propriété Territorial en Ègypte.

"روش" ومعناها قياس الأرض بالحبل. والمعروف أنه خلال العهد العربي قام الولاة والسلاطين بأراكة الأرض سبع مرات[1]. المرة الأولي والثانية في زمن الدولة الأموية في سنتي ٧١٥ و ٧٤٣م على الترتيب وتم الروك الثالث في زمن الخلافة العباسية سنة ٨٦٧م. أما الرابع فيعرف بالروك الأفضلي نسبة إلى الأفضل بن أمير الجيوش وتم في عهد الآمر الفاطمي سنة ١١٠٦م تقريباً. ويعرف الروك الخامس بالروك الصلاحي نسبة إلى السلطان صلاح الدين وقد تم سنة ١١٧٦م. والروك السادس هو الروك الحسامي نسبة إلى السلطان حسام الدين لاجين وقد تم سنة ١٢٩٠م وأخيراً الروك الناصري وقام به السلطان الناصر محمد بن قلاون وقد تم حوالي ١٣٠٧م.

وأهم روك في هذه السبعة الروك الأخير أو الروك الناصري. وقد كتب ابن الجيعان مؤلفه المعروف باسم "التحفة السنية" عن هذا الروك وهو يحدثنا عن سبب القيام به وكيف تم فيقول: "في سنة خمس عشرة وسبعمائة اختار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون أن يروك الديار المصرية وكان سبب ذلك أنه اعتبر كثيراً من أخباز وأرزاق (دخل) المماليك والحاشية الذين كانوا للملك المظفر ركن الدين بيبرس وسائر المماليك البرجية فإذا هي مابين ألف دينار إلى ثمانمائة دينار. وخشى من قطع أخباز المذكورين فولد له الرأي مع القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش أن يروك ديار مصر ويقرر، إقطاعات مما يختار. فتقدم الفخر ناظر الجيش فعمل أوراقًا بما عليه عبر النواحي ومساحتها وعين السلطان لكل إقليم من أقاليم مصر أناساً وندب معهم كُتَّابا وقيَّاسين فصاروا إلى حيث ذكر فكان كل منهم إذا نزل بأول عمله طلب مشايخ كل بلد وقضاتها وسجلاتها التي بأيدي مقتطعيها وفحص عن متحصلها من عين وغلة وأصناف ومقدار ما تحتوي عليه من الفدن ومزروعها وبورها وما عليها لمقطعيها من غلة ودجاج وخراف وبرسيم وكشك وكعك وغير ذلك من الضيافة. فإذا حرر ذلك

---

[1] المقريزي – كتاب السلوك – الجزء الثاني ص ١٤٦.

كله ابتدأ بقياس تلك الناحية وضبط ما يظهر بالقياس الصحيح. ثم حضروا بعد ٧٥ يوماً وقد تحرر في الأوراق المحضرة حال جميع ضياع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة". وقد عرضت نتائج الروك بعد ذلك على السلطان وعلى أساسها حدد الأراضي التي تخصه والإقطاعات التي تمنح للأمراء ورجال الجيش.

والآن نقف قليلاً عند مشكلة الأراضي البور في شمال الدلتا. تختلف الآراء في تفسير سبب اضمحلال هذه الأراضي وبوارها بعد أن كانت خصبة حتى أوائل العهد العربي تنتشر فيها القرى والزراعات. فيرى ولكوكس Willcocks أنه بعد دخول العرب مصر دمرت جسور الحيضان في هذه المنطقة فساء ريها وصرف مياهها فزادت نسبة الأملاح في الأرض وفقدت خصوبتها بالتدريج ثم بارت في النهاية[1]. ولاشك أن في هذا الرأي تحاملاً على العرب فليس هناك من الأدلة مايؤيده. وهناك رأي مس سمبل Semple التي تعتقد أن شمال الدلتا كان دائماً قليل الخصوبة خصوصاً الأجزاء القريبة من البحر وسبب ذلك قرب مستوى الماء الباطني الذي ترتفع فيه نسبة الأملاح. فالأرض هنا قليلة الارتفاع بالنسبة لمستوى سطح البحر مما يؤدي إلى صعود الماء الكثير الأملاح إلى السطح بواسطة الخاصة الشعرية ثم يتبخر الماء ويبقى الملح. وقد زاد من هذه الحالة وأدى إلى اتساع نطاق الأراضي البور بالتدريج صعوبة صرف ماء الفيضان بسبب انخفاض الأرض وانسداد فوهات الترع التي تصب في البحر بواسطة الرمال وقد ظهر ذلك واضحاً في العهود التي عمت فيها الفوضى وقل الاهتمام بشئون الري[2]. ويرى آخرون أن اضمحلال شمال الدلتا يرجع إلى هبوط هذا الجزء باستمرار منذ القرن

---

(1) Willcocks, W. Egyptian irrigation. London 1913. vol. II, p. 83.
(2) Semple, E, The Geography of the Mediterranean Region. London 1932. P. 160.

الثاني بعد الميلاد[١]. وقد أدى ذلك إلى سوء الصرف واقتراب مستوى الماء الباطني من السطح وظهور الأملاح على التربة واتساع رقعة البحيرات والمستنقعات الساحلية ويؤيد هذا الرأي أدلة مادية وتاريخية. فمن الأدلة المادية هبوط المقابر الرومانية في كوم الشقافة بالإسكندرية إلى مستوى الماء الباطني. وانغمار مقابر البطالمة تحت الماء في جهة الشاطىء ووجود أرصفة لميناء الإسكندرية القديم مغمورة بماء البحر إلى عمق يبلغ عدة أمتار وغرق جزيرة أنتيرودس Antirodes التي كانت تقع في الميناء الشرقي وهبوط مصب الفرع الكانوبي تحت مياه خليج أبي قير ووجود آثار قرى قديمة في بحيرتي المنزلة والبرلس انغمرت أرضها الزراعية تحت الماء واتساع مساحة سبخة البروديل. ومن الأدلة التاريخية ماذكره المقريزي من أن مياه بحيرة المنزلة أخذت تنتشر على مساحة أوسع قبل دخول العرب مصر.

وكان هبوط الساحل تدريجياً إذ يقدر بحوالي ١٤ سم في كل قرن ويُرجَّح أنه كان نتيجة للضغط الذي يحدثه توالي الإرساب النهري وقد سبب هذا الهبوط تغيرات كبيرة في الأجزاء الدنيا من فروع النيل وأدى إلى اتساع مساحة البحيرات الشمالية. ويُرجَّح أن هبوط الساحل كان بدرجة أكثر في غرب الدلتا منه في شرقها. وربما فسر ذلك سبب ارتفاع مستوى مياه الفيضان في المجرى الأوسط لفرع دمياط عن مستوى الأرض الزراعية بنحو ثلاثة أمتار بينما لا يزيد الفرق بين مستوى الأرض الزراعية ومستوى مياه الفيضان في منتصف فرع رشيد على ١.٥ متر فقط. ويفسر أيضاً سبب اضمحلال الأفرع القديمة التي كانت تأخذ من فرع دمياط وتتجه نحو الشمال الشرقي والشمال الغربي وضعف التعرية النهرية فيه ونشاطها في فرع رشيد[٢]. هذا ولم يظهر أثر الهبوط بشكل

---

[١] راجع في ذلك كلا من:

- M. Audebeau, M. Essay sur l'affaissement du nord du delta Egyptien depuis l'empire Romain. Bull, inst d'Egypte (1918-1919, pp. 117-134)
- Butzer (1959) op. cit. pp, 45-85.

[٢] Lyons, H. The Physiography of the River Nile, Cairo 1905, p, 349

واضح إلا في القرن العاشر الميلادي. فيقول المخزومي الذي عاش في القرن الثاني عشر إن المساحة المحصورة بين فاقوس جهة الشرق ونهاية فرع الإسكندرية جهة الغرب كانت عامرة كلها إلى حوالي سنة ٣٥٠ من سني الهجرة (٩٦١م) وبعد هذا التاريخ حل الخراب والبوار بالجزء الأكبر منها[١]. وقد أخذت حدود الأرض الزراعية تتقهقر نحو الجنوب حتى أصبحت في القرن الثامن عشر تتفق مع خط يبدأ من الغرب عند الدلنجات ثم يتجه شمالاً عند دمنهور ثم شرقاً إلى شبراخيت فدسوق فسنهور المدينة (جنوب شرق دسوق) ثم قلين وبعد ذلك يتجه بشكل متعرج إلى المنصورة ومن المنصورة يتجه جنوباً إلى السنبلاوين ثم شرقاً إلى فاقوس وينتهي أخيراً بلبيس[٢]. إلى الشمال من هذا الخط كانت المياه الزائدة عن حاجة الجنوب تنصرف في برار ومستنقعات موحشة. وقد حاول كثير من السلاطين استصلاح مساحات منها ولكن كانت قلة الماء الصالح للشرب وسوء الصرف وندرة السكان عقبة كبيرة في سبيل استصلاح هذه المساحات[٣]. ولم يبدأ استصلاح هذه الأرض بشكل جدي منظم إلا منذ أوائل القرن التاسع عشر أي بعد أن أُدخل نظام الري الدائم وتوفرت المياه لغسل التربة من الأملاح وكذلك بعد أن تحسنت المواصلات. وهنا يجب أن نشير إلى حقيقتين أولهما أن شمال الدلتا لم يخل في يوم من الأيام من مستنقعات وأراض بائرة، فهيرودوت يشير إلى ما سماه بإقليم البراري والمستنقعات قرب الساحل ومخطوطة سيلاكس Scylax التي سبق الإشارة اليها تشير إلى أن شمال الدلتا به كثير من البحيرات والمستنقعات وفي القرن السادس أشار هيروكليس Hierocles إلى مديرية المستنقعات في شمال الدلتا سماها إلارشيا Elearchia وتتشابه الدلتا في ظاهرة وجود المستنقعات في أدانيها مع كل دالات الأنهار. ففي الأجزاء الدنيا من الدالات توجد عادة أجزاء منخفضة لم يكمل فيها الإرساب. أما

---

(١) انظر في ذلك: Kamal, Y. Monumenta Cartographica.Afri. et Aegy, Epoq.Arab. Part 4.D, 892.

(٢) راجع في ذلك: Willcocks, W. Op. cit. vol, I. p. 358.

(٣) Audebeau, M. Terres du Bas. Delta. Bull. Inst. Egy. Sess. 1925-26.

الحقيقة الثانية فهي أن هناك ثلاث مناطق قرب ساحل الدلتا لم يصبها الاضمحلال الذي أصاب بقية أرض الدلتا خلال العصور الوسطى. هذه المناطق هي: منطقة رشيد ومنطقة بلطيم. ومنطقة فارسكور ودمياط[١]. في هذه المناطق الثلاث ساعدت ظروف السطح ووفرة الماء سواء من الأمطار أو الآبار أو النهر على استمرار زراعة النخيل وبعض المحاصيل الحقلية كالأرز.

وكما ذكرنا لم تقف الحكومات المتعاقبة موقفاً سلبياً أمام تدهور الزراعة في شمال الدلتا بل عمل بعض الحكام على استصلاح أراض بائرة. فنحن نقرأ عن محاولات السلاطين لإنقاذ الأرض من البوار وكانت وسيلتهم دائماً هي شق القنوات وتوصيل ماء النيل إلى هذه الجهات. ولكن لا يلبث أن يقف الماء عن الجريان في هذه القنوات لحاجتها المُلِحَّة إلى التطهير والتعميق فترجع الأمور إلى ما كانت عليه من سوء. ويحدثنا المقريزي عن المحاولات العديدة لإعادة شق ترعة الإسكندرية كلما توقفت عن الجريان بسبب كثرة الإرساب فيها ويشير إلى المنافع والمكاسب التي تصيب الزراعة والتجارة وسكان الإسكندرية كلما أعيد حفرها. ومما قاله المقريزي في هذا الشأن:

"... وقع العمل في رجب سنة ٧١٠هـ، فكان فيه ٤٠ ألف رجل. فلما فرغ بكتوت الخازنداري (وهو المكلف من قِبل السلطان بحفر خليج الإسكندرية) من العمل، أنشأ الناس عليه أراضي وسواقي... فبلغ ما أنشىء عليه زيادة على ١٠٠ ألف فدان ونحو ٦٠٠ ساقية، ٤٠ قرية. وسارت فيه المراكب الكبار واستغنى أهل الثغر عن خزن الماء في الصهاريج[٢].

وإذا تركنا الدلتا وانتقلنا إلى منخفض الفيوم نجد أن هذا الاقليم أصابه كثير من الإصلاح على أيدي البطالمة. ففي عهد بطليموس الأول والثاني (٣٢٣-٢٤٧ ق.م)

---

[١] Audebeau, Terres 1925-26

[٢] المقريزي – كتاب السلوك الجزء الثاني ص ١١١.

جففت مساحات واسعة من بحيرة مويرس القديمة بلغت ١٢٠٠كم٢ وقد تطلب ذلك إقامة سد له عيون عند مدخل بحر يوسف إلى المنخفض وذلك للإسراع بعملية التجفيف[١] وتحولت هذه الأرض إلى أراض زراعية خصبة شقت فيها القنوات ومدت فيها الجسور وقامت عليها القرى والمدن وصلنا من أسمائها ١١٤ اسماً[٢]. وقد ازدهر إقليم الفيوم أيما ازدرهار في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد[٣]، ثم أخذ ينكمش ويضمحل حتى بلغ أقصى درجات الاضمحلال في القرن الرابع الميلادي بسبب إهمال مشاريع الري وردم الرمال السافية لعدد من القنوات فهجر كثير من القرى والمدن. ويبدو أن الإقليم استعاد بعض ما فقده في العهدين البيزنطي والعربي.

ومن المراجع العربية في هذا الموضوع كتاب "تاريخ الفيوم" لأبي عثمان النابلسي الذي كان حاكماً للإقليم إبان حكم الأيوبيين. يحدثنا أبو عثمان هذا عن غنى الإقليم وعن سكانه وترعه وعن اهتمام السلاطين باستغلال أرضه في زراعة المحاصيل الصيفية كقصب السكر والأرز. ويؤكد أن الأقليم يمكن أن يكون أغنى من ذلك لو وجَّه الحكام اهتماماً أكبر إلى تطهير الترع وشق ترع جديدة في الجهات المهجورة قرب حافة الصحراء وشاطىء بحيرة قارون[٤].

---

[١] راجع "استرابون في مصر" لوهيب كامل.

[٢] Rostovtzeff, M. The Social and Economic History of the Hellenistic World.Oxford 1941, vol. I, pp. 8-19.

[٣] إبراهيم نصحي – تاريخ مصر في عصر البطالمة – القاهرة ١٩٤٦ – الجزء الثاني ص ٣٨٠.

[٤] راجع تاريخ الفيوم للنابلسي طبعة القاهرة سنة ١٨٩٩ ص ٦ وما بعدها.

الفصل السادس:

الري والزراعة

النيل هو منبع الحياة في مصر وهو الذي علَّم المصريين الزراعة، في سهله الفيضي ودلتاه تركز السكان وعلى مائه اعتمد الإنسان والحيوان والنبات. جلب النيل الماء اللازم لري النباتات وحمل الماء الغرين الذي يجدد خصوبة الأرض كل عام. وقد أسهم النهر في قيام الحضارة الزراعية في واديه ودلتاه ولكن دور الإنسان لم يكن أقل شأناً من دور النهر والمناخ والعوامل الطبيعية الأخرى. فقد حاول الإنسان منذ أن نزل الوادي أن ينتفع بفيضان النهر على جوانبه في الزراعة. وبمرور الزمن اهتدى إلى عمل الجسور لحجز ماء الفيضان مدة كافية على الأرض وشق الترع لتوصيل هذا الماء إلى الأرض وكان هذا العمل يتطلب جهوداً جبارة من جانب الجماعة ويتطلب إشرافاً دقيقاً من هيئة عليا حاكمة فقامت حكومات محلية يرأسها أمراء ثم اتحدت هذه الإمارات فيما قبل التاريخ مكونة مملكتي مصر العليا ومصر السفلى وانتهى الأمر بالمملكتين إلى اتحاد أول ثم اتحاد ثان على يد مينا مؤسس الأسرة الأولى المصرية[1]. ابتدأ التاريخ المصري إذن وقد اكتمل نظام ري الحياض ووضعت أسس الزراعة وكان نظام الحياض ملائماً لظروف البيئة أحسن ملاءمة، لذلك ظل يخدم الغرض منه أحسن خدمة طوال التاريخ بل وفيما قبل التاريخ ولكن في القرن التاسع عشر حل محله نظام الري الدائم في الدلتا وجزء كبير من الوادي. وقد استتبع ذلك تغيير شامل في مشاريع الري وفي المحاصيل وفي الدورة الزراعية وفي الإنتاج، فأزيلت الجسور وأنشئت القناطر والخزانات وشقت الترع والمصارف وأصبحت المحاصيل الصيفية أهم من الشتوية وتضاعف الإنتاج وزاد عدد السكان. ولم تكن نتائج نظام الري الدائم كلها في صالح مصر فقد أضر هذا النظام بالتربة أيما ضرر فزاد اعتماد الفلاح على السماد وارتفع مستوى المياه الجوفية فأوجب ذلك شق المصارف وإنشاء محطات الصرف وتسبب هذا النظام أيضاً

---

[1] Moret, A, The Nile and Egyptian Civilization. London 1927 p. 33 and 34
انظر كذلك:

Rolfe, D. “Environmental Infeunces in the Agriculture of Ancient Egypt”. Am. J. Sem. Lang & Lit, vol, XXXIII, 1917, p, 153.

في نشر البلهارسيا والأنكلستوما اللذين يقضيان على حيوية أهل الريف وخاصة في الدلتا.

وقبل القرن التاسع عشر كانت مصر كلها حكومة وشعباً تترقب كل عام وبقلق بالغ فيضان النهر. فعلى أساس مستوى الفيضان كانت تتوقف مساحة الأرض التي ستغمرها المياه وبالتالي يتوقف الإنتاج ودخل الحكومة بل وكل النشاط الاقتصادي في الدولة. لذلك كان المصريون ولا زالوا يحتفلون بوفاء النيل ويدعون الله ألا يمسك عنهم خيره ورحمته إذا توقف عن الزيادة. وقد رأينا كيف كانت الحالة تسوء وتشتد المجاعة إذا انخفض مستوى الفيضان عن الحد الضروري، وكيف تخصب الأرض وتزيد غلتها وتروج التجارة إذا ارتفع إلى حد الكفاية.

ومستلزمات نظام الحياض تتلخص في الجسور والترع. أما الجسور فتُبنى من الطين بحيث ترتفع إلى علو يبلغ ٣.٥ أمتار ويصل عرضها إلى نحو ستة أمتار ولتقويتها تُوضع بعض الأحجار عند قواعدها وكان هذا يسمح باتخاذها طرقاً وقت ملء الحيضان. وهي تنقسم إلى نوعين رئيسيين: الجسور الطولية وهذه تمتد بموازاة النهر وفروعه والترع الرئيسية أيضاً وتحمي الأرض من طغيان ماء الفيضان والجسور العرضية وهذه امتدت بين الصحراء والنهر في مصر العليا ومن الشرق إلى الغرب في الدلتا. وكان الغرض منها حجز ماء الفيضان على الأرض كما أنها تفصل كل حوض عن الحوض الذي يليه من جهة الشمال والجنوب[1]. وكان من الحياض الصغير والكبير تراوحت مساحتها بين ٢٠٠٠-٥٠,٠٠٠ فدان. وأحياناً كانت الحيضان الرئيسية تقسم إلى أحواض أصغر خُصص بعضها لأنواع من الزراعات الصيفية التي تروى بالشادوف أو الساقية ويضرها أن تنغمر بماء الفيضان. أما الترع وهي العنصر الثاني في نظام ري الحياض فتحمل الماء من النهر وتنقله إلى الحياض وتتفرع الرئيسية منها إلى ترع فرعية

---

(1) Moret, A, (1927), p,33.

وثانوية تنتشر في الأرض حاملة لها الخصب والنماء. وكان ما يزيد عن حاجة الأرض من الماء يرجع إلى النهر ثانية بواسطة مصارف صغيرة في نهاية الأحواض. وقامت على الترع الرئيسية سدود عند فوهاتها وعدد من المنظمات عند التقائها بالجسور العرضية وأمكن بواسطة هذه المنظمات التحكم في ري الحياض[١]. وطوال التاريخ كانت الدلتا ولا زالت كثيرة الترع لاتساع رقعتها بينما كان الوادي لضيقه قليل القنوات[٢]. ولن ندخل هنا في دراسة تفصيلية لتطور ترع الدلتا والوادي ولا صفاتها. ويكفي هنا أن نقول إن الترع في مصر ظاهرة كثيرة التغير وذلك بسبب مرورها وسط أرض طينية ولكثرة مايحمله الماء من غرين يرسب على القاع خاصة في الأجزاء الدنيا منها. كانت ضفاف الترع كثيرة التغير كما كان قاعها يحتاج إلى تطهير كل عام وكان أي إهمال في هذه الناحية يؤدي بالترعة وخاصة في الدلتا إلى الاضمحلال والاختفاء في النهاية[٣]، وإلى نقص في مساحة الأرض المزروعة. فلا غرابة أن كانت وظيفة المشرف على حفر الترع وتطهيرها تُقلَّد لكبار رجال الدولة من حكام الأقاليم وأمراء الجند. فمنذ أقدم العصور كان "عزمر" أي المشرف على حفر الترع حاكم المدينة (في الدلتا) والمتصرف في شئون الري. وفي العهود اللاحقة وخاصة في العهد البطلمي كان حكام المقاطعات العسكريين لهم الإشراف على أمور الري. وتوجد معلومات كثيرة عن ترع مصر "وخلجانها" في العهد العربي[٤]. ومن دراستها يتبين أنها كانت كثيرة التغير غير أنها كانت دائماً تتخذ نفس الاتجاهات العامة أي تتمشى مع الانحدار العام للسطح. وكان مستوى قاع هذه القنوات ينخفض إلى مستوى ماء النهر وقت التحاريق لذلك كانت تجف بعد انتهاء الفيضان. وكان منها الترع الرئيسية التي

---

[١] انظر Barois, J. Irrigation in Egypt. Trans. A. Miiler. Washington, 1890, p. 22.

[٢] ابن مماتي – قوانين الدواوين – القاهرة ١٩٤٣ ص ٢٠٦.

[٣] راجع Rolfe, D. Op. cit: p. 164.

[٤] انظر مثلاً "كتاب قوانين الدواوين" طبعة القاهرة ١٩٤٣، وكتاب "تاريخ الفيوم" للنابلسي.

تمتد عشرات الكيلومترات والترع الصغيرة التي تغذي جهات الحوض. أما عملية ملء الحياض فكانت تبدأ بقطع سدود الطين التي تقام عند اتصال الترع الرئيسية بالنهر وذلك في الأسبوع الثاني من أغسطس في أعلى الصعيد ويتأخر هذا التاريخ كلما اتجهنا شمالاً (ذلك في سني الفيضانات العادية) ولا يحل الأسبوع الثالث من أكتوبر حتى تكون جميع حياض الدلتا قد مُلئت. وكانت العادة منذ أقدم العصور أن تقام سدود من الطين على المجاري الدنيا من فروع النيل وقت الفيضان للانتفاع بمياه النهر "الحمراء" في غمر أكبر مساحة ممكنة من أرض الدلتا.[١] ويندفع ماء الفيضان في الترع متجهاً إلى الشمال بصفة عامة متتبعاً انحدار الأرض العام. ونظراً لأن انحدار هذه الترع أبطأ من انحدار الأرض الزراعية فإن الماء يفيض على ضفافها لتمتلىء الحيضان وتتحكم المنظمات المقامة فوق الترع في تنظيم ري الحيضان المختلفة. وهكذا يتحول الوادي والدلتا إلى بحيرة هائلة مستطيلة تظهر فيها القرى والمدن على قمم أكوام مرتفعة تتصل فيما بينها بالقوارب وأحياناً بالطرق التي تمتد فوق الجسور[٢]. وبعد أن يمكث الماء على الأرض مدة كافية (تختلف من ٢٠ إلى ٥٠ يوماً) يكون مستوى ماء النهر في نفس الوقت قد انخفض فيبدأ صرف الماء إلى النيل في مصر العليا وإلى البحيرات وفروع النيل في الدلتا وإلى بحيرة قارون في منخفض الفيوم. ثم تسد فتحات أو فوهات الترع الرئيسية بالسدود الطينية من جديد وبمجرد انصراف الماء من الحياض يخرج الزراع إلى الأرض التي ارتوت وتجددت خصوبتها يحرثون باطنها ويبذرون بذور المحاصيل الشتوية وأهمها القمح والشعير والبرسيم والبقول. هذا عن الحياض التي تروى عادة بمياه الفيضان أما الأراضي العالية على جانبي النيل فلم يكن في الإمكان ريها بنظام الحياض إلا في القرن التاسع عشر حين شقت قنوات تأخذ من النهر من جهات بعيدة في جنوب الأحواض حتى

---

[١] راجع في هذا الموضوع Semple, E. Op. cit, p. 443, Wilkinson, J. Manners and Customs of the Ancient Eyptians. London 1891 p. 8 Moret, A. Op. cit., p. 33.

[٢] ابن مماتي "قوانين الدواوين" طبعة القاهرة، الباب الخامس.

يكون مستوى الماء أعلى مايكون عند بدايتها. ولكن من الثابت أن بعض هذه الأراضي العالية كانت تزرع قبل القرن التاسع عشر بالمحاصيل الصيفية كقصب السكر والذرة العويجة وأنواع الخضر وتروى بالشادوف والساقية والطنبور وغيرها من وسائل الري التي لازالت تستعمل حتى الآن.

وعملية ري الحياض هذه لم تكن سهلة ولم يكن في إمكان فرد أن يقوم بها وحده لذلك كانت تتطلب تضافر الجهود والتعاون والإشراف الدقيق من جانب الحكومة على الجسور والترع وتحديد مواعيد ملء الأحوال وتفريغها[1]. كانت الترع كما قلنا تحتاج دائماً إلى تطهير وكانت الجسور والمنظمات تحتاج إلى ترميم. لذلك كانت الحكومة رغبة منها في الخير المشترك ودرءاً للخطر المشترك تفرض على أهل الأقاليم المختلفة بعد انتهاء موسم الفيضان تطهير الترع وحفرها وترميم وتقوية الجسور تحت إشرافها. وعلى قدر اهتمام الحكومة بشئون الري وعلى الأخص حفر الترع وتطهيرها كان يتوقف مدى الاستفادة بمياه النيل في ري الجهات المختلفة وفي مقدار الإنتاج الزراعي وهو أهم إنتاج في مصر حتى الآن. وفي هذا يقول استرابون "إنهم (أي المصريون) يقهرون الطبيعة بالجد، ذلك أن الأرض عندهم تنتج بالطبيعة محصولاً أكبر مما تنتج سائر الأراضي، وهي تنتج أكثر من ذلك إذا ما رويت، والفيضان العالي للنهر يروي من الأرض مساحة أكبر. ولكن الجد كثيراً ما ينجح حيث تخفق الطبيعة، وحتى أنه ليروى من الأرض في الفيضان المنخفض مثل ما يروى منها في الفيضان المرتفع بواسطة الترع والجسور"[2] ويحدثنا المقريزي عن الخير الوفير الذى حل بإقليم البحيرة وبميناء الإسكندرية بعد إعادة حفر ترعة الإسكندرية في القرن الرابع عشر ويقول إنه "عندما أُعيد حفر قناة الإسكندرية استطاع الأهالي زراعة ما يقرب من ١٠٠ ألف فدان ونشأت ٤٠ قرية

---

(1) Rolfe, D. op. cit., p. 163.

(2) وهيب كامل – استرابون في مصر – للقاهرة ١٩٥٣ ص ٤٦.

جديدة وحملت المراكب الشراعية السلع والمنتجات إلى الإسكندرية واستطاع سكان المدينة الاعتماد في شربهم على ماء النيل بعد أن كان اعتمادهم على مياه المطر والصهاريج"[1]. إذن كان اهتمام الحكومة بشئون الري عاملاً أساسياً في تقدم الزراعة واستمرارها في مصر غير أن الحكومة كانت في نفس الوقت تقف عاجزة أمام أي فيضان للنيل يكون منخفضاً عن الحد الضروري.

وقد استخدم الفلاح المصري وسائل وآلات متنوعة يمكن وصفها بأنها أدوات بدائية إذا قورنت بالوسائل والآلات الزراعية الحديثة[2]. ولكنها من غير شك كانت أنسب الأدوات للزراعة المصرية ولظروف المجتمع والبيئة. أما الآن وبعد أن تغيرت أساليب الزراعة فمن الواجب تطوير هذه الأدوات واستخدام الآلات الحديثة. وقد استخدم الفلاح المصري الشادوف والساقية والطنبور لرفع الماء من النهر واستخدم لفلح الأرض وإعدادها المحراث والفأس. واستخدم المنجل في الحصاد واستخدم النورج والمذراة لفصل الحبوب من النباتات. والشادوف من وسائل رفع الماء القديمة عرفته مصر قبل أن تعرف الساقية والطنبور في العهد البطلمي[3]. وكان واسع الانتشار على ضفاف النيل لري مساحات صغيرة من الزراعات الصيفية وزراعات الخضر والبساتين. واستخدمت الساقية وهي إحدى الوسائل التي أدخلها البطالمة في مصر لرفع الماء من النهر والآبار لري مساحات أوسع من الأرض. وقد انتشرت بسرعة في وادي النيل وساهمت في توسيع الرقعة التي يمكن زراعتها صيفاً. ويحدثنا الرواة والكُتّاب أن جهات الفيوم امتازت بسواقيها الضخمة وبطواحينها التي تدور بقوة الماء. ولم ينتشر الطنبور

---

(1) المقريزي – الخطط – الجزء الأول ص ٢٧٧.

(2) راجع Audebeau, C. et Mosséri, V. Le Labourage en Ègypte. Bull. De l'inst. D'Egypt, 1916- pp. 83 – 127.

(3) Rostovtzeff, M, The Social and Economic History of the Hellenistic Worls. Oxford 1941, vol, I: p. 362.

كما انتشرت الساقية وذلك بسبب ما يستلزمه من جهد ومشقة في إدارته وما يحتاج إليه صنعه من مهارة لم تتوفر في كثير من الأحيان[١]وكانت الفأس كما هي الآن من أهم الأدوات التي استخدمت في إعداد الأرض وهي آلة قديمة قدم الزراعة المصرية. ظهرت في أول الأمر على شكل شعبة يحصل عليها بقطع فرعين متقابلين من فروع الأشجار[٢]. ثم تطورت فأصبحت مكونة من جزأين من الخشب: السلاح واليد. وآخر تحسين أدخل عليها كان في العصر البطلمي حين أصبح السلاح من الحديد. وقد ظلت الفأس ولا زالت تخدم عدة أغراض فهي تستعمل في تقليب التربة وحفر الترع وإقامة الجسور. ويرى بعض المهتمين بدراسة أصول الأشياء أن الفأس هي الأصل الذي تطور عنه المحراث المصري. وقد أدخل على هذه الوسيلة بعض التغيرات والتحسينات في بعض فترات التاريخ المصري ولكن أهم تحسين أدخل عليه كان في القرن الرابع قبل الميلاد أي في عهد البطالمة إذ أصبح سلاحه من الحديد بعد أن كان من الخشب[٣]. وقد أعطى الحديد للمحراث قوة على تقليب التربة وإعدادها أحسن إعداد. ولم تكن أرض الصعيد التي تزرع بالمحاصيل الشتوية تحتاج في كثير من الأحيان إلى حرث. كانت البذور تبذر على الأرض الرطبة ثم تخفى في التربة بكتلة من الخشب تجر على الأرض. هذا بخلاف الحال في الدلتا والفيوم فكان على الفلاح أن يحرث الأرض ويرويها خلال فصل الإنبات إذا لزم الأمر. وإذا كان إعداد الأرض للمحاصيل الشتوية في الوجه القبلي لم يستدع استخدام المحراث فإن حرث الأرض عدة مرات كان ضرورة لازمة للمحاصيل الصيفية وخاصة قصب السكر سواء كان ذلك في أرض الدلتا أم الصعيد. ويأتي بعد حرث الأرض عملية التسوية (التزحيف) وكان الغرض منها تغطية البذور وتسوية الأرض لسهولة ريها إذا دعت الحاجة. وبعد نضج المحصول كانت المحاصيل الشتوية كالقمح والشعير والفول والبرسيم والكتان تقطع من جذورها باليد أو المنجل. ولو أن الصور على المعابد والمقابر

---

(١) Ibid., p, 353.
(٢) Petrie, P. Wisdom of the Egyptians. London 1940, vol. LXIII, p, 135.
(٣) Rostovtzeff, M, op, cit., p, vol, I, p, 352.

تشير إلى أن الفلاح المصري القديم كان يكتفي بقطع الأطراف العليا من عيدان القمح والشعير. وقد أدخل تحسين على المنجل في العهد البطلمي الذي انتشر فيه استعمال الحديد فبعد أن كان عبارة عن قطعة من الخشب لها أسنان من قطع الصوان المدببة أصبح من الحديد له حد مسنن. وخلال فترة طويلة من التاريخ المصري كانت العادة في كثير من جهات القطر أن تستخدم الحيوانات كالبقر والحمير في دراس المحصول بجعلها تدور في دائرة وعيدان الشعير أو الفول تحت حوافرها. وهناك صور كثيرة على المعابد المصرية تصور هذه العملية[١]. وقد عرف المصريون القدماء أيضاً النورج ولكن قواطعه كانت من الصوان ثم استبدلت بالحديد بعد أن شاع استعمال الحديد في العهد البطلمي[٢]. وبعد أن تفصل الحبوب من سنابلها كانت تذرى في الهواء بالمذراة فتنفصل الحبوب عن التبن.

وينقلنا الحديث عن وسائل الري والأدوات الزراعية إلى الزراعة. وكما قلنا فيما سبق كانت مساحة الأرض التي تحتلها المحاصيل الشتوية تختلف من سنة إلى أخرى تبعاً لمستوى مياه النهر وقت الفيضان. ولكن من ناحية أخرى أصاب أرض الفيوم في العصر الروماني اضمحلال وانكماش بعد ازدهار واتساع في العهد البطلمي. كما أصاب أرض شمال الدلتا البوار في العصور الوسطى. ويقدر متوسط مساحة الأرض المزروعة في العهد الفرعوني والبطلمي والروماني وأوائل العربي بأكثر من ٥.٥ مليون فدان وبحوالي ٤.٥ مليون فدان في بعض الفترات خلال العهد العربي وبأقل من ذلك في العهد العثماني. ومن المؤسف أنه ليس في استطاعتنا معرفة المساحة المنزرعة من كل غلة ولا تحديد توزيعها بدقة لذلك سيكون حديثنا من هذه الناحية حديثاً عاماً.

---

(١) Wilkinson (1891) op, cit., p. 88.

(٢) Smith, F. "The Egyptian "Noreg" and its origin" Bull, de la soc.Sul, de geog. T. X 1921. pp, 251:259.

زرع الفلاح المصري المحاصيل الشتوية كما عرف المحاصيل الصيفية ولكن أهم محاصيل كانت حتى القرن التاسع عشر هي المحاصيل الشتوية وتتمثل في القمح والشعير والفول والعدس والبرسيم والكتان. كانت المحاصيل تزرع بعد تفريغ المياه من الحياض وتحصد في أوائل الصيف في الدلتا وفي أواخر الربيع في الصعيد. ولعل أروع وصف لمصر وهي مغمورة تحت ماء الفيضان ثم وهي مكسوة ببساط مشرق من الزرع الشتوي ما جاء في رسالة عمرو بن العاص المشهورة إلى عمر بن الخطاب: "فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة قشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء"[١] وتختلف زراعة هذه المحاصيل عن زراعة المحاصيل الصيفية في سهولتها وقلة تكاليفها فزراعة القمح في أراضي الصعيد مثلاً لم تكن تستدعى من الفلاح غير بذر البذور على الأرض الرطبة ودفنها في التربة بواسطة كتلة من الخشب تجرها الحيوانات على الأرض ثم ينتظر بضعة أشهر ليجني المحصول. والعامل الرئيسي الذي كان يحدد مساحة المحاصيل الشتوية هو مستوى الفيضان. ومهما كان الأمر فإنه يعتقد أن القمح والشعير خلال العصور التاريخية كانا يشغلان ثلثي مساحة الأرض وتشغل بقية المحاصيل الشتوية والبساتين الجزء الباقي. أما المحاصيل الصيفية فكانت أهمها الذرة العويجة والقطن والسمسم والنيلة وذلك طوال العهد الفرعوني والبطلمي والروماني. أما في العهد العربي فقد زرعت مصر إلى جانب أنواع الذرة الرفيعة والنيلة قصب السكر على ضفاف النيل في الصعيد وعلى ضفاف القنوات في الفيوم والأرز في شمال الدلتا والفيوم أيضاً[٢]. وقد اشتهر إقليم الفيوم طوال التاريخ بوفرة إنتاجه وذلك لتوفر الماء في الصيف والشتاء. فبحر يوسف الذي يتفرع إلى قنوات في الإقليم كان دائم الجريان، كان يحمل ماء الفيضان في الصيف ويحمل ماء الرشح

---

[١] راجع أبو المحاسن – النجوم الزاهرة – القاهرة ١٩٢٩ جزء ٢ ص ٣٢-٣٣.

[٢] هناك من المؤرخين من يرى أن قصب السكر والأرز والقطن محاصيل صيفية دخلت مصر في أيام الدولة البيزنطية، منهم. (J, Milne. A, History of Egypt, p. 358)

من جوانبه ومن النيل في الشتاء ثم تحجز هذه المياه أمام سد للانتفاع بها في ري المحاصيل الصيفية. ونظراً لانتشار الزراعات الصيفية في الفيوم فإنه يعتبر الإقليم الوحيد في مصر الذي عرف دورة زراعية ثنائية وأحياناً ثلاثية.

هذه المحاصيل الصيفية تختلف عن الشتوية في أنها كانت أقل انتشاراً وتتطلب تكاليف باهظة بسبب حاجتها إلى الري المتكرر والتسميد والإعداد الجيد لذلك كانت وقفاً على الموسرين يزرعونها كمحاصيل نقدية. ولا يمكننا تقدير المساحة التي كانت تزرع بالمحاصيل بشيء من الدقة في فترات التاريخ المختلفة ولكن تحت أيدينا إحصائية ترجع إلى القرن الثامن عشر ذلك القرن الذي انكمشت فيه الرقعة الزراعية كثيراً. تشير الإحصائية إلى أن نسبة مساحة الأرض التي تشغلها المحاصيل الصيفية كانت تبلغ ١٢% في الوجه القبلي، ٢٥% في الوجه البحري. وإذا علمنا أن هذا القرن كان عهد فوضى واضطراب وإهمال لشئون الري فإن المساحة التي كانت تشغلها هذه المحاصيل في فترات الازدهار قبل ذلك كانت أوسع من ذلك بكثير.

وطوال العهد الفرعوني حتى سنة ٥٠٠ ق.م تقريباً كانت مصر تزرع نوعاً من القمح من مجموعة Emmer ويمتاز بالتصاق القشرة على الحبة وصعوبة فصلهما. وقد عمل البطالمة والرومان على إحلال أنواع القمح الحالية محل النوع القديم الذي اختفى تماماً في بدء التاريخ الميلادي[١]. وإذا كان القمح قد تغير نوعه خلال التاريخ فإن مركزه بالنسبة للحبوب وخاصة الشعير قد تغير كذلك فقبل سنة ٥٠٠ ق.م كان للشعير المكان الأول في الانتاج والاستهلاك ثم تحول الاهتمام إلى القمح بعد هذا التاريخ واحتل المكان الأول بالتدريج[٢]. ومن دراسة الوثائق التاريخية يتبين أن اهتمام البطالمة بزراعة القمح وزيادة إنتاجه كان عظيماً. فإحدى برديات "زينون"Zenon التي ترجع إلى القرن الثالث

---

(١) Jasny N; The Wheats of Classical Antiquity. Baltimore 1944, p, 131.
(٢) Ibid.

قبل الميلاد تكشف عن الأمر الذي أعلنه بطليموس فيلادلفوس بزراعة الأرض بمحصولين من القمح في السنة. تقول البردية : "تحية إلى زينون.. لقد أمرنا الملك أن نبذر الأرض مرتين. فعندما تحصد المحصول الأول، أسرع بري الأرض... بآلات الرفع ولكن لا تترك الماء على الأرض أكثر من خمسة أيام. وعندما تجف الأرض أبذر القمح الذي يمكث فيها ثلاثة أشهر"[١]. وفي العهد العربي كان خبز القمح هو الغذاء الرئيسي للسكان فيما عدا الأقاليم الجنوبية الفقيرة في الصعيد فهذه كانت تعتمد في غذائها على الدخن والذرة والعويجة. وباستثناء الأراضي الملحية في شمال الدلتا والأراضي الفقيرة في مصر العليا كانت زراعة القمح واسعة الانتشار في وادي النيل والدلتا. وقد اشتهرت مصر الوسطى بقمحها الممتار الخالي من كثير من الشوائب. لذلك كانت أراض واسعة منها وعلى الأخص بإقليم أسيوط ضمن أملاك السلطان الخاصة. هذا بخلاف الحال في الدلتا فقمحها كان كثير الشوائب بسبب ما ينمو في الحقول من نباتات طفيلية كثيرة كما كان إنتاج الفدان أقل، (خصوصاً في الشمال) مقارنة بإنتاج الفدان في مصر الوسطى.

أما مواعيد الزراعة وطرقها وطريقة الحصاد فلم تكن تختلف عما هي عليه الآن في حياض الوجه القبلي. وقد احتل الشعير المكان الثاني بعد القمح منذ العهد البطلمي وكان يستعمل غذاء للإنسان والحيوان وفي صناعة الجعة. ونظراً لقدرة هذا النبات على النمو في التربة الضعيفة واحتماله قلة الماء، فإنه كان أوسع انتشاراً من القمح. كان ينتشر في مصر من أقصى الشمال (بما في ذلك الشريط الساحلي المطل على ساحل البحر المتوسط في شمال سيناء والصحراء الغربية). إلى أقصى جنوب الوادي. ولكن غلة الفدان كانت تتوقف عن نوع التربة وكمية الماء التي تصيب الأرض. وكانت أعلى غلة لفدان الشعير في مصر العليا في المنطقة بين إدفو والقاهرة حيث كان المحصول يكتفي

---

[١] Johannesen, R. Ptolemy Philadelphus and Scientific Agriculture. Cass. Phil. vol, XVIII; 1923.p; 156.

بمياه الفيضان. أما في الدلتا فكان المحصول يروى أحياناً وكانت غلة الفدان أقل خصوصاً في شمالها. وكان هناك في مصر ولا يزال شعير يزرع على ماء المطر في منطقة بلطيم وعلى طول ساحل البحر المتوسط ولكن غلة الفدان كانت تتوقف على كمية المطر.

ومن المحاصيل الشتوية التي كانت تُزرع البرسيم والفول والكتان، وقد دخل الفول مصر من قديم وربما كان ذلك في عهد الأسرة الثانية عشرة (بين ١٧٨٨-٢٠٠٠ ق.م) واحتل مكانة ممتازة عند المصريين القدماء باعتراف بتري Petrie الأثري المشهور[1]. وفي العهد العربي كان أيضاً يحتل مكانة بين النباتات التي تجدد التربة وتعيد خصوبتها بعد زراعتها بالقمح أو الشعير أو الكتان. وقد اشتهرت مديريات جرجا وأسيوط والمنيا بإنتاج أحسن أنواع الفول. فهناك تساعد ظروف التربة والمناخ ووفرة الماء على إنتاج أنواع ممتازة. ويحدثنا المقريزي أن المخازن السلطانية في القاهرة كانت تستمد معظم مخزونها من الفول من منطقة منفلوط (مديرية أسيوط) ويظهر أن الإنتاج كان وفيراً في هذه المنطقة ففي سنة ١٤٣٧م مثلاً بلغ ما أهلكته الفئران من الفول ٦٠ ألف أردب. ولم تشتهر الدلتا بفولها لاختلاف المناخ والتربة ولازال الأمر كذلك حتى اليوم. فهناك الفول الصعيدي الممتاز والفول البحيري الأقل جودة ويخصص الأخير عادة لاستهلاك الحيوان. وقد احتل البرسيم مكانة خاصة بين نباتات العلف وذلك في أواخر العهد الروماني وظل كذلك حتى الآن. وفيما عدا الأراضي المالحة كان البرسيم يزرع على نطاق واسع في الدلتا حيث كان يروى بالآلات رياً سهلاً ميسوراً. وإذا تركنا الدلتا إلى مصر الوسطى نجد أن زراعته تبدأ في القلة وتختفى تماماً قرب بلدة فرشوط (محافظة قنا) ويحل محله نباتات أخرى مثل الحلبة والفول. وإلى جانب فائدة البرسيم كعلف أخضر

---

[1] يختلف ذلك مع قول هيرودوت أن المصريين كانوا يأنفون من أكل الفول ويقدمونه للحيوانات.

للحيوان فإن الفلاح المصري عرف فائدته في تجديد خصب التربة. لذلك كان يزرعه بعد المحاصيل المجهدة للتربة كالحبوب والكتان.

وقد اشتهرت مصر طوال التاريخ بكتانها وبمنسوجاتها الكتانية ولم تفقد هذه المكانة إلا بعد أن انتشرت زراعة القطن. وكانت أشهر مناطق زراعته في مصر في محافظات الجيزة وبني سويف والفيوم والمنيا وأسيوط. وفي العهد العربي كانت الجهات المحيطة ببلدة دلاص (محافظة بني سويف) والبهنسا (محافظة المنيا) وأسيوط من مراكز الإنتاج المهمة في مصر. كانت ترسله إلى مدن مصر كما كان يصدر إلى شمال أفريقيا. أما مراكز إنتاجه في الدلتا فكانت الأراضي المحيطة بالمحلة الكبرى وإبيار وسنباط (محافظة الغربية) ومن ثم يرسل الكتان بعد تعطينه وإعداده إلى المدن الساحلية مثل تنيس والإسكندرية ودمياط لغزله ونسجه. وجرت العادة أن تُسمَّد أرض زراعة الكتان إما بالطفل أو بالسماد البلدي كما كان يحتاج إلى ري في الدلتا.

أما المحاصيل الصيفية فكانت أقل انتشاراً ويقوم بزراعتها خاصة الناس لكثرة نفقتها وعدم قدرة الفلاح العادي على القيام بها. كانت في ريها تعتمد على الماء المرفوع من النهر وفروعه ومن القنوات أحياناً وأيضاً على الماء الباطني من الآبار. وكان تنوع التربة وكمية المياه وعناصر المناخ خصوصاً الحرارة تحدد مناطق توزيع هذه الغلات. فكانت زراعة قصب السكر تتركز في مصر الوسطى في جهات البلينا وأخميم وأسيوط والفيوم. وكان الأرز يزرع في الأراضي المالحة فى شمال الدلتا والفيوم حيث يتوفر الماء. وكانت النيلة تزرع فى أراضى محافظتي الجيزة وبني سويف بينما كانت زراعة القطن تقتصر على الجزء الأعلى من وادي النيل وجهات متفرقة في الدلتا والفيوم. وقد أدخل العرب زراعة قصب السكر في مصر كما أدخلوا زراعة الأرز أيضاً. وقد قامت على زراعة القصب صناعة مهمة هي صناعة السكر. وكانت تنتج للاستهلاك المحلي وأحياناً توفر فائضاً للتصدير خصوصاً في عهد الأيوبيين(١١٧١-١٢٥٠م) الذين اهتموا بزراعته في

الفيوم. وكما اشتهرت الفيوم بزراعة القصب في عهد الأيوبيين فإن أرضها المالحة قرب بحيرة قارون كانت صالحة لإنتاج وافر من الأرز. ولكن زراعته في هذه المنطقة قلت بعض الشيء نتيجة لاهتمام الأيوبيين بنشر زراعة القصب على حساب المحاصيل الصيفية الأخرى. وهناك إلى جانب الفيوم كانت أراضي شمال الدلتا مناطق مهمة لإنتاج الأرز خصوصاً حول دمياط ورشيد[1]. ومن هذين الميناءين النهريين كانت السفن في أواخر العهد العربي وفي العهد العثماني تبحر محملة بالأرز إلى موانى سوريا وآسيا الصغرى. وقد ترك لنا علماء الحملة الفرنسية معلومات قيمة عن أحوال الزراعة في ظل الحكم العثماني ومن دراستها يتبين أن أنواع المحاصيل الحقلية وطرق الزراعة ووسائلها لم تتغير كثيرًا عما كانت عليه الحال في العهود السابقة[2] ولو أن مساحة الرقعة الزراعية انكمشت كثيراً كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

تلك كانت أهم محاصيل مصر الحقلية طوال فترات التاريخ. أما المحاصيل الشجرية ونباتات الزينة والخضروات فكانت تزرع في البساتين وخارج البساتين. وقد كان المنتزه والبستان منذ أقدم عصور التاريخ المصري بهجة السادة والحكام. كما كان حب الورد والزهر والنباتات المخضرة المورقة في قلوب عامة الشعب وتفصح عن هذا الحب تلك الآثار التي تركها قدماء المصريين فكلها مزدانه بزخارف تمثل الزهور والأوراق وفي نقوشهم ومصوراتهم ترى باقات الزهر تقدم إلى الآلهة وتكلل التوابيت وترى النباتات الغريبة تقدم هدية إلى فرعون من بعوث البلاد الأجنبية. أما الخضر فكانت ولا زالت تستهلك بكميات كبيرة. فقد سجل هيرودوت أن العمال الذين استخدمهم خوفو في بناء هرمه الأكبر استهلكوا إلى جانب الخبز كميات هائلة من الفجل والبصل والكراث[٣] ويبدو

---

(1) يُرَجَّح أن كلمة Rosetta وهي اسم رشيد بالإنجليزية مأخوذة من كلمة Rice أي الأرز.

(2) راجع Delile, A. “Histoire de plantes cultivées en Ègypte” in La Desenption De l’Egypte Hist., National T ; If, 1813, chap., I.

(٣) Herodotuc.Op, cit, p. 152.

أن البساتين التي أحاطت بقصور النبلاء ومنازلهم الصيفية كانت عظيمة الاتساع تُسقى إما من الآبار أو من صهاريج تخزن الماء أو من ترعة تحمل ماء النيل ويقوم على خدمتها والعناية بها وتهذيب أشجارها نفر كبير من الرقيق. وتظهر صور البساتين في كثير من مقابر طيبة وبني حسن وعلى آثار أخرى منتشرة في جهات وادي النيل. وإن دل ذلك على شيء فعلى مبلغ اهتمام المصريين بالأشجار والزهور وعلى سعة انتشارها في أنحاء البلاد. وتكشف الصور عن بعض التفاصيل فيما يتصل بتنظيم الحديقة وأنواع الأشجار بها وطريقة ريها فنرى على أحد مقابر الأسرة الثامنة عشرة قصر النبيل يختفي تماماً وراء بستان عظيم يحيط به سور عال. والبستان مقسم إلى أقسام، قسم للكروم بعناقيدها الكبيرة المتدلية وقسم لنزهة صاحب البستان يضم بركة كبيرة مستطيلة تحف بها أشجار النخيل وأشجار أخرى قصيرة وقسم تنمو فيه الأشجار النادرة ورابع خاص بالنخيل[1]. وفي صورة أخرى ترجع إلى نفس الفترة كتب صاحب البستان يفاخر بسعة وجمال بستانه وكثرة أشجاره، متمنياً أن يسعى بعد موته في حديقته "ليَستَروِّح النسيم تحت أشجار الجميز ولينعم بالنظر إلى أشجارها الجميلة العظيمة". وتحكي بردية ترجع إلى أيام رمسيس الثالث إنه زرع في طيبة أشجارا كثيرة وأنشأ أحواضاً للزهور وخطط في منشأته الجديدة في الدلتا "حدائق عظيمة وأماكن للنزهة بها جميع أنواع أشجار الفاكهة الحلوة المثقلة بثمارها وطريقاً مقدساً كان يتألق بالأزاهير من جميع الأقطار...". وقبل ذلك بثلاثة قرون استحضرت حتشبسوت من بلاد بنت "إحدى وثلاثين شجرة بخور، وجلب تحتمس الثالث بعد انتصاراته في آسيا عددًا وافرًا من النباتات الأجنبية خلدت صورها على جدران معبد الاحتفالات بالكرنك. وكانت البساتين الكبيرة كما هو واضح من صورها على جدران المقابر والمعابد تحوطها الأسوار ومقسمة إلى أقسام وأحواض للزهور. ولعل أهم تلك الأقسام هي التي كانت مخصصة لأشجار النخيل

---

[1] إرمان ورانكة – مصر والحياة المصرية في العصور القديمة – ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص ١٩٠.

والجميز والكروم. وأمام المدخل الرئيسي الذي كان يحمل اسم صاحب القصر كانت تجري قناة تأخذ من النهر يفصلها عن السور خط من الأشجار.

وقد وجه المصري القديم اهتماماً خاصاً إلى زراعة الكروم التي انتشرت على ما يبدو في التربات الخفيفة القريبة من الصحراء. وكان من أشجار الكروم ما تُرفع فروعه على عروش من الغاب أو فروع الشجر وأخرى تترك لتمتد فروعها على الأرض. وصنع من الكروم بعد عصرها أنواعاً مختلفة من النبيذ كان يشربها خاصة الناس بينما شرب العامة الجعة المصنوعة من الشعير. وكانت أشجار النخيل واسعة الانتشار كما هي الحال الآن في جنوب الصعيد. وقد انتفع المصريون القدماء بثمارها في غذائهم واستخدموا جذوعها وأوراقها وأليافها في أغراض شتى. كذلك انتشرت في جنوب الصعيد أشجار الدوم وانتفع بثمارها وأجزائها في كثير من الأغراض، ومن الأشجار الأخرى التي عرفتها مصر القديمة وانتفع أهلها بثمارها وأخشابها: أشجار التين، والرمان والزيتون واللوز والجميز والبندق والسدر والسنط واللبخ والأثل، وأشجار بادت لا توجد الآن إلا في الصحراء أو في جنوب الحبشة[1]. إلى جانب المحاصيل الشجرية هذه كانت تقوم زراعة الخضروات من فجل وكراث وجزر وبصل في مساحات صغيرة من الحقول وفي الحدائق المنزلية.

وقد شجع البطالمة زراعة الكروم والزيتون وخاصة في الفيوم وفي إقليمي طيبة والإسكندرية. وقام على زراعتها بصفة عامة المستوطنون الإغريق[2]. وأدخل الحكام الأوائل من البطالمة أنواعاً أجنبية من الكروم والتين والرمان والمشمش وشجعوا

---

(1) Carruthers, W. "Plants of Ancient Egypt" Nature, sep 1886, pp. 445-51.
راجع كذلك De Candolle, Alpha. L'Origine des plantes cultiveés. Paris 1883, pp. 145-270.

(2) Rostovtzeff, M. A Large Estate in Egypt in the 5rd Century B.C. Madison 1922, p. 93.

الفلاحين على زراعة الأشجار الخشبية، وخاصة على الجسور لتثبيتها وللاستفادة منها في صناعة القوارب والأدوات الزراعية[١]. ويحدثنا المؤرخون أن الاهتمام كان موجهاً في العصر الروماني لزراعة القمح لتموين روما وبيزنطة بما يلزمهما من هذه الغلة. وقد قام أهل البلاد بزراعة المحاصيل الحقلية، بينما اتجه المستوطنون كما حدث في العهد البطلمي إلى زراعة المحاصيل الشجرية وخاصة الكروم والزيتون ولكن على مجال أضيق مما كان عليه الحال قبل حكم الرومان[٢]. وقد اشتهر إقليم مريوط بكرومه ونبيذه (امتدحه استرابون)[٣]، واشتهر إقليما الفيوم والإسكندرية بزراعة أشجار الزيتون. وفي هذا يقول استرابون عن الفيوم إنه "ينبت الزيتون في أشجار ضخمة نامية ذات ثمار بديعة، ولو جمعت ثماره على وجه حسن لأخرج زيتاً طيباً ورغم قلة العناية بهذا الأمر فإنهم يخرجون زيتاً كثيراً، ولكنه كريه الرائحة. أما سائر مصر فخال من شجر الزيتون فيما عدا الحدائق حول الإسكندرية فهي صالحة لإنبات الزيتون ولكنها لا تخرج الزيت[٤]".

ولم يكن العرب أقل اهتماماً من البطالمة من حيث إنشاء البساتين وغرس الغروس ولو أن زراعة الكروم اضمحلت بعد دخولهم مصر بسبب تحريم الدين الاسلامي شرب الخمور. وتحوى مؤلفات الكتّاب العرب في العصور الوسطى معلومات كثيرة مبعثرة عن فواكه مصر وأشجارها وبساتينها، ومنها يتبين أن أوسع الأشجار انتشاراً كانت أشجار النخيل والجميز، ثم أشجار الدوم في جنوب الوادي. وفي البساتين التي انتشرت حول المدن، وخاصة القاهرة والإسكندرية، وفي إقليم الفيوم (بستان مصر) غرست طائفة كبيرة من أشجار الفاكهة والأشجار الخشبية، فضلاً عن نباتات الزينة

---

[١] إبراهيم نصحي - تاريخ مصر في عهد البطالمة جزء ٢ ص ٥٢٤ - ٥٣٣.

[٢] Milne, J. History of Egypt – Under Roman Rule. London 1924, P. 255.

[٣] وهيب كامل – استرابون في مصر – ص ٧٤.

[٤] المرجع نفسه، ص ٩٧ - ٩٨.

والنباتات العطرية والطبية[١]. وقد اهتم الفاطميون أعظم اهتمام بإنشاء البساتين وتنسيقها وغرسها بكل نادر من النباتات والأشجار المثمرة وغير المثمرة. وكان أكبر بساتينهم هو بستان الجيوشي الذي امتد من باب الفتوح حتى المطرية، وعمل فيه من المشرفين ما يزيد على الألف، وقامت عدة مئات من الثيران والجمال بإدارة السواقي لريه[٢]. وفضل العرب على زراعة أشجار الفاكهة والأشجار الخشبية في مصر كبير. فقد أدخلوا أنواعاً جديدة من الفواكه لم تُعرف من قبل، أهمها البرقوق والموز ومختلف الموالح[٣]. وبذل الأيوبيون جهوداً صادقة في "تحريج" مساحات شاسعة بلغت نحو ٣٠ ألف فدان بمختلف الأشجار الخشبية، وخاصة السنط والإثل للانتفاع بأخشابها في بناء أسطول يحمي البلاد من هجمات الصليبيين. وكانت أهم مناطق "الحراج" قرب سفط رشين ومتبال وأسطال والأشمونين وأخميم وقوص، وفي شمال القاهرة في نواحي طنان وناي[٤]. ولكن ما لبثت هذه الأحراج أن أهملت وآلت إلى الزوال في أواخر حكم المماليك. كذلك فقدت ضواحي المدن المصرية وخاصة القاهرة والإسكندرية ودمياط كثيراً من بهجتها في العهد التركي بسبب ما أصاب بساتينها وغروسها من اضمحلال واندثار. وعندما غزا نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر كانت ندرة الأشجار من أهم ما استرعى علماء حملته.

---

[١] من النباتات الطبية التي كانت تزرعها مصر البلسم، وكان دهنه يهدى للملوك (من المقريزي - جزء أول – ص ٣٦٨).

[٢] المقريزي – الخطط – جزء أول – ص٣٠٥.

[٣] Schweinforth, M. “Sur la flore des anciens jardins Arabs.”Bull Inst. Egy.2ieme Serie.Cairo 1881, pp 305-10.

[٤] ابن مماتي – قوانين الدواوين – ص ٣٤٤.

الفصل السابع :

تجارة مصر الخارجية

العلاقات التجارية بين مصر وجيرانها علاقات قديمة، أقدم من التاريخ المكتوب. فقد أنشأت مصر علاقات تجارية مع بعض بلاد الشرق الأدنى وبلاد النوبة في عصر ما قبل الأسرات، وخاصة في الجزء الأخير منه. ولكنها كانت على ما يبدو علاقات ضعيفة محدودة. وبزغ التاريخ فوجد مصر وقد أصبحت موطن حضارة زراعية نامية في قلب العالم المعمور يفيض إنتاج أرضها عن حاجة سكانها في أغلب السنين وينسج صناعها الكتان ويصنعون الحلى والأسلحة والجلود والأواني الجميلة ويعمل سادتها وكهنتها على استكمال أسباب الترف وإقامة الشعائر باستيراد المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والبخور وأنواع الطيب وسائر مطالب الدنيا والدين. لكل ذلك لم يكن غريباً أن تعزز مصر الفرعونية وخاصة في الدولة الحديثة أواصر صلاتها التجارية مع العالم المجاور والبعيد، مستغلة في ذلك موقعها الجغرافي وإمكانياتها المادية والبشرية، بل لقد بلغت التجارة الخارجية في تلك الفترة أهمية لم تبلغها التجارة الداخلية في حياة مصر الاقتصادية[1]. ومع التجارة والاتصال بأصحاب الحضارات في الشرق الأدنى دخلت المؤثرات الحضارية الأجنبية إلى وادي النيل. وفي نفس الوقت خرجت من مصر إشعاعات الحضارة المصرية الأصلية وخاصة إلى بلاد النوبة وبلاد الشام وجزر البحر المتوسط[2].

كانت بلاد النوبة – رغم وجود الجنادل في النهر – أسهل البلاد التي يمكن الوصول إليها من مصر. قامت على الحدود بينها وبين مصر مدينة آبو التي سبق الإشارة إليها، ثم سِينِ (أسوان) في عصر متأخر كسوق يتبادل فيه تجار مصر والنوبة السلع والمنافع. ومن بين ما كان يعرض الذهب والأحجار الكريمة والعاج وريش النعام وبيضه

---

[1] إرمان ورانكة – ص ٥٧١.

[2] Peake and Fleure.Times and Places.P. 129.

والطيب وجلد الفهود والقردة والماشية[1]. وقد خضعت بلاد النوبة من الشلال الأول حتى الرابع لمصر فترات طويلة من التاريخ (إبان عهد الدولة الحديثة مثلاً) وحكمها ولاة من قِبل الفراعنة كان الواحد منهم يلقب "بالابن الملكي لبلاد النوبة والقيّم على البلاد الجنوبية". وقلد النوبيون أهل مصر في ملابسهم وفنهم وكتابتهم، وفي عبادتهم أيضاً. وعلى الرغم من كل ذلك فلم تعتبر بلاد النوبة جزءاً أساسياً من المملكه المصرية. ومن ناحية أخرى يمكن القول إن شعب النوبة القديم هو الشعب الوحيد المتخلف الذي تحضر على أيدي المصريين، إذ لم يتفق ذلك لبدو الصحراء، الذين احتك بهم المصريون ولا لأهل "بنت".

وكانت بلاد بنت[2] أو "الأرض المقدسة" من البلاد التي أنشأت مصر الفرعونية معها علاقات تجارية قويت أحياناً وضعفت أحياناً أخرى. وقد سبق أن أشرنا إلى طرق التجارة بين مصر وبلاد بنت ونضيف هنا أنه عندما كانت العاصمة هي منف (في عهد الدولة القديمة) كان الطريق إلى البحر الأحمر يبدأ من العاصمة مباشرة متجهاً نحو منطقة السويس الحالية، حيث كانت تُبنى السفن التي تقطع البحر الأحمر كله إلى الجنوب وتعود من نفس الطريق في وجه الريح وهو عمل لم يكن هينا في ذلك العصر. ولكن منذ قيام الأسرة الحادية عشرة التي اختارت طيبة مقراً لملكها اتخذت البعثات التجارية طريق وادي الحمامات إلى تلك الأرض المقدسة. وقد ورد ذكر لرحلات تجارية إلى بلاد بنت في نصوص الدولة القديمة وخاصة منذ عهد ساحورع (حوالي ٢٤٧٠ ق.م.) غير أن التقارير المفصلة عن هذه الرحلات بدأت تترى منذ قيام الأسرة الحادية عشرة (حوالي ٢١٦٠ ق.م.). إذ يحدثنا "حنو" - رئيس بيت المال المسمى "سعنخ كارع" - عن

---

[1] بعض هذه السلع مثل المر والطيب وخشب الأبنوس كان يجلبه وسطاء من السودان وبلاد بنت (عن Breasted ص ١٣٧).

[2] ربما كانت بلاد بنت هي بلاد الصومال الحالية أو بلاد العرب السعيدة (عن Peake and Fleure p. 129).

رحلته إلى بلاد بنت، فيقول: "بعثني جلالته لأجهز سفن ببلوس[1] إلى بنت لجلب بخور جديد... وقد خرجت من قفط... ووصلت البحر (الأحمر) وصنعت هذه السفينة وجهزتها بكل شيء وزودتها بعدد وافر من الماشية والثيران والغزلان. وعندما رجعت من البحر قمت بما أمرني به الملك وجلبت له كل المنتجات التي وجدتها في نواحي الأرض المقدسة".

وقصة "الملاح الغريق" التي حفظت لنا على إحدى برديات الدولة الوسطى تُصوِّر ما تخيله الشعب المصري عن بلاد البخور. وما كان يسعى الملوك للحصول عليه منها، فهي تتحدث بطريقة خرافية عن ملاح نجا وحده من سفينة مصرية طولها ٤٠ ذرعاً وتحمل ١٢٠ ملاحاً حطمتها موجة هائلة، ثم ألقت بالملاح على جزيرة في عرض البحر تبعد عن طيبة سفر شهرين. وكانت تسكن الجزيرة حية عظيمة تمتلك كل ما هناك من توابل وحيوانات وأخشاب. وبعد أن كاد الملاح يفقد الأمل في العودة إلى مصر أنبأته الحية بأنه سيرجع إلى وطنه وسيرى أولاده وزودته قبل أن يرجع بملء سفينة "من المر وزيت حكن... ومن خشب تشبس وشعاس ومن أصباغ الوجه وكراث كبيرة من البخور ومن أنياب الفيلة وكلاب الصيد وقردة ذات ذيول طويلة... وسائر الأشياء الثمينة"[2].

هذه الصورة الخيالية عن بلاد البخور تبددت في الدولة الحديثة. فقد أمرت الملكة حتشبسوت بعد رجوع حملة أرسلتها إلى بلاد بنت في عام ١٤٩٥ ق.م. أن يصور سكانها وقراها ونباتاتها وحيواناتها والسفن التي أرسلت على جدران معبدها المعروف بالدير البحري حتى يتعرف الشعب على الحياة في تلك الأرض المقدسة. كل شيء في هذه

---

[1] ربما يعني السفن التي كانت تستخدم في السفر إلى ببلوس في لبنان أو السفن المصنوعة من خشب ببلوس.

ملاحظة من المراجع: غالبا ما يقصد ببلاد العرب السعيدة "اليمن، أما ببليوس فالأرجح أنها "جبيل" في شمال بيروت حاليا.

[2] إرمان ورانكه ص ٥٨٤.

الصور والنقوش يبدو غريباً بالنسبة لساكن وادي النيل، النباتات والحيوانات وملابس الناس وأشكالهم. أما السفن التي أُرسلت فخمس كبيرة - يُحرك الواحدة منها ٣٠ مجدافاً وشراع ضخم - شحنت بمختلف أشياء مصر الطيبة من نبيذ وجعة ولحم وفاكهة وخبز وبكثير من السلع التي يقبل عليها أهل بنت من خناجر وفؤوس للقتال وقلائد مختلفة الألوان. وتمت المقايضة ورجعت السفن إلى طيبة محملة إلى ارتفاع كبير بأكوام من صمغ المر وأشجار المر الخضراء وخشب الأبنوس والعاج والذهب والأخشاب ذات الرائحة الزكية وأنواع البخور وأصباغ للعيون، والقردة وكلاب الصيد وجلود الفهود والرقيق. وبعد ذلك بثلاثة قرون أرسل رمسيس الثالث (١١٩٨-١١٦٧ ق.م.) أسطولاً كبيراً إلى البحر العظيم ليجلب بعضاً من ثروات بنت وكان من أهم ما حملته السفن في عودتها أشجار البخور الخضراء.

وعلى الرغم من وجود آثار تدل على قيام التجارة بين مصر وبلاد الشام منذ أيام الدولة القديمة فلم تنشط إلا في عهد الدولة الحديثة وخاصة بعد الحملات الحربية التي قام بها ملوك الأسرة الثامنة عشرة، فقد أصبح لمدخل مصر الشمالي الشرقي أهمية تجارية وعسكرية خاصة، وانتشر على طوله العمران بل لقد أصبح شرق الدلتا إقليماً حيوياً نمت فيه المدن وانتقلت إليه العاصمة في بعض الأوقات[١]. ونقلت المتاجر براً على ظهور الدواب وبحراً بالسفر تمخر عباب البحر المتوسط بين ثغور الشام ومواني مصر الشمالية كالفرما وتانيس. ويتبين من دراسة الآثار الأدبية التي خلفتها الأسرة التاسعة عشرة والأسرة العشرون أن مصر كانت تستورد من الشام الأخشاب والرقيق ومختلف الأسلحة والسفن والمركبات وأجزاءها والعصى والآلات الموسيقية والأواني والجرار المختلفة وأنواع من الخبز والسمك والبخور والخيل والماشية إلى غير ذلك من منتجات سورية والبلاد المتاخمة لها. وكانت مصر ترسل في مقابل ذلك المنسوجات الكتانية

---

[١] Breasted. J. op. cit., p. 44.

والأواني والحلي والتماثيل إلى جانب منتجات السودان ومن الثابت أن هذه التجارة جلبت إلى اللغة المصرية ثروة من الألفاظ السامية وأدت إلى دخول بعض الآلهة السورية مصر. وعلى الرغم من ذلك فلم يعترف المصري القديم بتفوق جاره الأسيوي عليه في مجالات الحضارة المختلفة ربما لإحساسه أنه أكثر منه تقدماً في نواحي الحياة المادية والمعنوية ولاعتقاده أنه أعرق منه حضارة.

وهناك من الأدلة الأثرية ما يثبت قيام علاقات تجارية بين مصر وجزر البحر المتوسط وخاصة جزيرة قبرص منذ عهد الدولة القديمة. فقد وجدت في مقابر ومعابد الدولة الوسطى والحديثة أوان مستوردة من "البلاد الشمالية" وفي نفس الوقت كشفت عن كثير من آثار الحضارة المصرية في مدن كريت وقبرص ورودس وصقلية وفي جهات كثيرة من سواحل البحر المتوسط[1]. وكان أهم ما يرد من جزر البحر المتوسط الأواني المختلفة الأنواع والأشكال والمصنوعات المعدنية من الفضة والذهب والنحاس. ويبدو أن ما كانت مصر تصدره إلى هذه الجزر كان أغلبه أشياء مصنوعة كالأقمشة والمراكب المذهبة والتحف وغير ذلك مما اشتهرت به مصر.

وتشير كل الوثائق والنصوص التاريخية إلى أن تجارة مصر الخارجية في عهد البطالمة ازدهرت كما لم تزدهر من قبل. فقد استغل البطالمة موقع مصر وإمكانياتها الاقتصادية في إقامة علاقات تجارية على مجال عالمي امتدت بين الصين في الشرق وإسبانيا في الغرب وبين الجزر البريطانية في الشمال ووسط أفريقية في الجنوب[2]. ولكن من الحق القول إن الشعب لم يستفد من أرباح هذه التجارة كما استفاد الحكام فقد كان الملك هو التاجر الأول وكانت تجاراته تُحمل بين مصر وممتلكاتها كما كان الملك يفرض على الواردات من البلاد الأجنبية مكوساً باهظة. وقد استمد البطالمة من

---

(1) Ibid., p. 335.
(2) Rostovtzeff. M, The Camb Anc. His., 1928, vol. 7, p. 134.

ممتلكاتهم ما كان ينقص مصر من معادن وخامات طبيعية أخرى فضلاً عن بعض المنتجات الزراعية والصناعية والحيوانات الحية. فجلبوا النحاس والفضة من قبرص والأخشاب والنبيذ وزيت الزيتون من سوريا وفلسطين والأقاليم الجنوبية لآسيا الصغرى (كيليكيا وليكيا) والخيول من برقة والذهب وريش النعام والعاج وجلود التماسيح والعبيد من بلاد النوبة عن طريق النهر وبالبر. وفوق ذلك فقد كانت مصر تلجأ إلى هذه الممتلكات وقت المجاعات للحصول على الحبوب وخاصة من سوريا وقبرص. ولكن من الثابت أن تجارة مصر مع البلاد الأجنبية وخاصة الشرقية كان لها المقام الأول فقد اهتم بها البطالمة أشد اهتمام فأنشأوا المواني على البحر الأحمر وأعادوا حفر القناة التي كانت تربطه بالنيل وشددوا الحراسة على الطرق التي تعبر الصحراء الشرقية لتربط البحر بالنهر واهتموا ببناء السفن البحرية والنهرية واعتنوا بزراعة القمح الذي أصبح من أهم صادرات مصر إلى العالم الخارجي هذا وقد لعبت الإسكندرية دوراً حيوياً في ربط مصر بالعالم الخارجي، فقد خرجت منها معظم الصادرات وانتهت إليها معظم الواردات[1]. وعاونتها في استقبال بقية التجارة الخارجية بلوزيوم وموبس هورمس وليكوس ليمن وبرنيك وسيأتي ذكرها فيما بعد. وعلى أي حال فقد ساعد على رواج التجارة البحرية في العصر البطلمي بصفة عامة انتشار الفنارات على طول السواحل وازدياد المعرفة بالمواني المختلفة وكبر حجم السفن (وصلت حمولة بعضها إلى ٥٠٠٠ طن) وقدرتها على الملاحة في عرض البحر ليلاً ونهاراً.

في هذا العصر أنشأت مصر علاقات تجارية قوية مع بلاد بحر إيجه والبحر الأسود وبلاد الحوض الغربي من البحر المتوسط كذلك مدت صلاتها التجارية نحو الشرق إلى جنوب الجزيرة العربية ونحو الجنوب إلى السودان ووسط أفريقية. كانت الحبوب والأواني والمنسوجات والورق هي أهم صادرات مصر إلى بلاد الإغريق وآسيا

---

[1] Rostovtzeff, M. A History of Ancient World. Oxford 1939, p. 357.

الصغرى وإيطاليا وصقلية هذا إلى جانب بعض منتجات النوبة والسودان وجنوب بلاد العرب والهند. ولكن واردات مصر من هذه الأقاليم كانت أقل في قيمتها من صادراتها. كانت قائمة الواردات تشمل على أية حال بعض أنواع النبيذ وزيت الزيتون والصوف وكميات قليلة من العسل والسمك المجفف والجبن والمرمر والحديد والفسفور (من صقلية) والخيول من قرطجنة وصقلية ويُرَجَّح أن مصر كانت تحصل من قرطنجة كذلك على القصدير البريطاني. وقد عمل البطالمة بمختلف الوسائل على التحكم في تجارة السودان وبلاد بنت وبلدان جنوب آسيا لما كانت تجلبه من المكاسب الضخمة. وكان أهم ما يميز هذه التجارة الجنوبية والشرقية أنها تجارة كماليات من تلك التي كانت تقبل عليها الطبقة المترفة في مصر وبلاد حوض البحر المتوسط[1]. نذكر على سبيل المثال العطور والبخور والمر والقرفة والعاج من جنوب الجزيرة العربية وبلاد بنت والأرز والأصداف واللآلىء والأصباغ والنباتات الطبية والقطن والحرير والأخشاب النادرة والعاج والبهار من الهند والأقاليم المجاورة. كذلك تتحدث النصوص التاريخية عن الفيلة الحية التي كانت تأتي بها السفن من بلاد الحبشة لاستخدامها في جيوش البطالمة[2]. ولم تكن تجارة السودان تأتي عن طريق النهر فقط بل اشترك في حملها قوافل سارت بها في طريق عرف فيما بعد بدرب الأربعين (راجع الفصل الأول). أما تجارة الشرق فكانت تسلك أثناء العصر البطلمي وبعده ثلاثة طرق رئيسية (الشكل ٦) وجهتها البحر المتوسط: الطريق الشمالي وكان يتجه من أواسط آسيا نحو بحر قزوين فالبحر الأسود فبحر مرمره؛ الطريق الأوسط وكان أهمها خلال القرن الثالث قبل الميلاد يبدأ من الهند ثم يتجه (بحراً أو براً) إلى أرض العراق ومن ثم يتجه نحو الغرب إلى دمشق وصور أو إلى أنطاكية ومنها إلى إفسوس Ephesus (على الساحل الغربي لآسيا الصغرى)

---

(1) راجع في ذلك: Bevan, E. A History of Egypt under the Ptolemaic Dynsaty. London 1914.

(2) Mahaffy, J. A History of Egypt. London 1890, p. 87.

وقد ظل هذا الطريق محتفظاً بأهميته حتى استولى البارثيون Parthians (الفرس) على بابل في منتصف القرن الثالث ق م. فقل شأنه؛ الطريق الجنوبي وهو طريق بحري في معظمه ازدادت أهميته بعد سقوط بابل في أيدي الفرس. كان يبدأ من الهند ثم يتجه إلى مواني جنوب الجزيرة العربية وخاصة يودايمون (أي عدن) أو إلى الجزر القريبة كجزيرة سوقطرة. وهناك تفرغ المراكب الهندية حمولتها ليتسلمها الأعراب ويقوم هؤلاء بنقلها إما بالقوافل من سبأ إلى آيله فالبتراء من بلاد النبط ومن ثم إلى دمشق وأنطاكية وغزة أو بالسفن التي تبحر شمالاً في البحر الأحمر حتى نهايته أو التي تنتهي رحلتها عند أحد المواني الصغيرة التي نشأت على جانبي البحر مثل ليوكي–كومي على الساحل الشرقي وبرنيك وليكوس ليمن على الساحل الغربي ثم تقوم وسائل أخرى بنقل منتجات الشرق إلى ساحل البحر المتوسط. غير أن نقل التجارة على مياه البحر الأحمر لم يكن يستهوى التجار أول الأمر فقد فضلوا طريق البخور البري عبر بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها على الرغم من فداحة تكاليفه[١].

---

[١] راجع في هذا الموضوع: Huzayyin, S. Arabia and the Far East, Cairo 1942.

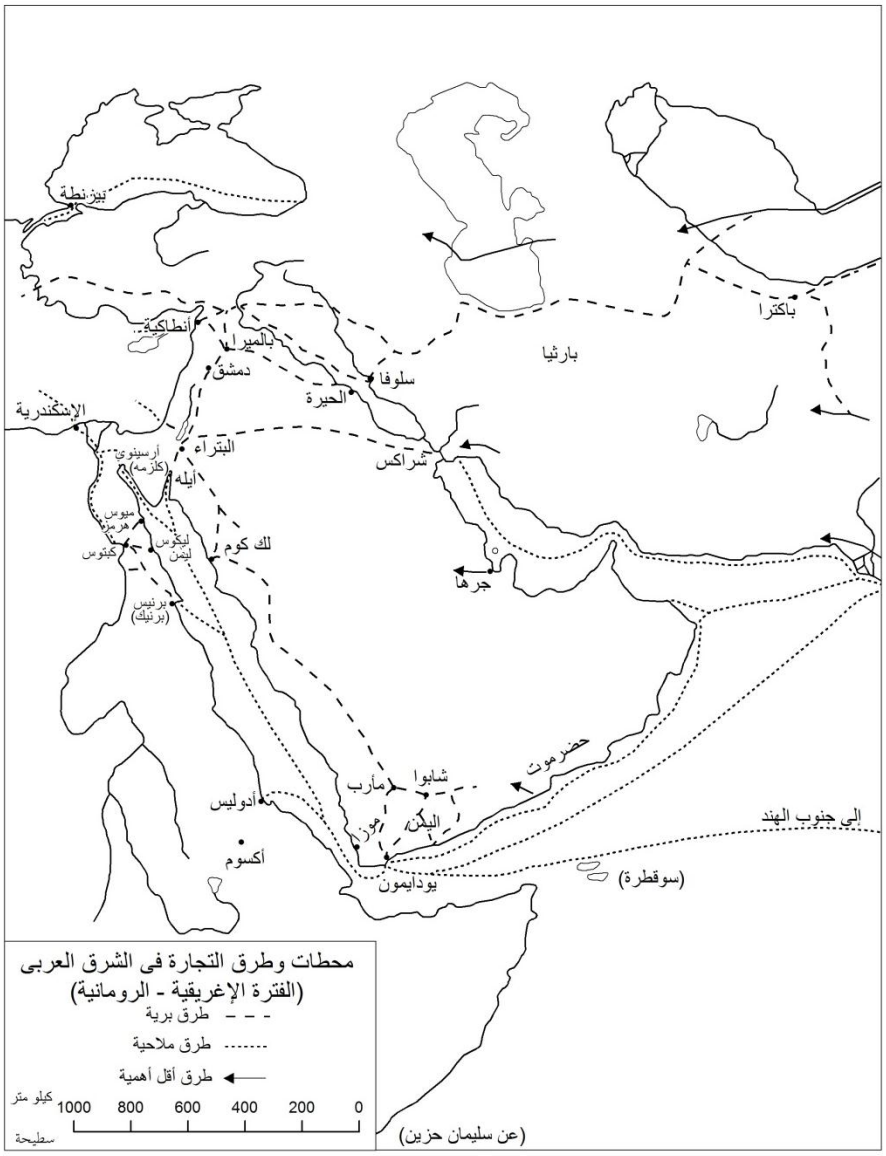
بيزنطة
أنطاكية
بالميرا
دمشق
سلوفا
الحيرة
باكترا
بارثيا
الإسكندرية
البتراء
أرسينوي
(كلزمه)
أيله
شراكس
ميوس
هرمز
ليكوس
ليمن
كيتوس
لك كوم
جرها
برنيس
(برنيك)
حضرموت
شابوا
مأرب
أدوليس
اليمن
إلى جنوب الهند
أكسوم
يودايمون
(سوقطرة)
محطات وطرق التجارة فى الشرق العربى
(الفترة الإغريقية - الرومانية)
طرق برية
طرق ملاحية
طرق أقل أهمية
كيلو متر
1000 800 600 400 200 0
سطيحة
(عن سليمان حزين)

الشكل (٦)

وقد وجد البطالمة أن سيطرتهم على تجارة الشرق وانتزاعها من أيدي النبطيين لا يمكن أن يتأتى إلا باستيلائهم على منافذ الطرق التجارية في آسيا الصغرى وسوريا وسواحل البحر الأحمر وقد تم لهم ما أرادوا في أول عهدهم ولكن لمدة قصيرة فقد زالت سيطرتهم على الطريقين الشمالي والأوسط في عام ١٩٨-١٩٧ ق.م.[1] وإزاء ذلك حوّل البطالمة كل عنايتهم واهتمامهم إلى الطريق الجنوبي. والحق أن الطريق كان يلقى منذ بدء العصر البطلمي اهتماماً أكثر من غيره من الطرق ربما لسهولة السيطرة عليه. ومن مظاهر هذا الاهتمام إرسال البعثات الكشفية إلى البحر الأحمر ثم المحيط الهندي لمعرفة سواحلهما وشعوبهما وموارد ثروة البلاد المطلة عليهما. وإقامة المواني على طول سواحل البحر الأحمر نذكر منها أرسينوى التي قامت عند نهاية القناة التي ربطت النيل بالبحر الأحمر وميوس هورمس وليكوس ليمن وبرنيك (برنيس) وغيرها على سواحل البحر الجنوبية[2]. وإصلاح الطرق التي كانت تربط هذه المواني بقفط وكاينوبوليس (قنا) Caenopolis مخترقة بعض وديان الصحراء الشرقية وتأمينها وتوفير الماء بها. وقد أدى ذلك كله إلى ازدياد نصيب هذا الطريق من تجارة الشرق. كانت هذه التجارة الشرقية على أية حال تنقل إلى الإسكندرية بعد وصولها إلى مواني البحر الأحمر بطريقين: الطريق الأول وهو الأهم طريق البحر والنهر معاً ويبدأ من أي من مواني سواحل البحر الأحمر السابقة مخترقاً وديان الصحراء الشرقية إلى ثنية قنا ومن ثم يتبع النهر وفروعه إلى الإسكندرية. الطريق الثاني هو الطريق النهري المباشر ويبدأ من هيروبوليس Heroopolis(أحد المواني التي أنشأها البطالمة) ويقع إلى الشمال من البحيرات المرة (الشكل ٣) ومنها تبحر السفن النهرية في القناة التي ربطت النيل بالبحر الأحمر حتى نهايتها ومن ثم إلى فروع النيل الغربية حتى الإسكندرية. وقد توقف هذا الطريق الأخير في أواخر حكم البطالمة بسبب انسداد تلك القناة وعدم صلاحيتها للملاحة. وفي الإسكندرية

---

(1) إبراهم نصحي جزء ٢ ص ٣٩٨.

(2) راجع Kammérer, A. La Mer Rouge. Tome. 1. Pp. 65-80.

كان جزء من منتجات الشرق يجهز ويصنع قبل استهلاكه محلياً أو تصديره إلى عالم البحر المتوسط.

ولم تقتصر صادرات مصر إلى عالم البحر المتوسط على منتجات الشرق المجهزة وغير المجهزة بل صدَّرت مصر أيضاً سلعاً مصرية كان أهمها الحبوب والورق والمنسوجات الكتانية. ومن المؤسف أن معلوماتنا عن هذه الصادرات قليلة متناثرة. وكل الذي نستطيع ذكره هو أن تجارة الحبوب لقيت اهتماماً خاصاً من جانب البطالمة لارتفاع أسعارها في بلاد الإغريق أكبر عملاء مصر. ويقدر أن ما كان تصدره مصر سنوياً من حبوب بلغ ٢ مليون أردب في المتوسط[1]. وقد أشرنا في مكان آخر إلى اهتمام البطالمة بزراعة الحبوب وخاصة القمح ومحاولتهم زيادة الرقعة الزراعية وزيادة الانتاج بمختلف الطرق لضمان المكاسب الضخمة التي كانت تتدفق من تجارة الحبوب فتزيد من ثرائهم وقوتهم. غير أن هذه التجارة كان يحد من نشاطها أحياناً المنافسة التي كانت تلقاها من البلاد المنتجة للقمح كصقلية وجنوب إيطاليا وجنوب روسيا مما حدا بالبطالمة إلى الالتجاء إلى الدبلوماسية لكسب العملاء. وأغلب الظن أن هذه المنافسة الأجنبية قويت في أواخر هذا العهد نتيجة لضعف مصر ولتدهور إنتاج الحبوب على إثر الاضطرابات التي تعرضت لها الدولة وقد صدرت مصر إلى البلاد الجنوبية (الحبشة والسودان والصومال) والشرقية كثيراً من منتجاتها الصناعية كالمنسوجات التي تناسب كل ذوق والآنية الزجاجية من صنع الإسكندرية والزيوت والأسلحة وكذلك بعض أنواع الأنبذة المستوردة من بلاد البحر المتوسط.

ولم يتغير كثير من معالم تجارة مصر الخارجية في الجزء الأكبر من العهدين الروماني والبيزنطي فقد ظلت الإسكندرية سوقاً ومخزناً للبضائع الشرقية والغربية وميناء مصر الأول بل أكبر مواني البحر المتوسط بعد روما وبيزنطة. كانت دائبة الحركة

---

[1] إبراهيم نصحي – تاريخ مصر في عهد البطالمة ج ٢ ص ٦٠٧.

والنشاط. وقد تمثل هذا النشاط في مرفأيها البحري والبحيري (على بحيرة مريوط)[١] وظلت التجارة الشرقية (أصبحت تشمل الكماليات والمواد الخام معاً) تمر بوادي النيل عن طريق مواني البحر الأحمر[٢]. ثم يقوم وسطاء من الإسكندرية بنقلها إلى أجزاء الإمبراطورية الرومانية وينبغي أن نشير إلى أن جزءاً من التجارة الشرقية كان يصل إلى الإسكندرية عن طريق قناة النيل – البحر الأحمر القديمة التي أعاد تراجان (القرن الثاني م) حفرها وتعميقها. كذلك أنشأت مصر علاقات تجارية مع مملكة مروى Meroe في شمال السودان ومملكة أكسوم (الحبشة). وعن طريق هاتين المملكتين حصلت مصر على منتجات وسط القارة الأفريقية. أما تجارة مصر مع جيرانها في الشرق والغرب فقد ظلت نشطة وخاصة مع سوريا[٣]. فكانت صادرات مصر إلى سوريا كثيرة من أهمها القمح والمنسوجات والورق والأواني الزجاجية ومنتجات الشرق والجنوب المصنعة من عطور وتحف فنية ومجوهرات. وكيفما كان الأمر فإن مصر في هذين العهدين لم تكن دولة مستقلة ذات سيادة كما كانت في الجزء الأكبر من العصور السابقة وإنما كانت ضيعة لروما ثم لم تلبث أن صارت ضيعة لبيزنطة. وقد ترتب على ذلك أن صارت كميات الحبوب الهائلة التي كانت تصدرها مصر إلى عالم البحر المتوسط في العصر البطلمي من قِبيل الجزية إبان حكم روما وبيزنطة. بل إن اقتصاديات مصر كلها سخرت لصالح الإمبراطورية (الشرقية والغربية) مما أدى إلى اضطراب الأحوال في أواخر حكم الدول البيزنطية.

وفي النصف الأول من القرن السابع الميلادي كانت أمور مصر قد ساءت وضعفت فيها سلطة الدولة الرومانية الشرقية ضعفاً شديداً. لذلك لم يكن من

---

[١] وهيب كامل – استرابون في مصر ص ٥٨.

[٢] ظهرت القلزم Clysma على رأس خليج السويس في العهد الروماني.

[٣] Rostovtzeff, M. The Social and Economic History of the Roman Empire. Oxford, 1926, p. 147.

الصعب على جيش عمرو بن العاص القليل العدد والعُدة أن يحتل مصر ويضمها إلى حوزة الإسلام. وبدخول الإسلام مصر فترت التجارة الخارجية المباشرة بينها وبين العالم المسيحي في أوربا وآسيا بسبب التعصب الديني[١]، بينما نشطت تجارتها مع بقية العالم الإسلامي وبلاد الشرق الأقصى ووسط أفريقية، في هذه القرون الأولى للإسلام في مصر قام وسطاء تجاريون من الجاليات الأجنبية في الإسكندرية ومن اليهود الراذانية بنقل التجارة بين الشرق والغرب. وقد حدثنا ابن خرداذبة عن هؤلاء اليهود، وذكر أنهم يتكلمون العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية "وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور[*] والسيوف، ويركبون من فرنجة (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار (كانت ميناء المدينة) وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني[**] وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم، ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم، وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك"[٢].

غير أن حركة التجارة في الإسكندرية فترت قليلاً عن ذي قبل فقد نقل منها مقر الحكم إلى حيث تلتقي مصر السفلى بمصر العليا وتغير توجيه مصر الجغرافي من

---

[١] Heyd, W. Histoire du Commerce du Levant au Moyenâges. Leipzig 1885, vol. I. p. 51.

[*] الخز والسمور حيوانات ذات فراء تشبه حيوان ابن عرس. (المحقق)

[**] الدارصيني نوع من القرفة. (المحقق)

[٢] ابن خرداذبة – كتاب المسالك والممالك – ليدن ١٨٨٣ من ص ١٥٣-٥٤.

الشمال إلى الشرق والجنوب على الأقل في القرون الأولى من حكم العرب لمصر. ولكن بالقياس إلى بقية المدن المصرية في العصور الوسطى ظلت الإسكندرية على الرغم من انكماش رقعتها ومنافسة دمياط لها أيام الأيوبيين من أكثر مدن مصر تجارة، بل ربما كانت أكثرها تجارة قبل قيام القاهرة المعزية في القرن العاشر الميلادي. غير أنه يلاحظ أن الإسكندرية تميزت خلال جزء كبير من العصور الوسطى بالسلبية التجارية فكانت تعمل في نقل تجارة الأجانب أكثر من اشتغالها بتبادل التجارة لحسابها الخاص مع العالم الخارجي[١]. وليس أدل على ذلك من تحول المدينة إلى مخزن كبير لمتاجر حوض البحر المتوسط والشرق الأقصى وازدحامها بكثير من تجار البندقية والقسطنطينية والمغرب، ويؤيد ذلك أيضاً وصف بنيامين التطيلي للمدينة في القرن الثاني عشر. فقد وصفها بأنها السوق التجاري لكل الأمم يأتي إليها التجار من أغلب ممالك ومدن أوربا (أحصى ٢٩ مدينة ومملكة أوربية) ومن بلاد المسلمين وبلاد الحبشة والهند والصين واليابان وأن لكل طائفة منهم فندقاً خاصاً[٢].

وكان من الطبيعي أن تنشط صلات مصر بالعالم الإسلامي منذ بدء العهد العربي وقد شجع على ذلك حرية انتقال التجار المسلمين في ربوع الدولة الإسلامية والتي امتدت من السند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال طوروس في الشمال إلى أسوان في الجنوب، كما شجع على ذلك أيضا الحج إلى مكة وقدرة عرب الصحراء على الحركة السريعة، هذا فضلاً عن موقع مصر المتوسط في العالم الإسلامي لذلك نجد مصر وقد دعمت علاقاتها التجارية مع سوريا والحجاز وشمال أفريقية والأندلس في فجر الإسلام. وقد اتصلت سوريا بمصر بالطريقين القديمين" طريق البر وطريق البحر، وكان طريق البر يبدأ من العاصمة (الفسطاط ثم القاهرة)، ثم يسير جهة الشمال الشرقي متتبعاً أطراف

---

[١] أرشيبالد لويس – القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط – ترجمة أحمد محمد عيسى – القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٥٨.

[٢] Adler, M. The Itinerary of Benjamin of Tudela. London 1907. P. 75.

الدلتا الشرقية، ثم يعبر برزخ السويس إلى شمال سيناء، حيث يمر بالعريش ورفح ومن ثم إلى الرملة. وهنا يتفرع إلى فرعين فرع يتجه جنوباً إلى مدن الحجاز وفرع يتجه شمالاً إلى دمشق[1]. أما طريق البحر فكان يبدأ من تنيس Tennis أو الفرما أو دمياط ويتجه نحو عكا أو بيروت أو طرابلس ومن ثم ينقل جزء من البضاعة بالبر إلى دمشق ومنها عبر الصحراء السورية إلى العراق. ويحدثنا المقريزي أن العراق كانت تحصل من أقمشة مصر في عهد الدولة الفاطمية ما كانت تزيد قيمته على ٣٠ الف دينار[2]. وقد اضطربت التجارة على هذين الطريقين إبان غزوات الصليبين واحتلالهم لسواحل الشام ولكنها رجعت إلى طرقها الأولى بعد طرد الصليبين من الشرق العربي. كانت صادرات مصر إلى بلاد الشام على أيه حال متنوعة فقد حملت السفن والقوافل كميات كبيرة من القمح[3] (في سني الجفاف) والأرز والعدس والفول والنيلة والسكر والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية والمصنوعات الجلدية والأسماك المملحة[4]. ويمكن أن نستخلص من الأرقام التي ذكرها جيرار والتي تكشف عن كمية صادرات مصر السنوية إلى سوريا في أواخر القرن الثامن عشر (وهي فترة تدهور فيها اقتصاد مصر إلى أبعد مدى) مركز وحجم التجارة المصرية السورية في العصور الوسطى. يذكر جيرار أن مصر كانت تصدر سنوياً إلى سوريا ٣٠ ألف أردب من الأرز، ١٠٠٠ أردب من الفول، وحوالي ٣ آلاف أدرب من العدس، ١٠٠ قنطار من السكر وحوالي ١٠٠٠ بالة من الملابس الجاهزة[5]. وفي مقابل ما كانت مصر تصدره إلى سوريا استوردت منها الفواكه المختلفة، وزيت الزيتون

---

(1) ابن خرداذبة – ص٧٩.

(2) المقريزي – الخطط – جزء أول ص ٦٧٧.

(3) بلغت ١٢٠ ألف أردب في بعض السنين (عن المقريزي – جزء أول ص ٤٦٥).

(4) المقدسي – كتاب أحسن التقاسيم – ليدن ١٩٠٦ – ص ٢٠٥.

(5) Girard, P. S. Memoire Sur lagriculture, l'industrieet le commerce de l'Egypte.Desc.De 'Egy.Etet.Mod. Tom. Sec. p. 647.

والحبوب (في سني القحط) والجبن والزبد والشمع والقطن خاماً ومنسوجاً والأقمشة الحريرية والكتانية فضلاً عن بعض منتجات الهند القادمة عن طريق العراق.

وأدت مصر في أول عهدها بالإسلام جزية إلى الخليفة في مكة كانت حبوباً وطعاماً. نقلتها السفن من العاصمة إلى القلزم في القناة التي حفرها عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وسماها "خليج أمير المؤمنين". وربما مر في القناة أيضاً بعض من التجارة الشرقية العابرة وبعض من تجارة مصر إلى جنوب شرقي آسيا. ولكن جريان السفن في الخليج لم يدم طويلاً فقد أمر الخليفة المنصور (القرن الثامن م) كما سبق أن أشرنا بطمره حتى لا تحمل فيه الميرة إلى ثوار المدينة فانتهى أمر الخليج، وحل محله طريق القوافل الذي امتد أحياناً إلى آيله على رأس خليج العقبة ومنها إلى الحجاز. وقد استتبع تغيير الأحوال السياسية فيما بعد قيام التجارة بدل الجزية. فصدرت مصر إلى جدة (وصنعاء والشحر) أنواعاً من المواد الغذائية والحبوب والمصنوعات الجلدية والمنسوجات واستوردت من نفس هذه الثغور منتجات الهند وفارس والعراق القادمة إليها بالبر والبحر.

وارتبطت مصر بشمال أفريقية بطرق برية وبحرية فمن الإسكندرية حملت السفن القمح (في سني الجفاف) والنيلة والسكر والمنسوجات الكتانية والقطنية والصوفية إلى مواني طرابلس والمهدية وتونس وطنجة وغيرها من مواني شمال أفريقية وعادت تحمل الزبد والعسل والشمع وزيت الزيتون وبعض الملابس الصوفية[1]. وكان أهم الطرق البحرية طريق ساحل البحر المتوسط الذي يصل إلى أطراف الدلتا الغربية ويمر بمحاذاتها لينتهي عند الجيزة، ونقلت عليه واردات مصر من الحيوانات الحية

---

[1] كان من أثر غزوة قبائل بني هلال لعمال أفريقية في القرن ١١م أن كسدت التجارة لفترة قصيرة بين جهاته وبين مصر بسبب التخريب والتدمير والاضطراب الذي حل بوسائل الري وبالمدن والصناعة.

وسارت عليه القوافل حاملة بعض المنتجات المصرية إلى الغرب العربي (ابن خرداذبة ص ٨٥). إلى جانب هذا الطريق الساحلي كانت هناك طرق داخلية تمر بواحات الصحراء الغربية ومن ثم إلى وادي النيل وقد قام كثير من سكان هذه الواحات بالوساطة التجارية بين الشمال والجنوب والشرق والغرب وينبغي أن نشير هنا إلى أن بلاد المغرب كانت حلقة الاتصال بين مصر وبلاد غانة والسنغال وحوض النيجر، فقد كانت القوافل تخرج من سجلماسة لتخترق الصحراء الكبرى إلى غرب أفريقية ثم تعود بالتبر وغيره من منتجات تلك المناطق ثم يحمل بعضها إلى مصر[١].

وتبادل الأندلس ومصر المنافع، فقد صدرت مصر إلى الأندلس نفس منتجاتها التي كانت ترسلها إلى شمال أفريقية واستوردت الدقيق والملابس وزيت الزيتون والفواكه المجففة[٢]. ويمكن أن نستدل على رواج التجارة بين البلدين مما كتبه أحد وزراء عبد الرحمن الثالث (في القرن العاشر الميلادي) "وإننا نشهد طوائف من التجار قادمة من أقطار أجنبية مختلفة وعلى الأخص من مصر. كذلك يأتي التجار من الجزر ومن أقطار سحيقة يجلبون العطور والأحجار الكريمة، وكل الأشياء الثمينة التي يقتنيها الأمراء والنبلاء، ويحضرون كذلك معظم المنتجات المصرية التي يحتاج إليها الفرد[٣]".

واستمرت تجارة مصر مع بلاد النوبة وأواسط أفريقية وظلت أسوان هي السوق التجاري الذي تعرض فيه منتجات مصر والنوبة وأواسط أفريقية بل والهند غير أن التجارة مع بلاد النوبة والسودان لم تنشط إلا بعد القرن العاشر الميلادي حينما كثرت هناك وفود التجار العرب وحينما أقاموا لهم فندقاً خاصاً بهم. فيحدثنا المقريزي أن التجار العرب أصبح لهم في القرن الحادي عشر فندقاً في مدينة علوة (قرب موضع

---

(١) Bovill, E. Caravans of the old Sahara. London 1933. P. 43.

(٢) ابن حوقل – كتاب المسالك والممالك – ليدن ١٨٧٢ ص ٢٥.

وانظر كذلك Heyd. W. op cit. ,vol. II, pp. 30-32.

(٣) Ibid., vol. I, p. 48.

الخرطوم) عاصمة مملكة علوة. لكن يلاحظ أن أسوان قل شأنها بسبب ما أصابها من تدمير إثر الفتن التي حدثت فيها، فتحولت عنها طرق التجارة ابتداء من القرن الحادي عشر إلى قوص[١]. وعلى أي حال فقد جلب التجار إلى مصر من سلع النوبة عن طريق النهر الرقيق والماشية والعاج والذهب وحملوا إلى النوبة وأواسط أفريقيا منتجات مصر من الحبوب ومختلف المصنوعات وخاصة الملابس. إلى جانب النهر كانت هناك طرق برية أشرنا إليها فيما سبق وبينَّا أن أهم طريق هو الذي كان يسمى "درب الأربعين" يبدأ من قلب كردفان ثم يتجه في البرية إلى أسيوط ماراً بالواحة الخارجة ومن أسيوط تتابع بعض القوافل سيرها إلى العاصمة. ولم تتوقف التجارة على هذا الطريق إلا بعد إلغاء تجارة الرقيق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وقد ترك لنا جيرار (القرن الثامن عشر) وصفاً للرحلة على هذا الطريق وما كان تحمله القوافل. يقول إن القافلة القادمة من كردفان كانت تتكون من ٤٠٠٠ جمل يحمل ٥٠٠ منها فقط المتاجر (ريش النعام والصمغ العربي والعاج والمرضى من الرقيق) والباقي يحمل الماء والعلف والمسافرين والتجار. ويمكث التجار في مصر عادة ثمانية أشهر يبيعون خلالها بضاعتهم ويشترون بثمنها بعض منتجات مصر من المنسوجات والحبوب والسكر وبعض الواردات الأوربية ثم تعبأ لتحملها الإبل عند عودتها إلى السودان[٢].

ولم تدم القطيعة بين مصر والعالم المسيحي طويلاً فقد بدأت العلاقات التجارية تعود إلى حالتها الطبيعية في أوائل حكم الدولة الفاطمية وقويت أواصرها بعد الحروب الصليبية. وكان أهم ما استوردته مصر من ممالك ومدن أوربا ومن الدولة البيزنطية

---

[١] كّفَّ الحجاج أيضاً عن الذهاب إلى أسوان ومنها إلى جدة عن طريق عيذاب وفضلوا طريق "قوص – القصير" أو "قوص – عيذاب" وخاصة وقت الحملات الصليبية.
(راجع هذه النقطة في "سفرنامة" لناصر خسرو ص ١٧٧، وتقويم البلدان لأبي الفدا ص ٨٥)

[٢] Girard, P. S. Op. cit., p. 630.

الأخشاب والحديد والقار وهي مواد تفتقر إليها مصر وتحتاج إليها في بناء الأسطول. ورغم معارضة البابا لقيام مثل هذه التجارة وتحذيره المدن الإيطالية والإسبانية من مد مصر بهذه المواد الحربية فقد عقدت الاتفاقات التجارية مع هذه المدن واستمر ورود الحديد والخشب والقار والنحاس والرصاص لدور صناعة السفن في القاهرة والإسكندرية ودمياط. أما التجار الأوربيون فكانوا يأتون إلى موانى مصر وعاصمتها للحصول على متاجر الشرق وبعض المنتجات المحلية (الشبة، النطرون، الزمرد، النيلة، الأفيون، السكر، الأرز، العدس) وفي نفس الوقت يعهدون ببضاعتهم (منسوجات صوفية وحريرية، صابون، آنية زجاجية، أسلحة، فواكه مجففة، مصنوعات خشبية، فواكه وفراء إلخ) إلى وسطاء ينقلونها عبر أرض مصر إلى بلاد الشرق الأقصى وأواسط أفريقية. وقد نشطت حركة التجارة العابرة نشاطاً عظيماً بعد انتهاء الحروب الصليبية[١]. ولعبت البندقية دورها في نقل وتسويق هذه المتاجر الشرقية بين دول أوربا وبقية العالم المسيحي في آسيا الصغرى وقد نافستها في ذلك أمالفي وجنوة وبيزا ومرسيليا.

وكانت تجارة الشرق تحملها السفن الهندية إلى عدن (الشكل ٧) ثم يقوم وسطاء من مسلمي جنوب الجزيرة العربية عرفوا بالكرامية في أواخر العصر الفاطمي بنقل هذه المتاجر في سفنهم الصغيرة إلى القلزم ثم تحول الطريق تدريجياً في القرن الثامن إلى القصير ثم تحول عنها ابتداء من القرن الحادي عشر إلى عيذاب[٢]. وفي أواخر العصور الوسطى تحول الطريق مرة ثانية إلى الشمال إلى السويس والطور[٣].وقد اشتهرت عيذاب دون بقية موانى البحر الأحمر خلال العصور الوسطى، ويرجح أنها كانت تستخدم قبل القرن العاشر كفرضة يسافر منها بعض الحجاج إلى مكة ثم أخذت في القرن الحادي عشر تجذب الحجاج والمتاجر بكثرة حتى ازدهرت وزاد نشاطها وخاصة بعد استيلاء

---

(١) Heyd, W. Op. cit., p. 378.
(٢) Hanotaux.G. Histoire de la Nation Egyptianne. Paris 1431, Tome I p. 337.
(٣) Ibid. p. 347.

الصليبيين على آيله سنة ١١١٦م. فقد تحول إليها ما بقى من تجارة مصر مع بلاد العرب عن طريق آيله. وقد رأى ابن جبير عيذاب عندما كانت في أوج عظمتها عام ١١٨٣م فكتب يقول "عيذاب من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة وكان لأهلها جعل (أجر) معلوم على كل حمل طعام يحمله الحاج ولكن هذه الضريبة كانت خفيفة المؤونة"[1]. وقد اقترن نشاط التجارة الشرقية بازدهار موان نهرية على الحدود المصرية الجنوبية وعلى ثنية قنا. وقد رأينا ما كان من أمر أسوان وكيف أن قوص احتلت مكانتها. ولكن قبل ازدهار قوص كانت الأقصر وقفط قد قامتا بدور الوساطة التجارية ولكن على مجال ضيق[2].

---

[1] ابن جبير – رحلة ابن جبير – ليدن ١٨٥٢ ص ٦٩.

[2] المقريزي – الخطط – ج١ ص ٢٣٢.

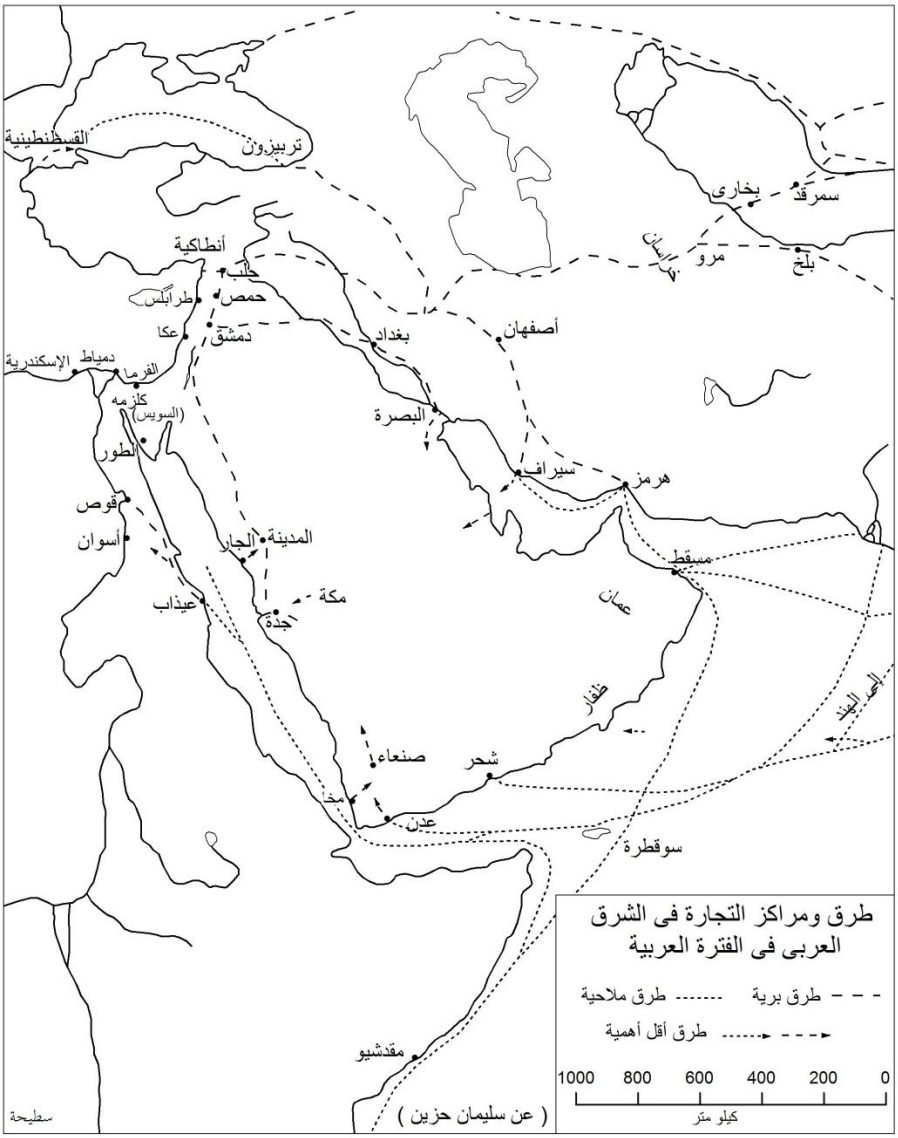
القسطنطينية
تربيزون
سمرقند
بخارى
مرو
بلخ
أنطاكية
حلب
حمص
طرابلس
دمشق
عكا
بغداد
أصفهان
دمياط
الإسكندرية
الفرما
كلزمه
(السويس)
البصرة
الطور
سيراف
هرمز
قوص
أسوان
المدينة
الجار
مسقط
مكة
عيذاب
جدة
عمان
ظفار
البحر الهند
صنعاء
شحر
مخا
عدن
سوقطرة
مقدشيو
طرق ومراكز التجارة فى الشرق العربى فى الفترة العربية
طرق برية
طرق ملاحية
طرق أقل أهمية
1000 800 600 400 200 0
كيلو متر
(عن سليمان حزين)
سطيحة

(شكل ٧)

وقد عظم قدر قوص في القرن الثاني عشر فكانت "حفيلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة... ومحط الرحال وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب وإليها انقلابهم[1]. ويقول كترمير عن قوص أنها كانت مدينة كبيرة بها عدد عظيم من الفنادق والمنازل[2]. ومهما يكن من شيء فإن التجارة العابرة كانت تنقل من عيذاب والقصير إلى أسوان أو قوص على الظهر عن طريق وديان الصحراء الشرقية (وخاصة وادي العلاقي والحمامات) ومن المواني النهرية كانت المراكب النيلية تشق طريقها إلى العاصمة وهناك يقوم وسطاء بنقلها إلى الإسكندرية أو دمياط حيث تشحن في سفن (صار أغلبها إيطالية بعد الحروب الصليبية) إلى المواني الأوربية وخاصة البندقية وجنوة وبيزا ومرسيليا. وعندما تحولت طرق التجارة عن عيذاب إلى الطور والسويس في أواخر القرن الرابع عشر كانت متاجر الشرق تنقل براً إلى العاصمة عبر شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية ومن ثم تنقل بالنهر وقنواته أو بالدواب إلى الإسكندرية. وقد جنت مصر أرباحاً طائلة من المكوس التي كانت تفرضها على التجارة العابرة. كانت مكوساً ثقيلة بلغت في أواخر عهد المماليك عُشر ثمن البضاعة مما أثار معارضة البرتغاليين ودفعهم إلى البحث عن طريق آخر إلى الهند يتفادى المرور عبر مصر ومناطق نفوذها في الشرق الأوسط. وقد نجح فاسكودجاما Vasco da Gama في اكتشاف هذا الطريق بالدوران حول أفريقية سنة ١٤٩٧. وفي سنة ١٥٠٠ ثبت البرتغاليون أقدامهم في كاليكوت Calicut ومنعوا السفن

---

(1) ابن جبير ص ٦٥.

(2) Quatreméro, E. Mémoires Geographiques et Historigues. Paris 1811. T. I. p. 194.

من المرور في البحر الأحمر[١]. وقد أحس السلطان الغوري بخطر هذا الكشف على التجارة الهندية المارة بمصر فخرج أسطوله لحرب البرتغاليين في مياه المحيط الهندي ولكن لم يكتب له النصر في النهاية إذ لحقت به الهزيمة في موقعة ديو Diu البحرية فكان ضربة عنيفة سددت إلى قلب مصر. ومنذ تلك الموقعة فقد موقع مصر الجغرافي قيمته إلى حين فقد تحولت عنه طرق التجارة إلى المحيط وبدأ الكساد والخراب يزحفان على العاصمة والمواني المصرية. ثم لم تلبث أن سقطت مصر نفسها في أيدي العثمانيين في سنة ١٥١٧ وتحولت إلى ولاية[٢] عثمانية تدفع ولا تأخذ وتعيش بعيدة عن مجرى الأحداث العالمية. ومرت قرون مظلمة ساءت فيها أحوال مصر كثيراً ثم بدأ موقعها الجغرافي يستعيد بعض أهميته السابقة في أواخر القرن الثامن عشر، ثم صار بالغ الأهمية بعد فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩. غير أن مصر لم تستفد من هذا الموقع إلا منذ أن أممت القناة في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦.

---

(١) Lane- Poole, S. A Histor of Egypt – The Middle Ages. London 1901, p. 350.

(٢) Ibid., p. 352.

الفصل الثامن:

أقسام مصرالإدارية

أشرنا في مكان آخر إلى أن مصر كانت تنقسم في عصر ما قبل الأسرات إلى عدد من الإمارات اتحدت الجنوبية منها قبل فجر التاريخ وكونت مملكة مصر العليا واتحدت الإمارات الشمالية وكونت مملكة مصر السفلى. ثم خرجت جيوش مملكة مصر العليا بقيادة مينا وهزمت مملكة الشمال واستطاع مينا أن يوحد الوجهين القبلي والبحري تحت زعامته ويؤسس الأسرة المصرية الأولى في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد.

وتسهيلاً لأمور الحكم والإدارة قسمت الدولة خلال عهد الأسرات والعهود اللاحقة إلى أقسام كبرى تشتمل على وحدات أصغر أطلق المصريون القدماء على الواحدة منها سبتSepet أو سبات Sepat[1]. وعرفت أيام الإغريق باسم نوموي Nomoi وأيام العرب بالكور أو الأعمال. وقد تغيرت مساحتها وعدد سكانها على مر القرون تغيراً كبيراً. ففي بعض فترات التاريخ وصل عددها إلى أكثر من ٥٠ قسماً وفي فترات أخرى انخفض العدد إلى أقل من ٣٠. هذه الوحدات على أية حال قسمت بدورها إلى وحدات أصغر فقسمت الكور مثلاً إلى مراكز وقرى ونواح كل ذلك تسهيلاً لجباية الضرائب وحكم البلاد. وكان تغير عدد وحدود الأقسام مرتبطاً بأسباب عدة لعل أهمها هو مدى غنى مصر وعدد السكان فيها والتغير المستمر في أفرع النيل. ففي العهود التي قلت فيها العناية بمسائل الري، تنكمش الرقعة الزراعية وتضمحل الزراعة فيقل عدد السكان ويترتب على ذلك أن تندمج بعض الوحدات الإدارية في أخرى فيقل عددها ولكن تكبر مساحتها. ومن ناحية أخرى نجد أنه في فترات الازدهار وارتفاع عدد السكان يزداد عدد الوحدات الإدارية وتصغر مساحتها. كما أن فروع النيل كثيراً ما كانت تمثل حدوداً للأقاليم والمقاطعات وكان تغيرها يعني تغيراً في حدود هذه المقاطعات.

وقد تغير التقسيم الإداري وعدد الوحدات الإدارية بشكل واضح منذ العهد الروماني وليس معنى ذلك أن نظام الإدارة في مصر تغير. الواقع أن النظام الذي وضعه

---

[1] Moret, A.The Nile & Egyptian Civilization. London 1927, p. 41.

المصريون القدماء لم يتغير في جوهره خلال فترات طويلة من تاريخ مصر فقد كان نظاماً رئاسياً مركزياً، يبدأ بالحاكم أو الوزير وينتهي بالعمدة أو شيخ القرية.

ومن الصعب رسم صورة واضحة عن التقسيم الإداري لمصر الفرعونية وذلك لقلة ما لدينا من معلومات عن هذا الموضوع. والذي نستطيع ذكره هنا هو أن مصر الفرعونية كانت تنقسم إلى إقليمين إداريين رئيسيين هما إقليم مصر السفلى وإقليم مصر العليا. ثم تغير هذا التقسيم في فترة متأخرة فأصبح هناك ثلاثة أقسام إدارية رئيسية بدلاً من قسمين هي: مصر السفلى وعاصمتها هليوبوليس وتبدأ من البحر حتى رأس الدلتا، ومصر الوسطى وعاصمتها منف وتبدأ من رأس الدلتا حتى قرب أبي تيج، ومصر العليا وكانت تشمل بقية الوادي حتى أسوان وعاصمتها طيبة وقد انقسمت هذه الوحدات الكبيرة إلى مقاطعات أو أقاليم Sepat بلغت كما يرجح إرمان Erman اثنين وأربعين منها اثنان وعشرون في الوجه القبلي والباقي في الوجه البحري[1]. ويرى A. Moret أن هذه الأقاليم ظهرت قبل بدء التاريخ. ظهرت منذ أن استغل المصريون مياه الفيضان في الزراعة. فقد قسموا الأرض إلى أحواض أحاطوها بالجسور وشقوا فيها القنوات. هذه الأحواض هي في واقع الأمر الأقاليم التي نشأت فيها الإمارات المصرية قبل التوحيد. وهي أيضاً الإطارات التي احتوت المقاطعة بعد التوحيد. كانت هذه المقاطعات على أية حال صغيرة المساحة بل متوسط طولها ٢٠ ميلاً أما عرضها فكان يتوقف على الموقع بالنسبة للوادي. فحيث يتسع الوادي تقع المقاطعة على جانب واحد وحيث يضيق تمتد على كلا الجانبين. وشملت كل مقاطعة إلى جانب العاصمة عدداً من القرى وما يحوطها من أرض زراعية ومناقع ومراع. وأطلق عليها في الغالب اسم حاضرتها. وعبد

---

[1] أدولف إرمان وهرمان رانكه. مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ص١٠.

أهلها آلهة محلية كان بعضها يكتسب قداسة واسعة إذا ما ارتفع شأن المقاطعة[١]. وكيفما كان الأمر فقد كان لكل إقليم جوه الديني ومشكلاته الزراعية وبيئته الجغرافية التي تختلف في تفصيلاتها عن بقية البيئات.

وقد اعتبر المصريون القدماء مقاطعة أسوان هي أولى المقاطعات المصرية وذلك لأنهم كانوا يولون وجوههم شطر الجنوب عند التعرف على الجهات الأصلية فيكون الغرب على يمينهم والشرق على يسارهم وربما كان سبب ذلك هو أن النيل منبع الحياة يأتي من الجنوب. وكانت مقاطعة أسوان تبتدىء كما يرى إرمان Erman قرب حوض كوم أمبو في الشمال وتنتهي عند الشلال الأول جنوباً. ونظراً لقيمة الجنادل في النهر كعامل دفاع عن البلاد فقد حصن المصريون القدماء مدينة آبو Abu[٢] التي كانت تقف على جزيرة أسوان (Elphantine[٣]) ولم تكن آبو تحمي الطريق الجنوبي فحسب بل حمت أيضاً محاجر الجرانيت التي تقع على الشاطىء الشرقي للنيل. وقامت كسوق تجاري يَفِد إليه من أهل النوبة وأهل مصر تجار يتبادلون المنافع والسلع كالعاج وريش النعام والذهب والغلات الزراعية والمصنوعات المصرية. وقد ظلت مدينة آبو هذه حاضرة المقاطعة لمدة طويلة حتى اضطرت أن تنزل عن مكانتها لمدينة أسوان (أسوان كلمة معناها مكان التجارة) في العصر الصاوي الأثيوبي[٤]. ومنذ أقدم العصور كان إقليم أسوان على الرغم من صعوبة الحياة على جوانبه ووجود الجنادل في النهر حلقة الصلة بين مصر والسودان فمن طريقة وصلت الحضارة المصرية (والمسيحية والإسلام فيما بعد) إلى شمال السودان.

---

[١] Moret. A. The Nile & Egyptian Civilization. Pp. 38-53.

[٢] كلمة آبو كلمة مصرية قديمة معناها عاج أو فيل وذلك نسبة إلى تجارة العاج في هذه المدينة.

[٣] تقع جزيرة أخرى إلى الجنوب من أسوان تعرف بجزيرة فيلي.

[٤] Hanotaux, G. Histoire de la Nation Ègyptienne. Paris, T. I, P. 164.

وإلى الشمال من مقاطعة أسوان كانت المقاطعة الثانية مقاطعة كوم أمبو وإدفو وقد اكتسبت هذه المقاطعة أهمية خاصة بسبب احتوائها على محاجر عظيمة للحجر الرملي وبسبب قداسة مدينتي كوم أمبو Ambos وإدفو، فقرب مدينة Chenu وهي بلدة السلسلة الحالية كانت توجد محاجر الحجر الرملي الصلب التي يمكن الوصول إليها بسهولة سواء من منف أو طيبة. وفي كوم أمبو عُبد الإله سوبك ذو المكانة العالية وفي إدفو عُبد الإله حورس وبُني له أهم معبد في مصر لا تزال آثاره باقية حتى اليوم. وإذا ما غادرنا المقاطعة الثانية واتجهنا شمالاً ندخل مقاطعة إسنا وهي الثالثة في ترتيب الأقاليم المصرية القديمة. هنا يتسع الوادي بعض الشيء وهنا استقرت جماعات بشرية منذ أقدم العصور. وتشير كل الدلائل إلى أن هذا الإقليم كان له شأن عظيم في عصر ما قبل الأسرات فقد كان الوطن الأصلي لأمراء طينية الذين نزحوا شمالاً ثم أصبحوا فيما بعد ملوك مصر الموحدة. وكان يقوم في تلك المقاطعة ثلاث مدن تستحق الذكر أولها العاصمة الدينية سني التي عرفت أيام الإغريق باسم لاتوبولس Latopolis (إسنا الحالية) ثم المدينة المزدوجة "نخب ونخن" التي يبدو أنها كانت في بدء التاريخ المصري عاصمة للوجه القبلي كله. أما خليفة نخب فهي قرية الكاب الحالية (كانت تُعرف في العهد الإغريقي باسم Eileithyiaspolis) وكانت نخن تقع تجاه الكاب على الضفة الغربية للنيل (عرفت في العصر البطلمي باسم هيراكونبوليس Hierakonpolis) واشتهرت بأهميتها الدينية. والمدينة الثالثة كانت تقف مكان أرمنت الحالية (عرفت في العهد الإغريقي باسم Heermontis) واشتهرت بعبادة إله الحرب مونت. ولكنها فقدت أهميتها بعد ازدهار طيبة في الألف الثانية قبل الميلاد ثم عاد إليها بعض مجدها بعد سقوط طيبة في الألف الأول قبل الميلاد.

والمقاطعة الرابعة هي مقاطعة "واست" أو "ويسة" (طيبة عند الإغريق) وقد كانت طيبة مدينة صغيرة مغمورة أول الأمر ثم أصبحت عاصمة لمصر وظلت كذلك فترات

طويلة من التاريخ ولكنها لم تزدهر إلا منذ سنة ١٥٠٠ ق.م وأطلق المصريون عليها أسماء تدل على مكانتها القوية وعظمتها فسميت "المدينة ذات المائة باب" و"مدينة المدن" و"مدينة الأبدية" و"المدينة القوية[1] إلخ" غير أنها فقدت كثيراً من مجدها وهيبتها في أواخر حكم الأسرات المصرية. وتقف مكانها اليوم بلدتا الأقصر والكرنك على الضفة الشرقية للنهر. وعُبد في هذه المدينة أيام مجدها عدة آلهة منها الإله "منت" والإله "آمون" والإلهة "موت" التي كانت تتخذ أشكالاً متعددة كاللبؤة والقطة. وسنعود إلى طيبة في مكان آخر.

وتقع مقاطعة قفط إلى الشمال من المقاطعة السابقة وترجع أهميتها إلى موقعها. فهنا يصنع النيل ثنية ضخمة تقربه من البحر الأحمر كما تشق الصحراء الشرقية وديان تربط وادي النيل بمواني هذا البحر. وقد ظلت هذه الصلة مستمرة طوال العصور التاريخية ولو أن مواضع المراسي النهرية والمرافىء البحرية كانت تتغير من عصر لآخر. ففي العصور القديمة كانت كوبتوس (قفط الحالية) هي نقطة البداية أو النهاية في طريق الرحلة إلى البحر الأحمر ثم خلفتها قوص (كسا القديمة) في العصور الوسطى وفي العصر الحديث قامت قنا بهذا الدور. أما الميناء البحري فقد كان كما رأينا إما برنيك أو القصير أو عيذاب. وكان لوادي الحمامات الذي ينتهي في هذا الإقليم أهمية خاصة في الزمن القديم فعلى جوانبه كانت توجد المحاجر التي أمدت المثَّالين المصريين بأنواع من الأحجار الصلبة الداكنة اللون. أضف إلى ذلك أنه توجد بالمقاطعة تربة صلصالية تصلح بصفة خاصة لصناعة الفخار وقد قامت هذه الصناعة من قديم ولا زالت حتى الآن[٢].

---

[1] سليم حسن – أقسام مصر الجغرافية ص ٤١.

[٢] سليمان حزين – البيئة والموقع الجغرافي وأثرهما في تاريخ مصر العام – مجلة الجمعية الجغرافية ١٩٤٢.

ويمكن أن نغفل ذكر المقاطعتين السادسة والسابعة لقلة أهميتهما وننتقل إلى المقاطعة الثامنة وهي مقاطعة أبدو (أبيدوس بالإغريقية). كانت أبدو أشهر مدينة مقدسة في مصر القديمة تقع على بعد ٨٠ كيلو متراً من كوبتوس. حج إليها المصري القديم وتمنى أن يدفن فيها. وبمرور الزمن تحولت المدينة إلى مقبرة هائلة تشبه مدينة الأموات في البر الغربي[١]. غير أنه لم تكن لأبدو هذه المكانة السياسية التي كانت للمدينة المجاورة تن (طينة) فقد كانت الأخيرة الموطن الأصلي لملوك الأسرتين الأولى والثانية[٢].

إلى الشمال من المقاطعة الثامنة كانت توجد ١٤ مقاطعة تمثل بقية مقاطعات الوجه القبلي وفق ما جاء في قائمة سنوسرت الأول (ثاني ملوك الأسرة الثانية عشرة). وهنا نلاحظ أن إقليم منف لا يدخل ضمن مقاطعات الوجه القبلي وإنما اعتبر أول مقاطعة من مقاطعات الوجه البحري. وذلك لامتداد رأس الدلتا قرب منف. ولكن في أواخر حكم الأسرات المصرية وبعد أن تقهقر رأس الدلتا جهة الشمال دخل إقليم منف ضمن أقاليم مصر العليا الشمالية[٣]. وعلى أية حال فمعلوماتنا عن مقاطعات مصر العليا الشمالية قليلة لذلك سنجمل الحديث عنها. في هذا القسم من مصر العليا يتسع الوادي وتمتد الأراضي الزراعية جهة الغرب كما يظهر للوادي امتداد في منخفض الفيوم. هنا قامت أكثر من عاصمة نذكر منها اختياتون (تل العمارنة) وهي العاصمة التي أنشأها أخناتون حوالي عام ١٣٥٠ ق.م على الضفة الشرقية. ولكنها كانت قصيرة الأجل فلم تمض سنوات على وفاة أخناتون حتى هجرت ولا زالت آثارها باقية. ومنف (الجدار الأبيض) التي أنشأها مينا بعد توحيد مملكتي الشمال والجنوب. قامت على حدود مصر العليا والسفلى إلى الجنوب من القاهرة ولكن على الضفة اليسرى للنيل. وقد ظلت مدة طويلة مدينة حصينة آهلة بالسكان ولكن يبدو أنه أصابها بعض الاضمحلال في نهاية

---

[١] إرمان ورانكه "مصر والحياة في العصور القديمة" ص ١٥.

[٢] Breasted, J.A History of Egypt. London. 1935, p. 44.

[٣] على هذا الأساس يكون عدد مقاطعات الوجه القبلي ثلاثاً وعشرين.

العصر الفرعوني. فعندما زار استرابون مصر في أواخر القرن الأول قبل الميلاد لاحظ أنه على الرغم من كثرة سكانها فقد حل ببعض أجزائها الخراب. وفي هذا يقول "والمدينة كبيرة ومكتظة بالسكان وهي ثانية المدن بعد الإسكندرية وأهلها مختلطو الأجناس كالذين استوطنوا الإسكندرية، وتوجد بحيرات أمام المدينة، والقصور هذه متهدمة الآن ومهجورة قائمة على مرتفع وتمتد حتى مستوى المدينة في أسفل، ويتصل بالمدينة حرش وبحيرة"[1]. هذا ولم يبق من آثار هذه المدينة العظيمة غير بقايا المنازل المبنية من اللبن وبقايا تماثيلها الجرانيتية منتشرة قرب قرية ميت رهينة الحالية.

ومن عواصم المقاطعات التي عرفت في هذا القسم من مصر: "آبو" (ربما كانت تقوم في موضع كفر آبو الحالي – محافظة جرجا) وكانت العاصمة السياسية للمقاطعة التاسعة. أما العاصمة الدينية فكانت "خنت خم" (إخميم). وثبو (أبو تيج) وكانت العاصمة السياسية للمقاطعة العاشرة التي عرفت عند الإغريق باسم Aphrodetopolite "وساوت" (أسيوط) عاصمة المقاطعة الثالثة عشرة التي عرفها الإغريق باسم Lycopolis ويرجّح أن كلمة أسيوط معناها الحارس لأنها كانت تقع عند نهاية الصعيد "الجواني" كما كانت مشرفة على مفترق عدة طريق إلى الواحات وإلى الجنوب والشمال. "وخمنو" (الأشمونين – محافظة أسيوط) عاصمة المقاطعة الخامسة عشرة (Hermopolis أيام الإغريق) "ووناس" (البهنسا – محافظة المنيا) عاصمة المقاطعة التاسعة عشر. وحنن سو (إهناسية – محافظة بني سويف) عاصمة المقاطعة العشرين Herakleopalis. أما إقليم الفيوم[2] فكان يكون المقاطعة الحادية والعشرين وعاصمتها "شدت" (بلدة الفيوم الحالية). وقد ساهم هذا الإقليم في تطور الحضارة المصرية في العصر الحجري الحديث فظهرت في حضارة الفيوم أ، ب على الشواطىء

---

(1) Hanotaux, G. Op. cit. p. 178.

(2) كلمة "فيوم" أصلها باللغة القبطية "بيوم" أي البحيرة.

القديمة للبحيرات التي كانت تشغل جزءاً كبيراً من قاع المنخفض وحظى في الدولة الوسطى باهتمام بعض الفراعنة فقد اتخذوا عاصمته مقراً لملكهم ونظموا دخول ماء بحر يوسف بسدود لها فتحات وجففوا أجزاء من البحيرة لتوسيع الرقعة الزراعية.

وتختلف مقاطعات الوجه البحري عن مقاطعات الصعيد في أن حدودها كانت أكثر تغيراً بسبب اتساع أرض الدلتا وتغير أفرع النيل، كما كانت أكثر اتصالاً ببعضها، وبالعالم الخارجي. وقد أدت سهولة الاتصال هذه إلى نشاط تجاري مبكر وغني تراث أهل الدلتا المادي والثقافي. ومن المؤسف أن معلوماتنا عن مقاطعات الدلتا ومدنها قليلة متفرقة بسبب تحلل الآثار وانطمارها تحت طمي النيل[1].

جاء في قائمة سنوسرت الأول أن مقاطعات الوجه البحري (وعددها ٢٠ مقاطعة بما في ذلك مقاطعة منف) كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين: قسم شرقي وآخر غربي. ولكن يلاحظ أنه بينما كان الترتيب العددي لمقاطعات القسم الغربي من الجنوب إلى الشمال منظماً نجد أنه لم يكن كذلك بالنسبة لمقاطعات القسم الشرقي. كما لم يقتصر وجود مدن الدلتا المهمة على أجزائها الجنوبية وإنما قامت مدن في أجزائها الشمالية مثل "خبيت" "وبعح" "وثني"[2] مما يدل على أنها كانت مزدهرة آهلة بالسكان. وفوق ذلك فقد ظهرت في الدلتا عدة عواصم ومدن ذاعت شهرتها في فترة من فترات التاريخ. ففي القسم الغربي من الدلتا ظهرت عاصمتان هما بوتو وسايس أما بوتو (مكان ابطو الحالية مركز دسوق) فمدينة قديمة جداً ظهرت في عصر ما قبل التاريخ وقامت

---

(1) Breasted, J. Op. cit., p. 32.

راجع أيضاً Rouge' (J. de) Geographie ancienne de la Basse Ègypte. Paris 1891.

(2) يُرَجَّح أن تكون "بخيت" قامت في موضع كوم الخبيزة التي تقع إلى الجنوب قليلاً من بحيرة البرلس. أما "بعح" فربما كانت مكان تل البهو الحالي مركز أجا. واحتلت "ثني" جزيرة تنيس في بحيرة المنزلة.

كمقر لملوك الشمال. ولعبت سايس (صا الحجر [*] الحالية، شمال غرب بسيون) دوراً هاماً في التاريخ منذ القرن الثامن قبل الميلاد حينما انتزع الأمراء الليبيون الحكم. وفي وسط الدلتا تقريباً كانت بوسيرس (أبو صير، جنوب سمنود) مقراً لعبادة أوزوريس بينما قامت في الأطراف الشرقية منديس (إلى الشمال الشرقي من السنبلاوين) وتانيس (صان الحجر) وهذه الأخيرة اتخذت مقراً لملوك الأسرة الحادية والعشرين. وعلى بعد خمسة وعشرين كيلو متراً إلى الشمال من منف عاصمة الدولة القديمة ظهرت مدينة "أون" On المقدسة التي أطلق عليها الإغريق فيما بعد هليوبوليس. وكانت "أون" مقراً لعبادة الشمس وعاصمة ثقافية اشتهر كهنتها بنظرياتهم الدينية[١]. ولم يبق من آثار المدينة العظيمة إلا مسلة عين شمس. وغير بعيد جهة الشمال الشرقي ظهرت في وادي الطميلات مدينتا رمسيس وبيثوم بناها أسلاف اليهود الذين كانوا يرعون ماشيتهم فيما عرف بأرض "جوسن" وتشمل وادي الطميلات والأراضي المحيطة. وفي أقصى الشمال الشرقي للدلتا قامت مدينة "بارا - من" (الفرما) وكانت إحدى مدن الحدود الحصينة، منها بدأت الرحلات والحملات إلى بلاد الشام كما كان يتصل بها سلسلة من المحطات المنتظمة تقوم على حراسة معظم الحدود الشرقية المعرضة للخطر.

وعندما زار هيرودوت مصر في القرن الخامس قبل الميلاد لم يشر إلى كل المقاطعاتNomoi فقد اكتفى بالإشارة إلى الوحدات التي يستمد الملك منها جنوده وعددها ١٨، من بينها سبع لم يرد ذكرها فيما ذكره الكُتَّاب اللاحقون. ومن المدن والقرى لم يذكر هيرودوت غير أسماء ٤٢ فقط معظمها يقع في الدلتا ولو أنه في نفس

---

[*] وردت في الأصل "صان الحجر" . (المحقق).

[١] Hanotaux, G. Op. cit., p. 87.

الوقت يدعى أن كان بمصر أيام الملك أمازيس Amasis (٥٦٩ – ٥٢٦ ق.م) ما يقرب من ٢٠ ألف مدينة[1]. وهذا دون شك مبالغة كبيرة من جانب هيرودوت.

وقد احتفظ البطالمة بالتقسيم الإداري الفرعوني غير أنهم غيروا أسماء المقاطعات المصرية وأعطوا لها أسماء إغريقية جديدة أو ترجمات إغريقية للأسماء الفرعونية القديمة[2]. لكنهم ساروا على قاعدة أخد اسم المقاطعة من اسم العاصمة كما حدث في العصر الصاوي. ونستقي معظم معلوماتنا عن أقسام مصر البطلمية مما كتبه ديودور الصقلي الذي زار مصر في سنة ٥٩ ق.م واسترابون الذي قام بجولة في ربوع مصر في سنة ٢٤ ق م. ومن بين ما ذكره ديودور أن مصر كانت مقسمة إلى ٣٦ مقاطعة أو مديرية ولكنه لم يذكر سوى اسم مديرية واحدة وهي Lycopolite (أسيوط). وتكلم هذا الكاتب أيضاً عن ملكية أرض مصر وعواصمها القديمة طيبة ومنف والإسكندرية دون غيرها من المدن. وقد وصف استرابون البلاد أحسن وصف وأشار إلى أنها كانت مقسمة إلى ٣٦ مديرية ١٠ منها في الدلتا و١٦ في مصر الوسطى و١٠ في مصر العليا (إقليم طيبة) ولكنه خلال وصفه هذا لم يذكر إلا أسماء ٢٣ مديرية معظمها من مديريات الوجه البحري. وقد أبدى استرابون اهتماماً خاصاً بمديرية الفيوم (التي عرفت عاصمتها باسم كروكوديلوپوليس Crocodilopolis) نظراً لغناها واختلاف مظاهر السطح فيها عن بقية مديريات مصر. فكانت تنتج الزيتون بوفرة وبها المدرجات تنتهي في الشمال الغربي ببحيرة مويرس[*]. وقد وقع في الخطأ الذي وقع فيه هيرودوت فادعى أن بحيرة مويرس كان يستفاد بها كخزان لمياه الفيضان وأن هذه المياه كانت ترجع إلى النيل وقت التحاريق عن طريق قناة فيرتفع مستوى الماء في أدنى النهر. أما الإسكندرية فكانت

---

(1) Herodotus, Op. cit, p. 171.

(2) Brugsch Ch. La Geographie de nomes, ou division administrative de la Haute et de la BasseEgypte… Leipzig 1878.

(*) هذا صوابها، وقد كتبت في الأصل "موريس". (المحقق).

قد بلغت قمة مجدها وعظمتها لذلك أطنب في وصفها وفي وصف مرفئها وضواحيها. وقد سجل هذا الوصف القيم في الجزء السابع عشر من كتابه المعروف "بجغرافية استرابون"[1] وكذلك أشار الكاتب إلى منف التي بدأت تضمحل وطيبة التي هجرها أغلب أهلها.

وفي القرن الأول الميلادي ألف بلنيPliny الروماني موسوعته المسماة "التاريخ الطبيعي" ضمنها علوم عصره وذكر فيها مصر وتحدث عن نيلها وأقسامها الإدارية. فذكر أن مصر تنقسم إلى ٤٧ مديرية Nomes or prefectures منها إحدى عشرة مديرية في الصعيد الأعلى جنوبي أسيوط والباقي موزع بين مصر الوسطى والدلتا وعلى ساحل البحر المتوسط وفي منخفض الواحات. وردد بلني ما ادعاه Artemidorus من أن بالدلتا وحدها ٣٥٠ مدينة. ولكنه لم يذكر منها غير ٦١ مدينة فقط اعتبرها أكثر مدن مصر حجماً وشهرة، منها الإسكندرية عاصمة مصر ومدينتها الأولى. ثم جاء بطليموس الجغرافي (القرن الثاني م) ورسم خريطة لمصر الرومانية وبين عليها مواضع كثير من المدن وحدد وظائفها فميز العواصم الإقليمية وأشار إلى المدن الأخرى الأقل أهمية. ومما ذكره يتبين أن مصر كانت تنقسم إلى ٤٧ مديرية (نفس العدد الذي ذكره بلني) وأن أسماء كثير من المديريات مشتقة من أسماء عواصمها.

ولعل أبرز حقيقة يمكن أن نسجلها بعد هذا الحديث أن التقسيم الإداري لمصر ظل طوال العصور الفرعونية وجزء كبير من الفترة الهيلينية ذا نمط خاص لم يتغير في معظم تفصيلاته. فالمقاطعة أو المديرية ما فتئت تكون وحدة إدارية واقتصادية لها حياتها الخاصة وطابعها المميز تقوم عاصمتها كمركز إداري يحكم ويشرف على الأراضي الملكية وكسوق تجاري يستغل موضعه على النيل أو أحد فروعه أحسن استغلال. وحتى

---

[1] يُعد ما كتبه استرابون عن الإسكندرية أهم وثيقة تاريخية عن الإسكندرية القديمة.

جبانة المقاطعة ظلت في مكانها خلال تلك الفترة الطويلة[١]. كانت عاصمة المقاطعة في واقع الأمر هي نافذة على العالم الخارجي وقلبها النابض بالنشاط والحركة ومقر أصحاب الأرض من الطبقة المترفة. وربما يكون ذلك الاستمرار والثبات نتيجة للتشابه في كثير من ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية واتجاهات السياسة الداخلية في مصر.

وقد تغيرت هذه الأوضاع بعد صدور مرسوم دقلديانوس (في صدر القرن الرابع الميلادي) الخاص بتغيير الإدارة وأقسام مصر الإدارية التي عرفتها بصورة تكاد تكون ثابتة قرابة ٤٠ قرناً. ولعل أهم أسباب هذا التغيير ما يتصل بنقص السكان وانخفاض إنتاج الأرض نتيجة للصراع الدموي بين المذاهب الدينية وهجر كثير من الفلاحين للأرض هرباً من ظلم جباة الضرائب والتنكيل بأصحاب الأرض وإقبال كثير من القبط على حياة الرهبنة والعزلة اتقاء لشر الحاكم.

قُسمت مصر على أثر صدور هذا المرسوم إلى عدد أكبر من الأقسام الصغيرة Pagi لكل قسم منها عاصمته وأرضه الزراعية ويتمتع بسلطة كبيرة في إدارة أموره[٢]. وهكذا قضى على أهمية العواصم الإقليمية القديمة وسيادتها وتحولت قرى ومدن كانت مغمورة إلى حواضر للأقسام الجديدة ومراكز للسلطة الدينية. ويبدو أن هذه الأقسام الصغيرة انتظمت فيما بعد داخل إطار "أبروشيات" [*] Eparchies أشار إليها هيروكليس Hierocles في النصف الأول من القرن السادس الميلادي في كتابه المعروف

---

[١] Butzer, K. "Remarks on the Geography of Settlement in the Nile Valley during Hellenistic Times," Bull. De la Soc. De Geog, d' Egypte.Vol XXXIII 1960 p. 12.

[٢] هذه الأقسام هي "الكور" التي عرفتها مصر في صدر الاسلام.

[*] أي مجالس قضائية إدارية، ويجب التنويه إلى أن المصطلحات المسيحية استعارت من النظام الروماني وليس العكس، ومن ثم فأبرشية هنا معنى إداري بحت ولا علاقة له بالدلالة الكنسية. (المحقق)

"برفيق السفر" Synecdemus. ويتضح من الخريطة (الشكل ٨) أن مصر قُسمت إلى سبع أبروشيات كان أهمها جميعاً وأكثرها مدناً (٢٣ مدينة) هي الأبروشية المصرية Aegyptiaca وتشمل الجزء الأكبر من غرب ووسط الدلتا. جاء بعدها من حيث الأهمية أبروشية أوجستا الأولى التي كانت تشمل الجزء الشمالي الشرقي من الدلتا وشمال سيناء حتى العريش Rhinocolura وقام بها ١٣ مدينة هامة. أما بقية الأبروشيات فهي:

١- أبروشية أوجستا الثانية وتقع إلى الجنوب من أوجستا الأولى وتمتد شرقاً إلى كليزما وبها سبع مدن هامة.

٢- أبروشية أركاديا Arcadia وتمتد من رأس الدلتا حتى موضع مدينة المنيا الحالية (يدخل ضمنها منخفض الفيوم) وقامت بها ٩ مدن هامة.

٣- أبروشية طيبة السفلى وتقع إلى الجنوب من أركاديا وينتهي حدها الجنوبي قرب بلدة أخميم ودخلت ضمنها الواحات الخارجة وكان بها ١٠ مدن كبيرة.

٤- أبروشية طيبة العليا وكانت تمتد من جنوب أخميم حتى جزيرة فيلي وظهر بها ١١ مدينة هامة.

٥- أبروشية ليبيا الصغرى وهذه شملت النطاق الساحلى إلى الغرب من الإسكندرية وتبعها أيضاً واحة سيوة ولكن لم تزد مدنها الهامة على خمس.

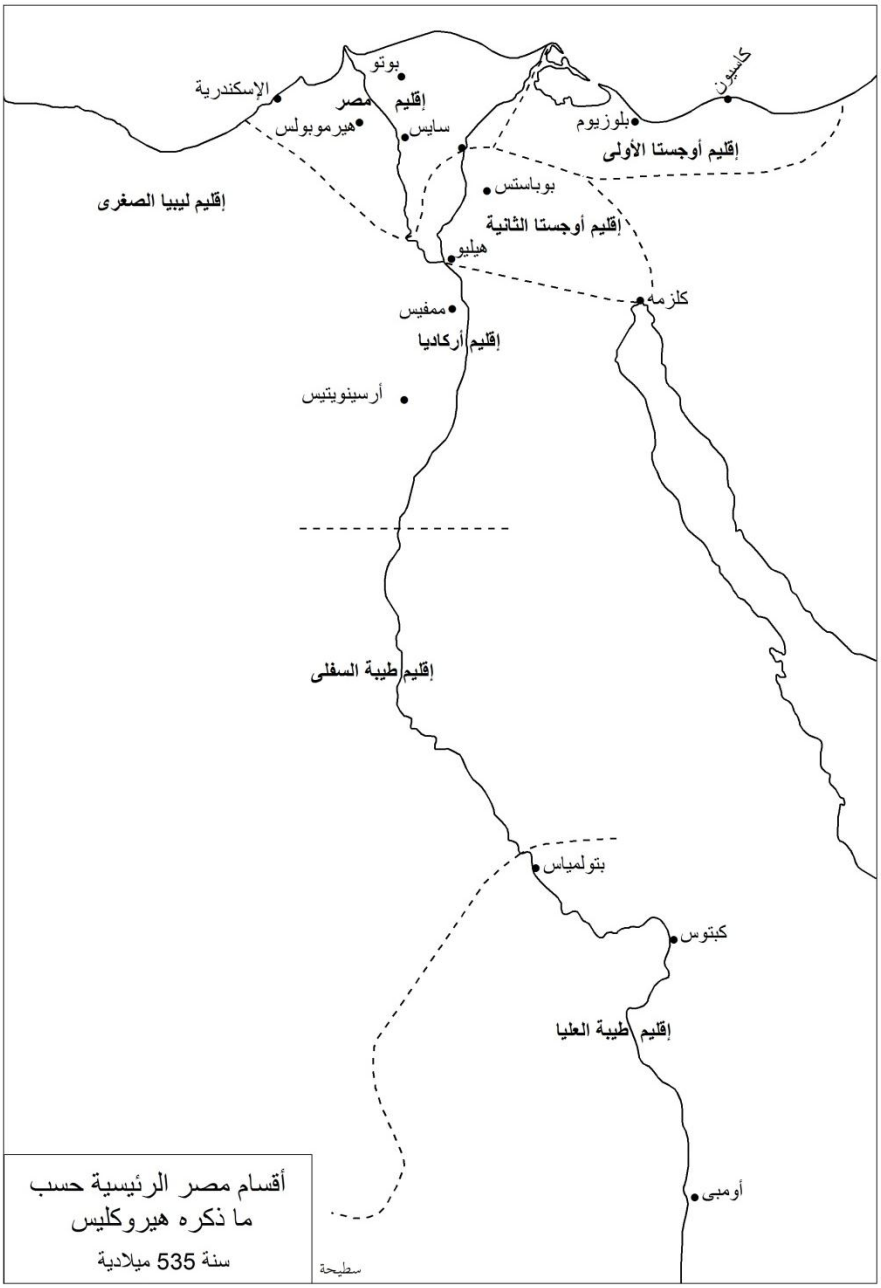
بوتو
الإسكندرية
إقليم مصر
هيرموبولس
سايس
بلوزيوم
كليبون
إقليم أوجستا الأولى
بوباستس
إقليم ليبيا الصغرى
إقليم أوجستا الثانية
هيليو
كلزمه
ممفيس
إقليم أركاديا
أرسينويتيس
إقليم طيبة السفلى
بتولمياس
كبتوس
إقليم طيبة العليا
أومبى
أقسام مصر الرئيسية حسب
ما ذكره هيروكليس
سنة 535 ميلادية
سطيحة

الشكل (٨)

وقبل دخول العرب مصر بنحو ٣٥ عاماً (٦٠٦م) وصف جورج القبرصي العَالَم الروماني ولكنه حين أشار إلى مصر اكتفى بسرد قوائم أسماء المدن المهمة التي أصبحت مراكز للأسقوفيات[*] القبطية. كما أشار تلميحًا إلى الأقسام الإدارية الرئيسية التي كانت تنقسم إليها مصر (الشكل ٩). وإذا ما قارنا التقسيم الإداري الذى أخبرنا به هيروكليس (الشكل ٨) بالتقسيم الإداري الذي ألمح إليه جورج القبرصي نجد أن الاختلاق طفيف فالأبروشية المصرية التي أشار إليها هيروكليس انقسمت إلى أسقوفيتين، شمالية وجنوبية كذلك لم تختلف حدود أبروشيتي أوجستا الأولى والثانية عن حدود أسقوفيتي أوجستمنكا الأولى والثانية. هذا ولم يحدث في الوجه القبلي تغيير في التقسيم الذي حدثنا عنه القبرصي فيما عدا اعتبار واحات البحرية والفرافرة والداخلة والخارجة أسقوفية منفصلة أطلق عليها طيبة العليا.

وقد أبقى العرب في أول عهدهم بمصر على التقسيم الإداري البيزنطي الذي وجدوه[1] وإن كانوا أطلقوا اسم "أسفل الأرض" على الوجه البحري "وأعلى الأرض" على الوجه القبلي. وأطلقوا اسم "الحوف" على أسقوفيتي أوجستمنكا الأولى والثانية، كذلك عرفوا الأسقوفية المصرية الأولى والثانية باسم "الريف". وهنا نلاحظ أن أسقوفية "ليبيا" الرومانية سميت "إقليم الإسكندرية" وقد امتد هذا الإقليم شرقاً ليشمل منطقة رشيد[٢]. أما في أعلى الأرض فغيّر العرب اسم "أركاديا" فأصبح "مقدونية" أو "إقليم العاصمة". وأطلقوا على أسقوفية طيبة "الصعيد" وجعلوا أسوان عاصمة له.

---

[*] استخدم المؤلف هنا كلمة أسقوفية ليعني بها "أبروشية" التي استخدمها في الصفحات السابقة وكلاهما كما أشرنا يعني "تنظيمات إدارية قضائية". (المحقق)

[1] Bell, H. The Administration of Egypt under the Umyyad khalif". Congress of Orientalists'. Oxford 1928.

[٢] راجع الخرائط الملحقة بكتاب:

Toussoun, O. La Geographie de l'Ègypte a l' Epoque Arabe. I. VIII. He caire 1928.

كذلك اعتبرت الواحات كما كان الحال في العصر البيزنطي وحدة إدارية منفصلة. هذه الأقاليم الرئيسية كانت مقسمة في فجر الإسلام إلى نحو ٨٥ كورة كما تخبرنا الوثائق العربية[1]. ولكن هذا العدد أخذ يتناقص على مر الزمن حتى استبدلت الكورة كأساس للتنظيم الإداري بوحدة أكبر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر كما سنشير فيما بعد.

ثم أُدخل تعديل على أقسام مصر الكبرى في القرن التاسع الميلادي. ولكن كل معلوماتنا عن هذا التعديل تقتصر على أسفل الأرض. ففى أوائله صارت أراضي الدلتا ثلاثة أقسام: ١- الحوف الشرقي. ٢- الحوف الغربي ٣- بطن الريف. وكان الحوف الشرقي عبارة عن الحوف القديم ما عدا الأراضي الواقعة شمالي بحر أبي صير. وشمل الحوف الغربي الأراضي الواقعة إلى الغرب من فرع رشيد وكذلك بعض الجهات التي تقع شرقي هذا الفرع إلى الشمال من صان الحجر. أما بقية الأراضي الواقعة بين الفرعين والأراضي شمال بحر أبي صير فسميت "بطن الريف".

---

[1] ا- المقريزي – الخطط – جزء أول – ص ١١٦ وما بعدها.

ب- كلمة "كورة" كلمة إغريقية ومعناها دائرة – (عن Hanotaux, p. 233)

ج- راجع كذلك كتاب الانتصار لابن دقماق الجزء الرابع ص ١٣٣ وما بعدها.

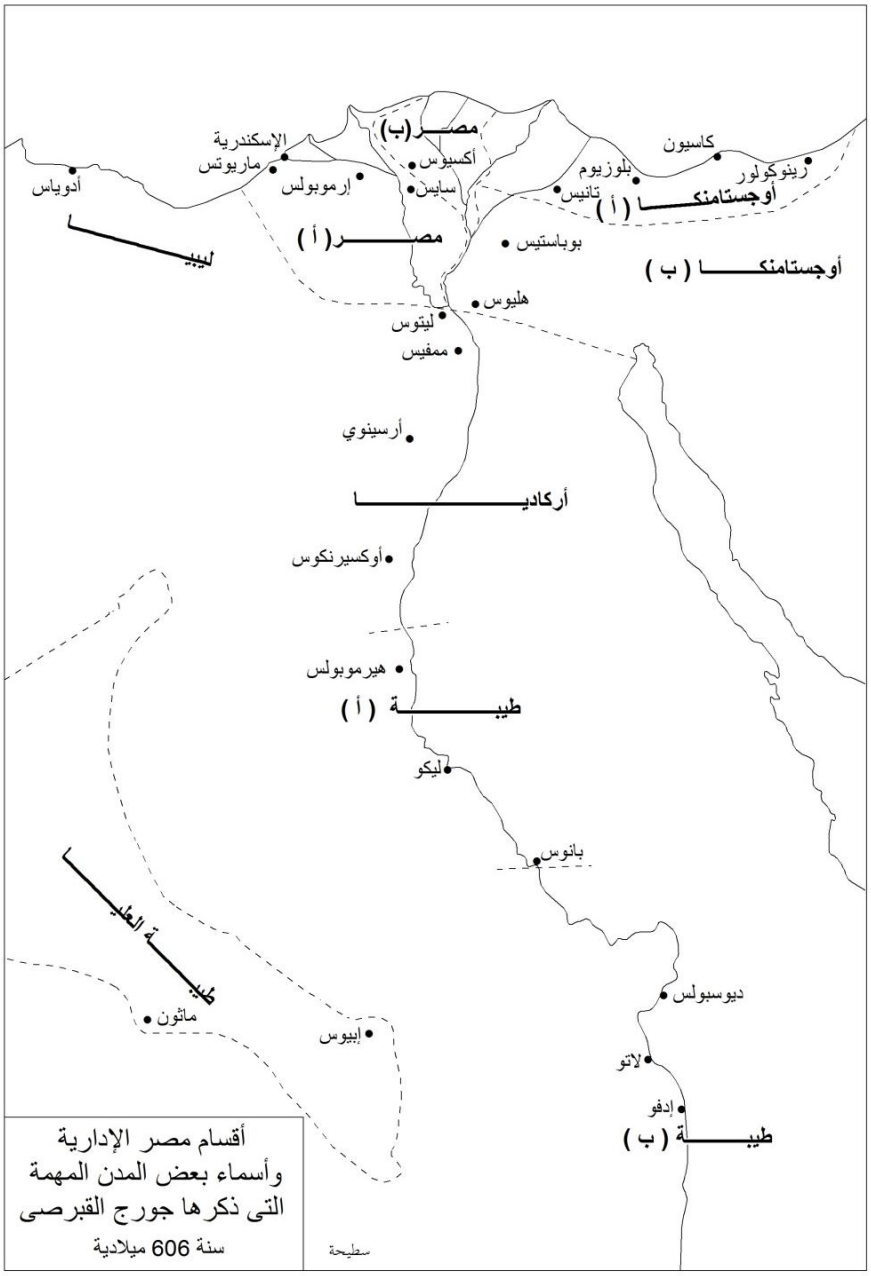
مصـــر (ب)
الإسكندرية
ماربوتس
أكسيوس
إرموبولس
سايس
أدوياس
كاسيون
بلوزيوم
رينوكولور
تانيس
أوجستامنكـــا (أ)
مصـــر (أ)
بوباستيس
ليبيـــا
أوجستامنكـــا (ب)
هليوس
ليتوس
ممفيس
أرسينوي
أركاديـــا
أوكسيرنكوس
هيرموبولس
طيبـــة (أ)
ليكو
بانوس
طيبـــة العليا
ماثون
إيبيوس
ديوسبولس
لاتو
إدفو
طيبـــة (ب)
أقسام مصر الإدارية
وأسماء بعض المدن المهمة
التى ذكرها جورج القبرصى
سنة 606 ميلادية
سطيحة

الشكل (٩)

ثم حدث في أواخر هذا القرن أن قُسم "بطن الريف" إلى قسمين: القسم الشرقي ويضم تسع كور واحتفظ باسم "بطن الريف" والقسم الغربي ويضم إحدى عشرة كورة وعرف باسم "الجزيرة" ومما ينبغي تسجيله هنا أنه منذ دخول العرب مصر حتى أواخر القرن الحادي عشر اقتصر التغيير على الأقسام الكبيرة. أما الكور فظلت في مجموعها كما هي في أنحاء مصر طوال تلك الفترة. ولكن ما أن قارب القرن الحادي عشر على الانتهاء حتى كان التقسيم الإداري لمصر قد أصابه تغيير أساسي. فقد أُلغى نظام "الكور" أو الأقسام الصغيرة التي عرفتها مصر مدة طويلة وكذلك أُلغيت الأقاليم الأربعة الكبيرة التي عُرفت منذ أيام الدولة البيزنطية وحل محلهما نظام "الأعمال" وهي أقسام ضم الواحد منها أكثر من كورة. ولم يبلغنا من أمر هذا التقسيم الجديد شيء يذكر وكل ما نعرفه هو أن كور الدلتا التي بلغ عددها حينذاك ٤٦ كورة صارت اثنين وعشرين عملاً لكل منها عاصمة. وقد ظلت الحال كذلك قرابة قرن من الزمان حتى قام السلطان حسام الدين لاجين بأراكة أرض مصر سنة ١٢٩٠ فأدخل تعديلاً طفيفاً على التقسيم السابق ثم حدث في أوائل القرن الرابع عشر أن أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بأراكة أرض مصر من جديد، وعلى أساس نتائج هذا الروك أُعيد تقسيم مصر إدارياً وأعيد توزيع الأرض على رجال الجيش والأمراء كما أخبرنا ابن الجيعان في كتاب "التحفة السنية". وقد جاء في أخبار هذا الروك أن أسفل الأرض قُسم إلى ١٢ عملاً أو مديرية (الشكل ١٠) بلغ عدد قراها ١٦٧٣ قرية. وكان عمل الغربية هو أكثر الأعمال قرى (٤٧٧ قرية) وكذلك أوسعها أرضاً زراعية (نحو ٧٦٠ ألف فدان). أما أقل الأعمال قرى ومساحة زراعية فكان عمل النستراوية. فُسجل به حينذاك ٦ قرى و١٠ آلاف فدان فقط[1]. وقُسم أعلى الأرض إلى تسعة أعمال بلغ عدد قراها ٦٧٩ قرية. وكانت الأعمال من الشمال إلى الجنوب هي: الجيزية، الأطفيحية، الفيومية، البهنساوية، الأشمونين،

---

[1] عمر طوسون – كتاب مالية مصر – القاهرة، ١٩٣١ ، ص ٧٦٠ وما بعدها.

المنفلوطية، الأسيوطية، الأخميمة والقوصية. وكان أوسعها وأكثرها قرى هو عمل البهنساوية (نصف مليون فدان) وأصغرها هو المنفلوطية (نحو ٣٠ ألف فدان). إلى جانب هذه الأعمال التي انقسمت إليها الدلتا والصعيد كان هناك "كور" الواحات في الصحراء الغربية والطور والقلزم وآيله والفرما والعريش ومريوط ولوبية ومراقية وكلها كما هو واضح أقسام حدية تستقبل بعض الصادر والوارد وتسهم في جمع المكوس المفروضة على التجارة لذلك وجد من الأفضل تركها قائمة دون إدماج.

وإن دل هذا التغير الجديد على شيء فعلى نقص عدد السكان بالقياس إلى ما كانوا عليه قبل القرن الرابع عشر[١] فقد سجل الروك الناصري مثلاً ١٠٠ قرية ومدينة في إقليم الفيوم بينما بلغ ما كان به في العهد الروماني ١٤١ قرية ومدينة[٢] وكذلك يشير إلى انكماش الرقعة الزراعية. فقد انتشرت الأرض البور في شمال الدلتا والفيوم وقلت العناية بمشاريع الري وطالت أوقات الشدة. وقد ازداد تدهور الزراعة واستمر نقص السكان بعد القرن الرابع عشر نتيجة لتوالي المجاعات والأوبئة ولعدم استتباب الأمن وانتشار الفوضى والفتن وازدياد نفوذ رؤساء القبائل الوافدة على وادي النيل وتحديهم سلطة الحكومة وتحكمهم في الفلاحين. ثم كان أن فقدت مصر المال الكثير الذي كانت تحصل عليه من تجارة المرور بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء إلى البحار الشرقية فتدهورت أحوالها الاقتصادية وأصبحت فريسة لجيش سليم الأول الزاحف من الشام.

ولم يغير الأتراك العثمانيون من التقسيم الإداري الذي أمر به قلاوون شيئاً وظل معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر حين دخلت الحملة الفرنسية مصر. في ذلك

---

[١] يرى Butzer أن عدد سكان مصر في الفترة الإغريقية الرومانية بلغ نحو ٧.٨٠٠.٠٠٠ نسمة ثم أخذ يقل بالتدريج خلال العصرين العربي والعثماني حتى انخفض إلى ما يقرب من ٢.٥ مليون نسمة في أواخر القرن الثامن عشر عن.
Bull, Soc de Geog. Egypte T XXXIII, p.7.

[٢] Ibid, p. 8.

الوقت كانت الأراضي الزراعية قد انكمشت وتقهقر حدها الشمالي نحو الجنوب كما رأينا. أما السكان فلم يزد عددهم على ٢ ١/٢ مليون نسمة. لذلك عمدت سلطات الاحتلال الفرنسية إلى إلغاء إقليم النستراوية في شمال الدلتا وضم جزئه الغربي إلى إقليم رشيد الذي حل محل إقليم فوه وضُم جزئه الشرقي إلى إقليم الغربية. وأُدمج الجزء الشمالي الشرقي من إقليم الغربية والشمالي الغربي من إقليم الدقهلية والمرتاحية إلى إقليم دمياط وضم ثغر الإسكندرية إلى إقليم البحيرة ودخلت ضواحي القاهرة ضمن إقليم القليوبية[1].

---

[1] قُسم الوجه البحري في سني الحملة الفرنسية إلى ثمانية أقاليم إدارية هي: إقليم القليوبية وعاصمته قليوب والشرقية وعاصمته بلبيس والمنصورة وعاصمته المنصورة ودمياط وعاصمته دمياط والغربية وعاصمته المحلة الكبرى والمنوفية وعاصمته منوف ورشيد وعاصمته رشيد والبحيرة وعاصمته دمنهور. أما التقسيم الإداري للصعيد أيام الحملة فلا يختلف كثيراً عما هو عليه الآن.

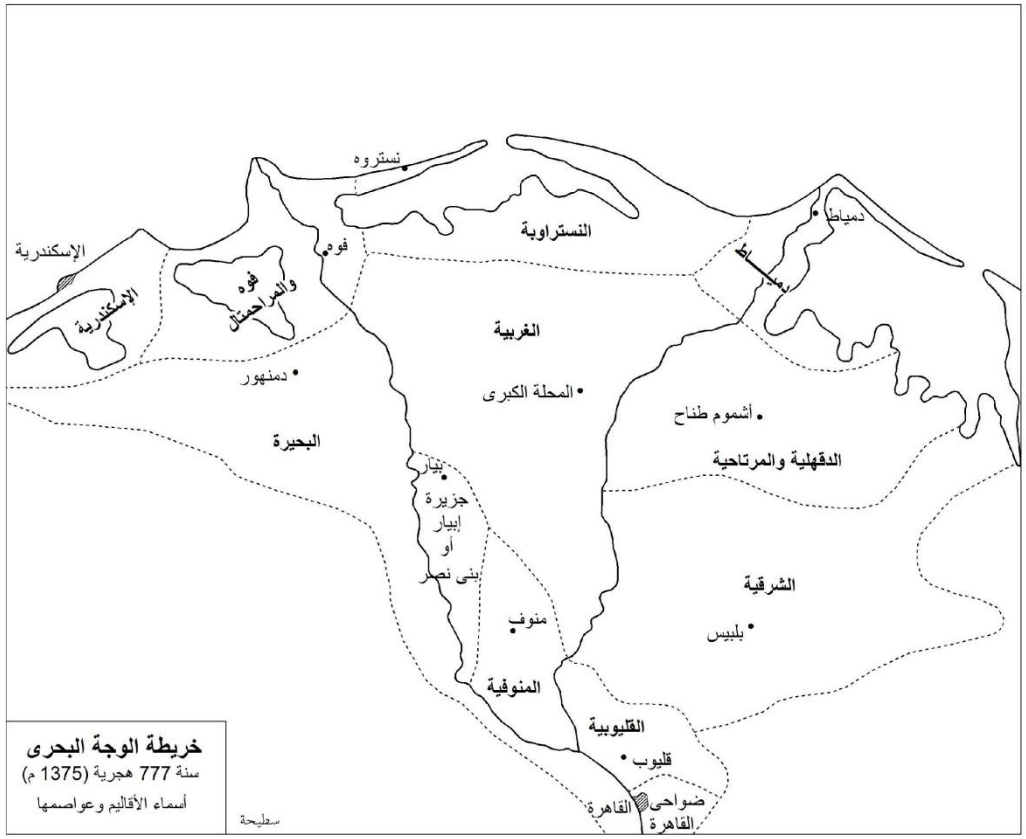

خريطة الوجة البحرى
سنة 777 هجرية (1375 م)
أسماء الأقاليم وعواصمها

الفصل التاسع :

عواصم مصر

حدثت الثورة المدنية الأولي في مصر وسومر[*] وربما في السند في وقت واحد ونتيجة لأسباب متشابهة[1]. حدثت في أوائل الألف الرابعة قبل الميلاد بعد أن زادت معرفة الإنسان وكثرت تجاربه وتوفّر له كثير من أسباب الحضارة المادية. فقد اخترعت الكتابة وسجلت بعض المعارف واستُخدم المعدن على نطاق أوسع واستُعمل "الدولاب" في صنع الأواني الفخارية والعجلة في النقل واستحدث المحراث واستُعين بالحيوانات في حمل الأثقال[2]. وقد ساعدت هذه المخترعات والمستحدثات من غير شك على زيادة إنتاج الطعام وفي نفس الوقت يسَّرت نقله من مكان إلى آخر. فتهيأت الظروف التي تسمح بتوفير الغذاء لأفراد من المجتمع انقطعوا لأعمال أخرى غير إنتاج الغذاء. بدأت قصة المدينة حينما كف بعض أهل القرية عن السعي لتوفير المطالب الضرورية بعد أن ضمنوا الحصول عليها أو ربما بدأت عندما تجمع نفر من الناس في مكان معين يسهل وصول الغذاء إليه بكميات كافية ويسمح بمباشرة أمور الإدارة والحكم وإقامة الشعائر الدينية بطريقة مرضية. ومنذ أن ظهرت المدينة وهي دائماً منار للعلم وقوة للدين ومهد للفنون والصناعات وحلقة الصلة بين الثقافات المختلفة.

وينبغي أن نشير إلى أن هذه المدن الأولى ظهرت في أقطار خصبة تقوم فيها الزراعة (زراعة الحبوب) على مياه الأنهار وما يتطلبه ذلك من مشاريع وتنظيم وتضافر الجهود. وكان لذلك أثره على إنتاج الأرض. فقد فاض عن حاجة السكان لأول مرة في تاريخ البشرية بدرجة تضمن لمن لا يقوم بالحرف الأولية أن يجد ما يسد حاجته[3]. بل لقد قامت التجارة وتبادل الناس المنافع وتحول الاقتصاد بعض الشيء من الاكتفاء الذاتي إلى الاعتماد على بعض منتجات العالم الخارجي. وقد استلزم ذلك وجود سلطة

---

[*] وردت في الأصل "صومر". (المحقق)

[1] Childe, G. Man Makes Himself London 1951, p. 168.

[2] Ibid., pp. 105 – 137.

[3] Smailes, D The Geography of Towns London 1953, chap. I.

(على رأسها أمير أو ملك) لتدير وتنظم الأمور. استقرت هذه السلطة في محلات متواضعة مثلث طلائع المدن، ثم عاشت جنباً إلى جنب مع رجال الحكومة طوائف من رجال الدين والصناع والتجار ونفر من الزراع والرعاة والصيادين أيضاً.

وقد سمحت ظروف وادي النيل ومجتمعه بقيام مدنية قبل أن يلوح فجر التاريخ. ففي عصر ما قبل الأسرات استطاع المصريون بالعمل المشترك والنظام استخدام مياه الفيضان في الزراعة فأنتجت الأرض من كل الثمرات مافاض عن الحاجة. فقامت تجارة داخلية اتخذت من نهر النيل وفروعه سبلاً سهلة رخيصة. وابتدعت مصر كذلك نظماً للإدارة والحكم وتقدمت فيها الفنون التشكيلية وتمكن الدين من قلوب الشعب ولون حياتهم بلون خاص. هذه هي المقومات الأولى للحياة المدنية في مصر. وقد اكتملت هذه الحياة في رأي شيلد G. childe يوم أن ظهرت مصر التاريخية الموحدة[1]، ويوم أن تحول الاقتصاد المصري تحولاً واضحاً من اكتفاء ذاتي ضيق إلى اعتماد بعض منتجات البلدان المجاورة كالأخشاب والبخور والأحجار الكريمة.. إلخ[2]. فقامت تجارة خارجية أشرنا إليها فيما تقدم.

ظهرت المدن المصرية الأولى كعواصم للمقاطعات التي انقسمت إليها مصر الفرعونية. فتحت أيدينا نص من بني حسن يرجع إلى الأسرة الثانية عشرة يذكر "أنه عندما يريد الملك أن ينشيء مدينة يقوم بفصلها عن المدينة القريبة بحدود تقف عليها علامات خاصة من الحجارة تبين نهاية ما يخصها من أرض زراعية وأشجار ورمال وماء". وتكون المدينة وما يحيط بها من أرض وما يظهر بها من قرى المقاطعة الجديدة[3]. وقد

---

(1) Childe, G. (1951) p. 159.
(2) Ibid.
(3) ا- Hanotaux, G. Op. cit., pp. 155 – 56.
ب- يبدو أن هذا الحديث ينطبق على المقاطعات التي نشأت في ضوء التاريخ ولم تكن لها أصول سابقة كمقاطعتي منف والفيوم.

سبق أن أشرنا إلى بعض العواصم المحلية الفرعونية إشارات كثيرة ولمحنا إلى مصايرها التي انتهت إليها في العصر الروماني ورأينا كيف تغير النمط التوزيعي للعواصم المحلية القديمة وكيف تحول إلى نمط آخر لعل أهم ما يميزه عدم ثباته لفترات طويلة بسبب ظهور المدن بغير قيود – قيود التقسيم الإداري القديم - وظهور سمات تنبىء بانكماش الحياة المدنية[١]. وهذا في واقع الأمر ما حدث في العصر البيزنطي وما تلاه من عصور. فقد ظهرت المدن بغير ضابط على أثر تغير التقسيم الإداري كما أسلفنا. وصاحب ذلك أيضاً اضمحلال تدريجي في حياة أغلب العواصم المحلية القديمة.

ولم تكن حياة سكان الحواضر الفرعونية وغيرها من المدن تختلف كثيراً عن حياة أهل الريف المجاور. كانت الحاضرة مجرد مكان حصين يحوطه سور أو خندق دائري تلجأ إليه كل مساء طوائف الزراع والرعاة والصيادين حيث تقضي الليل مع طوائف أخرى مستقرة من أصحاب الحرف اليدوية والتجار وموظفي الحكومة. أما موضعها فهو عند ملتقى الطرق التي يصنعها النيل وفروعه وقنواته ليسهل اتصالها بالعالم الخارجي. وكانت مبانيها بسيطة متواضعة في معظمها، تبنى من الطين والقش والأغصان والغاب. وتقف متزاحمة على طول أزقة ملتوية وطرقات متربة حول السوق وبقرب معبد الإله وقصر فرعون "ممثلة على الأرض"[٢]. وكان هناك غير المساكن مخازن الغلال ومستودعات البضائع وحظائر الماشية ومعامل أصحاب الحرف اليدوية وحوانيت التجار فضلاً عن دور المصالح الحكومية المختلفة بأعمدتها المميزة. هذا ولا يمكن لأي زائر أن يخطىء المعبد وقصر الحاكم فهما يقفان في جلال ورهبة تتضائل بالقياس لهما بقية الأبنية والمنشآت. وهنا ينبغي أن نشير إلى أن إله الحاضرة كان له السيادة الدينية على المقاطعة ويؤكد ذلك إطلاق اسمه على الحاضرة والمقاطعة معاً. فكانت عاصمة

---

(١) Butzer (1960) Op. cit., pp. 82 – 33.
(٢) Moret. A. (1960) Op. cit., p. 41.

المقاطعة مثلاً تسمى بيت (per) أو قصر (Het) أو مدينة (Nut) كذا من الآلهة[١]. وقد يقوي عُبَّاد أحد الآلهة فينتشر نفوذهم ونفوذ كهنته في البلاد وربما يظهر منهم الملوك وتتحول مدينتهم أو مدينة أخرى (يختارونها أو ينشئونها) إلى عاصمة البلاد. وقد حدث مثل ذلك قبل أن يبدأ التاريخ فقد تمكنت المدينة المزدوجة "نخب ونخن" من أن يكون لها السيادة وتصبح المدينة الأولى في مملكة الجنوب وفي نفس الوقت استطاعت بوتو Buto أن تحتل مركز الصدارة وتصبح عاصمة مملكة الشمال[٢].

وعندما وحد مينا الوجهين ولبس تاجاً يرمز إلى الشمال والجنوب لم يشأ أن يجعل العاصمة طينة Thinis مسقط رأسه لتطرف موقعها نسبياً. فأنشأ "الحائط الأبيض" (منف فيما بعد) في مكان متوسط بين أرض الشمال والجنوب لتكون عاصمة مصر الموحدة "ولتحفظ التوازن بين الوجهين" وقد كان موفقاً في ذلك أعظم التوفيق[٣]. وتذكر الوثائق التاريخية أن مينا بني "الحائط الأبيض" أو "المكان الجميل" بعد أن شيد جسراً ضارباً في النهر إلى الجنوب منها وقد أدى ذلك إلى تحول مجرى النيل قليلاً نحو الشرق فظهرت أرض جديدة على الضفة الغربية هي التي بني عليها مينا عاصمته تلك.

---

(١) أ - Ibid, p. 49.

ب- استمر هذا التقليد في العصر الإغريقي كما سبق أن أشرنا.

(٢) أ - Breasted, A. (1935) Op. cit. pp. 33 – 44.

ب- انقسمت كل من هاتين العاصمتين إلى حيين، حي مقدس يقوم فيه المعبد وحي ملكي يقوم فيه قصر فرعون.

(٣) أ - Breasted p. 37.

ب- ممفيس (منف) هو الاسم الذي أطلقه الإغريق على "الحائط الأبيض" ويقال أنه تحريف "من – نوفر Men – nofer الاسم الذي أطلق على هرم بيبي الأول. – عن Breasted, p. ١٣٣

ولكن C. Haswell يرى أن الجسر لم يبن لهذا الغرض وإنما لوقف نحت النهر للانثناء الذي كانت تقوم عليه "الحائط الأبيض"[١].

بيد أنه لم يكتب "للمكان الجميل" أن تظل عاصمة لمصر طوال حكم الأسرتين الأولى والثانية (نحو ٤٠٠عام) فقد ارتدت عاصمة البلاد إلى الداخل ،إلى طينة وغيرها من المدن الملكية التي ظهرت في مصر الوسطى. وهكذا ذهب من "الحائط الأبيض" سلطانها الذي كان لها أيام مينا وإن بقى لها من مظاهر الملك تتويج فرعون والاحتفال بأعياد ميلاده[٢].

ولا ندري سبب ارتداد العاصمة إلى الداخل على وجه اليقين. ولكن يغلب على الظن أنه يرجع إلى ظهور العصبية الإقليمية الكريهة من جديد وتجدد الشقاق بين الشمال والجنوب طوال حكم الأسرتين الأولى والثانية وقد خرج برستد A. Breasted من دراساته بأن مواقع المدن الملكية التي ظهرت في الأسرة الثانية كانت تقترب تدريجياً من "المكان الجميل" حتى اختيرت "المكان الجميل" نفسها عاصمة للبلاد من جديد في عهد الأسرة الثالثة (٢٩٨٠ – ٢٩٠٠ ق.م) وظلت كذلك حتى نهاية الأسرة الثامنة أي قرابة ٥٠٠ عام[٣]. ويبدو أن انتشار نفوذ الإله رع معبود مدينة أون On (Heliopolis) هو الذي جذب مركز الملك نحو الشمال حتى تكون العاصمة الملكية قريبة من العاصمة الدينية وحتى يكون فرعون قريباً من حاميه وناصره رع وهكذا استبدل ملوك منف راعيهم وحاميهم "حورس" إله طينة برع إله هليوبوليس. وقد ازدهرت منف في عهد الدولة القديمة أيماً ازدهار وامتدت شمالاً حتى اتصلت بمشارف هليوبوليس. وعلى الرغم من زوال الملك عنها بزوال الدولة القديمة فقد ظلت مدينة عامرة حصينة قرون

---

(١) Haswell, C. Cairo – Origin and Development. Bull. De la soc.Sult. De Geogvolxl. 1922. pp. 171 – 72.

(٢) أحيى البطالمة هذا التقليد فكان الملك منهم يتوج ويتقلد مهام منصبه في ممفيس.

(٣) Breasted, A (1935) pp 597 – 98.

كثيرة[1] حتى بدأ نجمها في الأفول بعد تعرضها لغزوات الأثيوبيين والأشوريين والفرس[2]. وقد قدمنا أنه عندما زار استرابون مصر لاحظ ما حل ببعض أجزائها من خراب ومع ذلك "كانت لا تزال كثيرة السكان تأتي بعد الإسكندرية في الأهمية[3]. ولا شك أيضاً في أن قيام الإسكندرية لتكون عاصمة كان عاملاً حاسماً في انحدار منف وهبوطها إلى المركز الثاني بين مدائن مصر[4]. وقد اختفى سور المدينة واختفى معه معظم مبانيها في العصور الوسطى ويرجع ذلك كما أخبرنا عبد اللطيف البغدادي (القرن ١٣م) إلى أن السلاطين وسكان القاهرة كانوا يأخذون أحجار مبانيهم وأعمدتها من أطلال منف. وقد أنكر البغدادي هذا العمل ونادى بضرورة المحافظة على الآثار والهياكل القديمة وذلك لأنها على حد قوله سجلات للتاريخ وشواهد تؤكد ما جاء في القرآن وعبر للأحياء وصور تعرض أسلوب الأقدمين في الحياة ودلائل على غزارة علمهم ودقة تفكيرهم[5]. وإذا كانت مدينة الأحياء هذه لم يبق منها غير حطام تماثيل وبقايا مبان تنتشر بين النخيل قرب قرية ميت رهينة فإن جبانة منف أو "مدينة أمواتها" لا زالت باقية على حافة الصحراء الغربية تؤكد قدم تاريخ مصر واستمراره وتشهد بعمق إيمان المصريين بالحياة الثانية. وتمتد الجبانة من الشمال إلى الجنوب أكثر من ٢٠ ميلاً تضم ٦٠ هرماً بعضها متهدم وبعضها لا زال باقياً، إلى جانب كثير من الهياكل والمعابد وكذلك المقابر المنقورة في

---

(1) أ - Diodorus of Sicily. The Library of History.Trans.By. C. Oldfather, Vol. I, London 1933 p 50.

ب- تبين من وصف ديودور الصقلي لمنف (القرن الأول ق.م) أن طول محيطها بلغ نحو ٢٨ كم وحماها من جهة الجنوب جسر ضخم من اللبن وأحاط بها من الجهات الأخرى خندق به ماء.

(2) أ - Poole, R, S. The Cities of Egypt. London 1882, p. 19.

ب- Herodotus. op. cit., p 178.

(3) استرابون في مصر ص ١٤.

(4) Poole, R. S. op. cit., p. 178 & 187.

(5) راجع كتاب الإفادة والاعتبار. طبعة باريس ١٨١٠.

الصخر. ولعل أروع آثار مدينة الأموات بل أروع آثار مصر هي أهرامات الجيزة عنوان المجد القديم.

أما طيبة (واست) عاصمة الإقليم الرابع وعاصمة مصر بل والعالم القديم لعدة قرون فكانت في أول أمرها مدينة صغيرة تكون مع إقليمها وحدة اقتصادية واجتماعية لها إلاهها المحلي ولها أطماعها وقت ضعف الحكومة المركزية. وقد بدأ نجم المدينة في الصعود في أوائل عهد الأسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ ق.م) التي أسسها حكام طيبة بعد أن انتصروا في حرب التوحيد على ملوك أهناسيا أصحاب الأمر في الدلتا ومصر الوسطى. ولما كان إله طيبة المحلي (مونت) إلاها صغير مغموراً لا يصلح أن يكون إلاها للدولة فقد استعار ملوكها الإله آمون (أحد آلهة مدينة الأشمونين) ليكون إله دولتهم الجديدة. وهكذا قدر لطيبة أن يكون لها السيادة الدينية والدنيوية معاً واستمر حكمها أكثر من ثمانية قرون ظهرت خلالها أسر ملكية تنتمي إلى الدولة الوسطى والحديثة. ولكن هذه المدة لم تكن متصلة فقد تخللتها فترات قصيرة انتقلت فيها العاصمة إلى الشمال. فيحدثنا التاريخ أنها انتقلت إلى "شدت[1]" (مدينة الفيوم) في عهد بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة وخاصة أمنمحعت الثالث بسبب زيادة الاهتمام بتعمير منخفض الفيوم وإقامة بعض مشاريع الري الكبرى به. ثم انتقلت بعض الوقت إلى "أخيتاتون[2]"

---

[1]" شدت" اسم فرعوني قديم معناه "المنقذة" أو "المنتزعة" نسبة إلى أن موضعها انتزع من البحيرة التي كانت تشغل مساحة واسعة من المنخفض – عن W. Petrie. A History of Egypt.Vol.I, 1894 p. 192.

[2] احتلت "أخيتاتون" رقعة واسعة على الضفة الشرقية للنيل بلغ طولها من الشمال إلى الجنوب أحد عشر كيلو متراً ونحو كيلو متراً ونصف من الشرق إلى الغرب وقد أقام أخناتون عدداً من اللوحات الحجرية حدد بها حدود المدينة والأراضي التابعة لها على جانبي النيل لا زال بعضها قائماً حتى الآن Petrie Vol I. p. 210. ومما يسترعى الانتباه أن هذه المدينة الكبيرة لم تكن مسورة ربما لاتساع رقعتها ولكنها امتازت بكثرة الحدائق وكثرة الأشجار على جانبي الطرق وكان يتوسط هذه العاصمة الجديدة معبد أتون الذي اتصل بالقصر الملكي. وهنالك إلى =

(تل العمارنة) بعد أن تحدى أخناتون كهنة آمون في طيبة وأعلن دين التوحيد الجديد. ثم انتقلت مرة ثالثة إلى تانيس[1] في شمالي شرق الدلتا عندما زاد اهتمام الدولة بالأحوال السياسية في جنوب غربي آسيا وبعد أن توثقت العلاقات التجارية مع شعوبه.

وعلى الرغم من تطرف موقع طيبة وبُعدها عن الوسط فقد اختيرت عاصمة للبلاد ربما لرغبة حكام طيبة في أن يضمنوا ولاء أهل جنوب الوادي الذين آزروهم في حرب التوحيد وأعانوهم على طرد الهكسوس من البلاد. وربما أيضاً لرد بعض جميل أهل طيبة عليهم. ومهما يكن من شيء فلا يخلو موقع طيبة من قيمة وجمال. فقد قامت المدينة الحقيقية (مدينة الأحياء) في سهل زراعي فسيح يبلغ عرضه نحو ثمانية أميال يشتهر بتربة عظيمة الخصوبة وإنتاج متنوع وفير. والحق أن ظروف الطبيعة تعاونت لإكساب الموقع أهمية خاصة. فالمدينة إلى جانب انتفاعها بالنيل كطريق للاتصال بين

= الشمال والجنوب من القصر الكبير انتشرت قصور الأشراف ومنازل الأتباع بغير نظام. غير أنه لم يخصص أهل أخيتاتون جبانة لهم على الشاطىء الغربي كما هي العادة عند المصريين القدماء الذين اعتبروا الغرب المكان المخصص للموتى، بل إن كلمة الغرب في اللغة المصرية استعملت للتدليل على الجبانة. كانت مقابر أخيتاتون منقورة في التلال الصخرية التي تحد المدينة من ناحية الشرق، ولابد أن هذه الظاهرة ترجع كما يقول الدكتور عبد المنعم أبو بكر إلى أن ديانة "أتون" جعلت للشرق أهمية تفوق الغرب إذ هو المكان المقدس الذي يشرق منه الإله. وقد انتهت كعاصمة بانتهاء حكم أخناتون.

[1] كانت تانيس مدينة متواضعة أيام الأسرة السادسة ولكنها ازدهرت في عصر الأسرة الثانية عشرة التي حكمت من طيبة. وقد امتاز موقعها بقيمته الدفاعية والتجارية معاً. فقد كانت تقع على الحدود الشمالية الشرقية حيث تلتقي الطرق البرية والنهرية وكانت في نفس الوقت تستقبل السفن القادمة من بلدان شرقي البحر المتوسط. وقد أصابها بعض الاضمحلال في عهد الفوضى والاضطراب الذي بدأ بحكم الهكسوس. لكنها بقيت على الرغم من ذلك نافذة مصر على العالم الخارجي. ثم مهدت الظروف لاختيارها عاصمة لمصر في بعض أيام الأسرة التاسعة عشرة ثم خلال حكم الأسرة الواحدة والعشرين – عن R. S. Poole. op. cit., pp. 70 – 75.

الشمال والجنوب تقع على ثنية من ثنياته الكبيرة تقربها من البحر الأحمر. ومن ناحية أخرى تقوم الوديان العرضية التي تخترق الصحراء الشرقية كدروب سهلة الاختراق تربط بينها وبين ساحل البحر. ويتسع النيل أمام طيبة لوجود بعض الجزر (الشكل ١١) وإذا ما عبرناه تطالعنا حافة الهضبة الغربية شامخة (تصل في بعض الأماكن إلى ٢٠٠ قدم فوق سطح البحر) تقف غير بعيد من النهر مما يزيد "مدينة الأموات" في بطون الوديان جلالاً ورهبة. في هذه البقعة من جنوب الوادي نشأت طيبة ونمت لتصبح "مدينة الأبدية" و"مدينة المدن" كما أحب أهلها أن يسموها.

بيد أن طيبة لم تزدهر وتصبح "مدينة المدن" إلا بعد قيام الأسرة الثانية عشرة (١٥٠٠ ق.م) فقد تحولت من عاصمة وطنية إلى عاصمة إمبراطورية يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، تفيض خزائنها بالذهب وأسباب الترف الأخرى وتنتهي إليها المغانم والتجارات براً وبحراً وتخرج منها الحملات وتغص بالرقيق ويساق إليها الأسرى تتبعهم حيواناتهم من ماشية وماعز وأغنام. منذ أكثر من ٣٣٠٠ سنة إذن كانت طيبة قد بدأت عصرها الذهبي – عصر الامبراطورية. المال في الخزائن وفير وغني الفراعنة عريض والأيدي العاملة من الرقيق والأسرى والمصريين كثيرة رهن الإشارة وحب آمون متغلغل في القلوب. لذلك لم يكن غريباً أن تتسع رقعة المدينة وتزدحم بسكانها ويتبارى الملوك في تمجيد آمون وتعظيمه بإقامة المعابد والمسلات والأقواس والاحتفالات الدينية. وعلى قدر ما انشغل الملك وكبار القوم بالحياة الدنيا فقد اهتموا بالحياة الأخرى. فأقاموا المعابد الجنائزية وأعدوا المقابر المنحوتة في الصخر وزينوها بالنقوش والصور وزودوها بكل ما ينفع الميت في حياته الثانية وهكذا ظلت طيبة خلال عصر الإمبراطورية (نحو ٢٥٠ سنة) زاهرة قوية وعاش ملوكها وسادتها حياة الأبهة والرفاهية لا تفنى أجسادهم بانتهائها وإنما تبقى على الزمن محنطة في مقابرها العميقة بالبر الغربي انتظاراً للحياة الثانية.

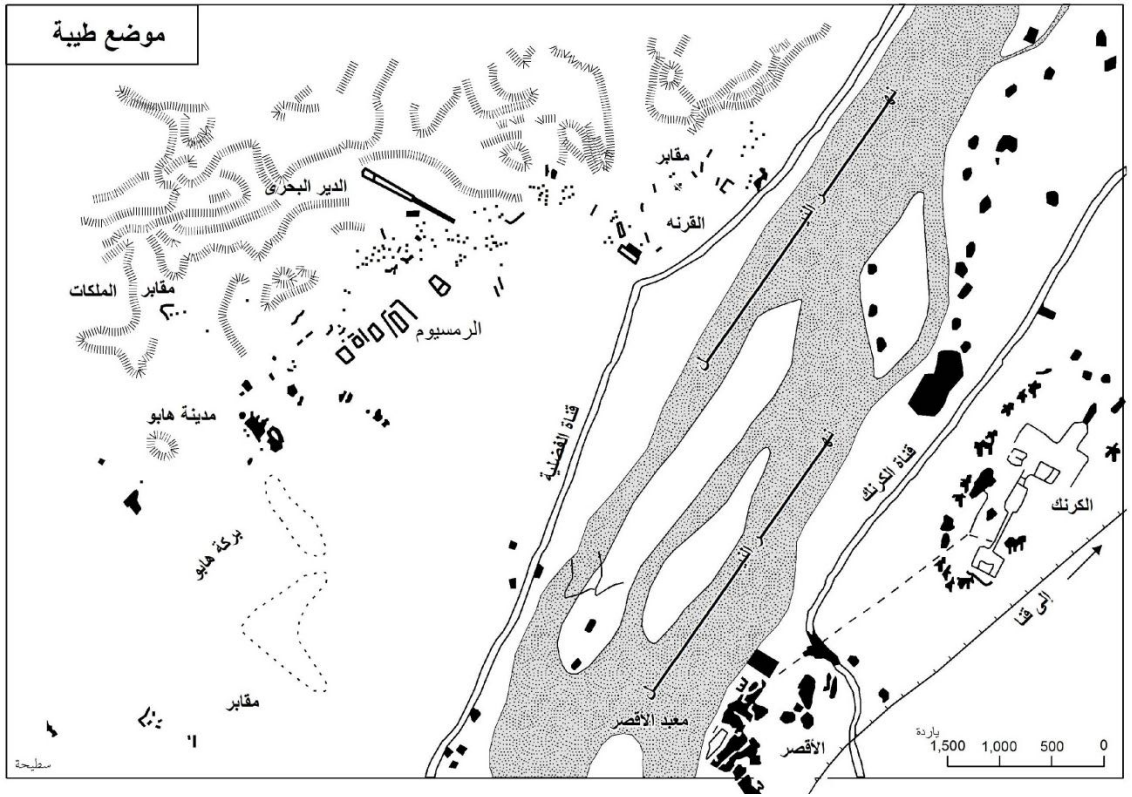
موضع طيبة
الدير البحرى
مقابر
القرنه
مقابر
الملكات
الرمسيوم
مدينة هابو
قناة الفضلية
قناة الكرنك
الكرنك
بركة هابو
الى قنا
مقابر
معبد الأقصر
الأقصر
باردة
1,500 1,000 500 0
سطيحة

الشكل (١١)

ومن الواضح أن طيبة انقسمت إلى قسمين: قسم للأحياء في الشرق وقسم للأموات في الغرب، فيما وراء النهر. وكان القسم الشرقي يكون في مجموعه مدينة ضخمة لا يبلغ البصر مداها، تمتد بين مجموعتي المعابد الضخمة التي أقيمت لعبادة الإله آمون في الأطراف الشمالية والجنوبية. فيها قام قصر فرعون تحيط من حوله دواوين الحكومة وقصور الأمراء والنبلاء ورجال الحاشية ومعسكرات الجند ومساكن الكهنة والموظفين من كل فئة. وتزاحمت بالقرب من تلك القصور والمساكن الحوانيت الصغيرة ومعامل أصحاب الحرف اليدوية وعلى مشارف المدينة قامت أكواخ يسكنها بعض الفلاحين والرعاة[1]. كان مجتمعها خليطاً عجيباً من الأحرار والأرقاء، من الزنوج وغير الزنوج، من الأفريقيين والآسيويين، من السادة المترفين والعمال الكادحين. ولم تكن الحرف أقل تنوعاً. فإلى جانب رجال الحاشية وموظفي الحكومة كان رجال الدين والعمال على اختلاف مهاراتهم وصنائعهم والتجار ورجال الجيش والشرطة والفلاحون. وإذا أخذنا في اعتبارنا مبلغ غني المدينة واتساع رقعتها فيمكن القول إن سكانها بلغوا مئات الألوف[٢]. ولم تكن "مدينة الأموات" كلها للأموات، فقرب النهر وعلى الأرض السوداء أُنشئت كثير من القصور الملكية وما يتبعها من حدائق وحظائر ومخازن وكذلك بنيت كثير من الدور لموظفي الملك وخدمه ومهندسي المقابر وعمالها وصناع التوابيت والمشتغلين بتحنيط الجثث. وإلى الغرب من هذه الضاحية كانت مقابر الملوك والملكات تختفي في جوف الأرض في بعض وديان الصحراء الغربية. والمقابر الملكية دهاليز وأبهاء عظيمة يصل عمق بعضها إلى أكثر من ٣٠٠ قدم تحت سطح الأرض وتغطي جدرانها وسقوفها روائع الصور والأشكال وكثير من النصوص الجنائزية. وقام إلى جانب هذه المقابر صف طويل من المعابد الجنائزية امتد بصفة عامة من الشمال إلى الجنوب. أما مقابر النبلاء ورجال الحاشية وكبار موظفي الدولة فتوجد بالآلاف منقورة في أعلى

---

(1) Moret, A. Op. cit. p. 293.
(٢) Ibid.

حافة الهضبة الليبية حيث يشتد الانحدار. وإذا تركنا أنفسنا للخيال برهة فإن "مدينة الأموات" هذه كانت في أغلب الأحيان مليئة بالنشاط والحركة تختلط فيها الأصوات التي تصدر عن معاول الحفر وآلات النقب بأدعية كهنة الموتى وصلواتهم وعويل المشيعين وصراخهم.

ولكن ما أن انهارت الإمبراطورية (في عصر الأسرة العشرين) حتى بدأت حياة طيبة تنكمش وتفقد بعض مظاهر مجدها وعظمتها ثم أخذ شأنها يقل بعد انتقال العاصمة إلى الدلتا – إلى تانيس وسايس. وبالرغم من ذلك فكان ذكرها لا يزال على الألسنة. فهوميروس (القرن التاسع ق.م.) يصفها في الإلياذة بأنها "المدينة ذات المائة باب، التي ينطلق من كل باب منها مائتا محارب بخيلهم ومركباتهم[1]". ولكن لم تلبث قليلاً حتى أصابتها ضربات قاتلة على أيدي آشور بانيبال وقمبيز. فقد عاثت جيوش هذين الغازيين في مصر فساداً وانتقمت من طيبة أشد انتقام وتركتها وقد تغير وجهها وضاع مجدها. ولم تفلح محاولات بعض من جاء بعد ذلك من الفراعنة في إعادة تعمير ما تهدم من مبانيها واستقبلت طيبة العصر الإغريقي وقد فقدت كثيراً من عظمتها السابقة ثم قضي على ما تبقى منها بعد إخماد الثورتين اللتين نشبتا فيها ضد الحكم البطلمي. هذا ما صارت عليه طيبة بعد قيام دولة البطالمة – بلدة قليلة الشأن تفوقها أهمية في جنوب مصر مدينة حديثة هي بطوليميس Ptolemaios مكان المنشاة[*] الحالية– محافظة سوهاج بناها البطالمة لتنافسها ولتحتل مركزها الهام القديم في الإقليم وربما أيضاً لتكون دار إقامة لكثير من الطيبيين ممن دمرت مساكنهم. ولم ينته العصر البطلمي حتى كانت "مدينة المدن" قد انهد قلبها وتحول إلى أرض زراعية وتجمع ما بقى من سكانها حول المعابد والأطلال التي امتدت على طول مسافة بلغت ١٥ كيلو

---

[1] استرابون في مصر ص ١١٣.

[*] وردت في الأصل "المنشية". (المحقق)

متراً. وفي هذا كتب استرابون عقب زوال حكم البطالمة يقول: "والمدينة الآن مجموعة من القرى جزء منها في صحراء العرب حيث كانت المدينة فيما مضى، والجزء الآخر على الضفة المقابلة من النهر"[١].

واليوم تقوم بلدتا الكرنك والأقصر في موضع المدينة الحقيقية يربطهما بالماضي أطلال معبديهما العظيمين. وفي البر الغربي يخيم صمت رهيب على ما بقى من مدينة الأموات وهو شيء كثير (الشكل ١١). فالمقابر لا زالت في أغلبها على حالتها الأولى إذا غفلنا ما نُهب منها. وكثير من المعابد لا زال يحتفظ بمعظم أجزائه كمعبد سيتي الأول بالقرنة ومعبد حتشبسون بالدير البحري ومعبد رمسيس الثاني (الرمسيوم) ومعبد رمسيس الثالث بمدينة هابو[٢] وبعد فهذه هي نهاية طيبة، العاصمة القاهرة المجيدة وهذه آثارها على ضفتي النهر تحكي بعضاً من قصة المصري والدين وتشهد بعظمة مصر وشعبها.

قبل أن ينتهي عصر الإمبراطورية كانت الدلتا قد أخذت تجذب فرعون وحاشيته للإقامة على حدودها الشمالية الشرقية بعض الوقت ثم لم يمض وقت طويل حتى استقر الملك في عاصمته الجديدة بي رامسيس Pe-Ramses (تانيس) أيام الأسرة الواحدة والعشرين (١١٠٠- ٩٤٥ ق.م). ولا شك أن ظهور عاصمة وطنية في الدلتا لأول مرة منذ بدء التاريخ المصري كان دليلاً على نجاح أهل الدلتا في انتزاع السيادة من أهل الصعيد[٣]. وقد لعبت الظروف السياسية والدوافع الأسرية فيما بعد دورها على الإبقاء على عاصمة البلاد في الدلتا فظهرت بوباسطة (في عصر الأسرة الثالثة والعشرين) في شرقها وقامت سايس (في عصر الأسرة السادسة والعشرين) في غربها. ويبدو أن منف

---

[١] استرابون في مصر ص ١١٣

[٢] Moret, A. Op. cit., p. 296.

[٣] Ibid. 345.

صارت مركزاً للحكم الفارسي في أواخر عهد الأسرات المصرية إلى أن دخل الإسكندر غازيا وأمر ببناء الإسكندرية (سنة ٢٣١ ق.م) لتكون عاصمة مصر الهيلينية.

ولم تكن الإسكندرية أول مدينة إغريقية أنشئت في مصر فقد ظهرت قبلها بعدة قرون مدينة نقراطيس على الفرع الكانوبي بعيداً عن البحر. وكانت لها تجارة واسعة وعاشت حياتها المستقلة فى قلب مصر[١]. وقد فقدت نقراطيس أهميتها التجارية بعد بناء الإسكندرية التي فاقتها في أهمية موقعها الجغرافي. ولكن يبدو أن بلوزيوم (التي قامت قرب مصب الفرع البلوزي) لم تتأثر كثيراً بقيام الإسكندرية فقد ظل هذا الميناء القديم منفذ مصر من جهة الشرق حتى القرن الثالث الميلادي على الرغم من وقوعه على بعد أربعة كيلو مترات من البحر كما يقول استرابون[٢]. أراد الإسكندر أن تكون منشأته الجديدة ميناء تجارياً يخلف صور[*] في عالم التجارة وأن تكون مركزاً من مراكز الثقافة الإغريقية وأن تصبح المدينة الأولى في مصر. وقد كان له ما أراد فلم تنقض ١٥٠ سنة على قيام الإسكندرية حتى صارت أكبر مدينة في مصر بل أكبر مدينة إغريقية في العالم تلتقي عندها تجارة الشرق والغرب وتنبعث من جامعتها إشعاعات الثقافة الإغريقية. ليس هذا فحسب بل صارت مركزاً صناعياً هاماً.

ويعتقد بعض المؤرخين أن الإسكندر اختار موضع الإسكندرية دون سابق تدبير والدليل على ذلك ما ترويه الوثائق التاريخية من عدم توافر كمية من الجير تكفي لتحديد مواقع أسوار المدينة واستخدام الدقيق المخصص للجند لاتمام التخطيط[٣]. وهناك من يعترض على هذا القول ويرى أن الاسكندر كان قد قرأ عن هذا الموضع في

---

[١] نصحي – تاريخ مصر في عصر البطالمة جزء ٢ ص ٢٧١ – ٢٧٧.

[٢] استرابون في مصر ص ٨٢.

[*] فتح الإسكندر ميناء صور في شرق البحر المتوسط بعد عناء بسبب تحصينه، وقد أعجب به وأراد أن تكون الإسكندرية خلفا له بعد أن ترك صور خلفه مدمرة. (المحقق)

[٣] نصحي ص ٢٧٨.

الأوديسة قبل مجيئه إلى مصر[١]. فقد جاء فيها أن المرفأ الوحيد المحمي على ساحل مصر الشمالي يقع خلف جزيرة فاروس ولا يبعد عن مصب أقرب فرع من فروع النيل (الفرع الكانوبي) بأكثر من سفر يوم واحد في البحر[٢]. ولا شك أن الملاحين الإغريق والتجار كانوا على علم بهذا الموضع وكانوا يحتمون بالمرفأ وقت العواصف ويصعدون في النهر متى هدأت الريح إلى نقراطيس-سوق مصر التجارية قبل الإسكندرية. وكيفما كان الأمر فيتبين مما يرويه استرابون أنه كانت تقوم في المكان الذي أنشئت عليه الإسكندرية قرية راقودة Rhakotis وأنها كانت معسكر الحامية التي تحرس البلاد من هجوم الأجانب (وخاصة الإغريق) من قبل البحر ولا تهتم باستيراد شيء من الخارج. ويبدو أن كاليستينيس Callisthenes (القرن الرابع ق.م) كان أدق من استرابون في ذلك، فقد ذكر في " قصة الإسكندر" أن البقعة التي قامت عليها الإسكندرية كانت تضم ست عشرة قرية مصرية أكبرها راقودة. أما جزيرة فاروس Pharos التي وصلت بالساحل في أوائل العصر البطلمي فلم تكن على الأرجح أكثر من ملجأ لبعض صيادي السمك وقت غزوة الإسكندر. وقد كشفت أبحاث جوندية G. Jondet التي أجراها تحت المياه القريبة من حي الأنفوشي ورأس التين أن الجزيرة كان لها شأن كبير قبل العصر الأغريقي. فقد عُثر علي بقايا أرصفة ومنشآت بحرية ضخمة يرجح أن تكون أطلال ميناء بناه رمسيس الثاني ليقي مصر من "سكان البحار[٣]" وفي رأي آخر قد تكون بقايا ميناء أقامه أهل كريت في الألف الثانية قبل الميلاد عندما امتد سلطانهم إلى هذه القطعة من أرض مصر.

وتدين الإسكندرية بشيء كثير من أهميتها إلى موضعها وموقعها معاً. فهي تقع على شريط ضيق مموج السطح يمكن الدفاع عنه[٤]. يحده البحر المتوسط في الشمال وبحيرة مريوط في الجنوب وقد سمح ذلك بظهور مرفأين للمدينة مرفأ بحري وآخر بحيري. وقد انقسم المرفأ البحري إلى قسمين قسم شرقي وآخر غربي بعد ربط جزيرة

---

(١) Poole, R. S. op. cit, p., 178.
(٢) Ibid. p. 179.
(٣) Jondet, G Les Ports submerges' de L'ancienne ile de Pharos. Mem.Instit.Eg.Vol. IX Le Caire 1916.
(٤) Ball, J. Egypt in the Classical Geog. Cairo 1942 p. 50.

فاروس بالساحل. ومهما يكن من أمر فقد كان المرفأ البحري ولا زال في مأمن من رواسب النيل التي يجرفها التيار البحري بعيداً جهة الشرق. وفي نفس الوقت تقوم السلسلة الغارقة على طول المشارف الشمالية (امتداد للسلسلة الساحلية في إقليم مريوط) بحجز ما يكون قد ارتد من هذه الرواسب جهة الغرب[١] . وفي الجنوب كان المرفأ البحيري ترسو فيه السفن النيلية القادمة من داخل البلاد وتربطه بالبحر قناة ملاحية صغيرة[٢]. وكانت الإسكندرية إلى جانب صلتها السهلة ببقية الدولة عن طريق النهر وقنواته في موقع متوسط بالنسبة لبلاد اليونان وآسيا الصغرى وسوريا أي في مركز متوسط بالنسبة للعالم الإغريقي. ولعل أشهر من كتب عن الإسكندرية القديمة وأشار إلى صفات موضعها وأشاد بطيب هوائها هو استرابون. يقول "وفاروس جزيرة قريبة جداً من الساحل وتكوّن باتصالها به مرفأ ذا مدخلين، ذلك أن بالشاطىء خليج يمتد منه في البحر رأسان تقع بينهما الجزيرة التي تسد الخليج لأنها تمتد مستعرضة بحذاء الشاطىء... والمكان محفوف بمياه بحرين إذ من الشمال تحف به مياه البحر الذي يسمى البحر المصري ومن الجنوب بحيرة مارية (مريوط)... وطيب هوائها جدير بالملاحظة وهذا أيضاً ناتج عن اكتنافها بالماء وملاءمة موسم فيضان النيل.."[٣]

ويتبين من وصف استرابون أيضاً أن رقعة المدينة الإغريقية كانت على شكل مستطيل أو على هيئة عباءة الحرب المقدونية[٤]. بلغ طولها نحو٥.٥ كم وعرضها ١.٥ كم وأحاطت بها أسوار منيعة ذات أبواب لم يسبقها في مناعتها إلا أسوار سيراقوزة وأثينا. ونظراً لضيق رقعة المدينة فقد ربطت جزيرة فاروس بالساحل بواسطة جسر عرف

---

[١] محمد صبحي عبد الحكيم – الإسكندرية ١٩٥٨ ص ١٩.

[٢] استرابون في مصر ص ٦٣.

[٣] استرابون في مصر ص ٥٥ – ٥٨.

[٤] المرجع السابق ص ٥٩.

باسم الهيبتاستاديوم Heptastadium[1] وكان لا يزيد عرضه عند إنشائه على ٣٠ متراً بينما بلغ طوله نحو ١٣٠٠ متر وقد اتسع عرض الجسر بعد تهدمه وتراكم الرواسب البحرية ومخلفات المدينة من حوله. وتقوم عليه الآن من الأحياء الحديثة المنشية والجمرك. ومن الواضح أنه بعد إتمام بناء هذا الجسر أصبح للإسكندرية مرفآن: مرفأ شرقي سمي "الميناء الكبير Portus Magnus" وآخر غربي عرف باسم "ميناء العودة السالمة Portus Eunostus". ولسهولة انتقال السفن من مرفأ إلى آخر ولمنع تراكم الرواسب شق ممران مائيان في الجسر عند طرفيه[2]. وكانت جزيرة فاروس تعتمد في شربها على الماء المحمول إليها في القوارب قبل بناء الجسر فلما تم بناؤه أصبح في الإمكان تزويدها بماء النيل[3] عن طريق قنوات عالية تجري فوقه وتأخذ من ترعة الإسكندرية القديمة. ولكن يبدو أن الماء الجاري انقطع عن فاروس بعد أن هجرها كثير من السكان في أواخر العصر البطلمي[4].

---

[1] هذا الاسم معناه ٧ ستديا والاستديوم مقياس إغريقي طوله نحو ١٨٥ متراً وقد أصبح عرض الجسر الآن أكثر من كيلو متر واحد.

[2] استرابون في مصر ص ٥٦.

[3] ا- نفس المرجع السابق ص ٥٧.

ب- تعتبر جزيرة فاروس من الناحية الجيولوجية امتداداً لسلسلة من السلاسل الجيرية المتصلبة في مريوط. وقد غرق ما بينهما تحت سطح الماء بفعل حركات القشرة.

[4] راجع Jondet, op. cit. pp. 75 – 79.

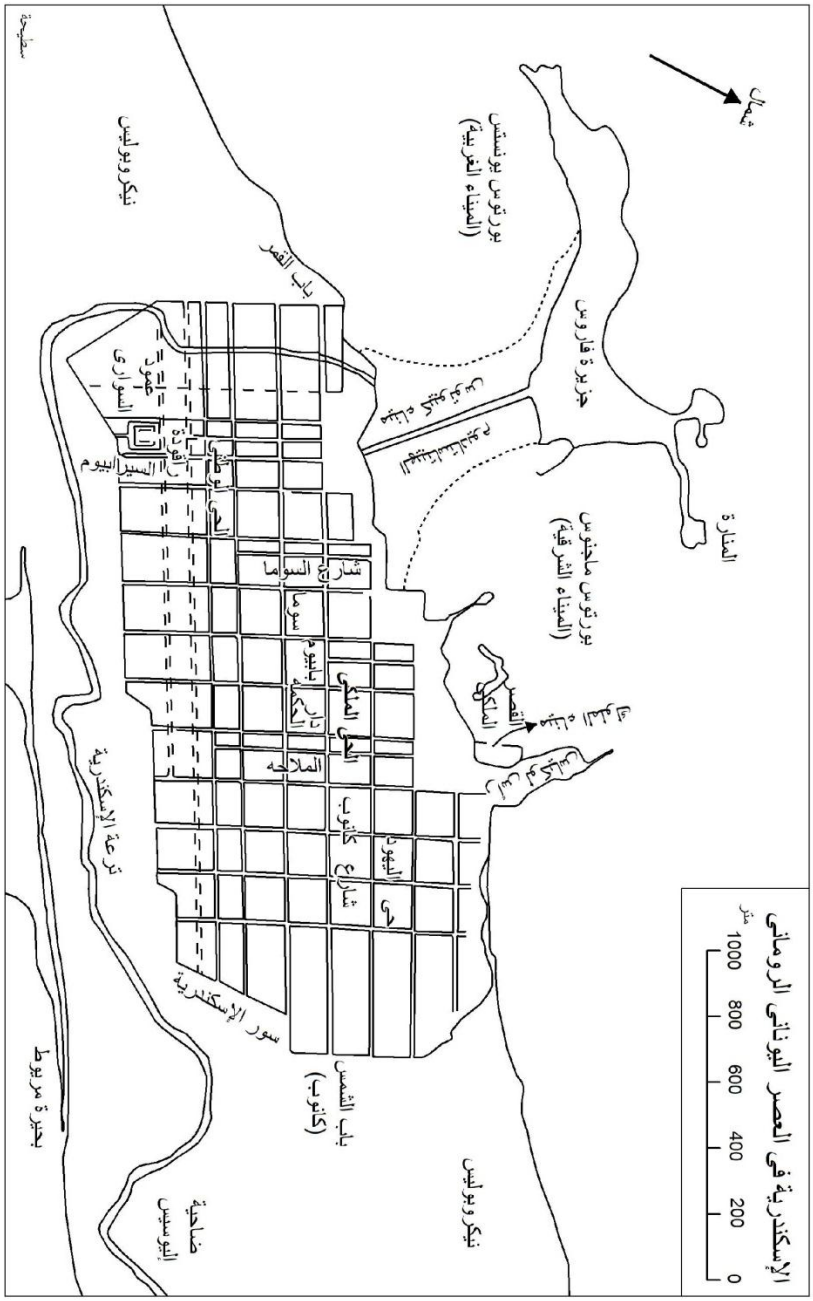
الإسكندرية فى العصر اليونانى الرومانى
0 200 400 600 800 1000 متر
شمال
المنارة
جزيرة فاروس
بورتوس يونستس
(الميناء الغربية)
بورتوس ماجنوس
(الميناء الشرقية)
القصر الملكى
نيكروبوليس
باب القمر
باب الشمس
(كانوب)
شارع كانوب
شارع السوما
سوما
الملاحه
سور الإسكندرية
ترعة الإسكندرية
بحيرة مريوط
ضاحية
إنيوسيس
عمود السوارى
سطيحة

الشكل (١٢)

وقد اتبع المهندس دينوقراطيس Denocrates الذي وُكِّل إليه أمر بناء المدينة خطة الزوايا القائمة Grid Plan وهي خطة تلائم موضع الإسكندريةالضيق كل الملاءمة، تمتد فيها شوارع مرصوفة واسعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب في خطوط مستقيمة متقاطعة[1]. وكان أهم شوارع الإسكندرية الإغريقية شارعين: شارع كانوب وشارع السوما (الشكل ١٢) وبمقارنتهما بالشوارع الأخرى نجد أنهما أوسع الشوارع فقد بلغ عرض كل منهما نحو ٣٠ متراً وتميزا أيضاً بدهاليز أعمدة على الجوانب تظل المارين نهاراً وتضاء بالمصابيح ليلاً. وقد اخترق شارع كانوب المدينة من شمالها الشرقي عند باب الشمس إلى الجنوب الغربي منتهياً عند باب القمر. أما شارع السوما فكانت بدايته في الجنوب الشرقي قرب بحيرة مريوط ونهايته في الشمال الغربي شرقي الجسر الذي ربط الشاطىء بجزيرة فاروس. وعند تقاطع الشارعين يظهر ميدان كبير Mason Pedium يتركز فيه النشاط التجاري للمدينة. أما المباني فكانت من الحجر الجيري المقطوع من محاجر المكس وتزين القصور والمنشآت العامة منها أعمدة تماثيل من الرخام والجرانيت[2]. ومما يجدر ذكره أن قوانين المدينة كانت تقضي بأن يترك بين كل بيت وآخر مسافة قدم واحد على الأقل: إلا إذا تم الاتفاق بين الجارين على بناء جدار مشترك بينهما[٣].

وعن طريق ترعة الإسكندرية القديمة أو ما عرف بترعة "شديا" وصل الماء العذب لشرب المدينة (الشكل ١٢). كانت هذه الترعة تأخذ من الفرع الكانوبي قرب بلدة النشو البحري[*] (شديا قديماً) ثم تجري فى المجرى الحالي لترعة المحمودية مسافة ٢٧ كيلومتراً قبل أن تصب في المرفأ الصناعي الذي عرف باسم كيبوتوس Kibotos (أي

---

[1] فؤاد فرج – الإسكندرية جزء أول القاهرة ١٩٤٢ ص ٥١.

[2] Everyman's Atlat of AnientAnd Classical Geography. Op. cit. p. 86.

[٣] إبراهي نصحي (١٩٦٠) ص ٨٦.

[*] على مقربة من مدينة كفر الدوار. (المحقق)

الصندوق)[١]. ويرى بعض المؤرخين أن شعبة من هذه القناة اخترقت شرقي المدينة لتصب في المرفأ الكبير[٢]. وتفرعت شعبة ثالثة نحو الجنوب لتربط بحيرة مريوط بهذا المرفأ الصناعي وما أن تصل مياه الترعة إلى الإسكندرية حتى يحول بعضها إلى أربعة قنوات أرضية تنتهي كل واحدة منها في خزان كبير ومن هذه الخزانات الرئيسية ترفع المياه بسواق تصب بدورها في مساق صغيرة توزع الماء إلى مئات من الصهاريج مقامة تحت المنازل. وقد كشفت حفائر محمود الفلكي في سنة ١٨٧٢ عن بعض صهاريج من ثلاثة طوابق، العلوي منها محمول على أعمدة ضخمة من الجرانيت أو الرخام[٣]. على أن هذه الصهاريج جميعاً لم تكن تأخذ كل ما بها من القنوات الباطنية فبعض الماء كان يجلب إليها بالقرب من الخزانات الرئيسية وبعضه الآخر كان يمثل ما تسرّب من ماء المطر. ولم يكن لفقراء المدينة نصيب في ماء الصهاريج وكان عليهم أن يقصدوا الترعة مباشرة لجلب حاجتهم من الماء[٤].

وكان المرفأ الشرقي يمثل مسطحاً مائياً شبه مقفل تدخله السفن عن طريق فتحة بين رأس لوكياس والطرف الشرقي لجزيرة فاروس. وقد ظل المرفأ الشرقي أهم المرفأين طوال العصر البطلمي وجزء من العصر الروماني ثم انتقلت أهميته إلى المرفأ الغربي عندما اتسع مدخله بسبب التآكل التدريجي في رأس لوكياس (السلسلة الحالية)[٥]. وكان يطل على المرفأ قصور ومنشآت أقيم بعضها على رأس لوكياس وكان

---

[١] المرجع السابق ص ٢٩٤.

[٢] Everyman's Atlas ..op. cit. p. 88.

[٣] محمد صبحي عبد الحكيم ص ١١٠.

[٤] المرجع السابق.

[٥] كان يمتد من رأس لوكياس الذى يحد المرفأ الكبير من جهة الشرق لسان يحميه من التيارات والرياح الشمالية ولا يفصله عن الصخرة التي كانت تقوم عليها منارة الإسكندرية إلا مدخل ضيق.

عريضاً (نحو كيلومتر) ضارباً في البحر والباقي كان يصل في امتداده جهة الغرب حتى جسر الهيبتاستاديوم. ومن المباني والمنشآت الهامة في هذه الجهة قصور ملكية والمسرح ومعبد بوسيدون الذي أقيم على نتوء ممتد في البحر ثم الأرصفة والمستودعات. ويغلب على الظن أن الأرصفة والمخازن والمستودعات كانت قسماً خاصاً تفصله أسوار عن المدينة لا تفرض على البضائع الواردة إليه مكوسًا وإنما تجبى المكوس المقررة عليها إذا ما نقلها التجار إلى المدينة. وقد تميز هذا المرفأ أيضاً بتلك المنارة الرائعة التي أنشأها المهندس سوستراتوس على صخرة قرب الطرف الشرقي لجزيرة فاروس. وظلت المنارة تثير إعجاب العالم القديم وتهدي الملاحين عدة قرون حتى سقط مصباحها بعد فترة من دخول العرب مصر ثم انهارت تماماً في القرن الرابع عشر الميلادي على أثر زلزال عنيف. وقبل أن نغادر المرفأ الشرقي الكبير ينبغي أن نشير إلى أنه كان يوجد في مواجهة محطة الرمل الحالية جزيرة صغيرة عرفت باسم انتيرودوس Antirodos أقيم عليها قصر ملكي له ميناء خاص عُرف بميناء الملوك لأنه كان خاصاً بأفراد العائلة الملكية. وقد اختفت الجزيرة تحت الماء نتيجة لحركة الهبوط التي تعرض لها ساحل الإسكندرية في العصور اللاحقة[1].

وكان المرفأ الغربي أو "مرفأ العودة السالمة" يقع قبالة الحي الوطني في المدينة (الشكل ١٢) ولم يكن محمياً كل الحماية لذلك لم يكن في أهمية المرفأ الشرقي كما قدمنا. كذلك لم تظهر على طوله سوى الأرصفة الجرانيتية لاستقبال السفن والمستودعات وصوامع الغلال. في هذا المرفأ انتهت خطوط الملاحة النهرية عبر بحيرة مريوط ومن ثم إلى القناة الصغيرة الموصلة إلى الحوض الصناعي كيبوتوس.

وقد انقسمت الإسكندرية الإغريقية إلى ثلاثة أحياء عاش في كل منها مجتمع تربط أفراده بعضهم ببعض وحدة العنصر فضلاً عن وحدة المصالح. فكان هنالك الحي

---

[1] محمد صبحي عبد الحكيم ص ١٠٦.

الملكي وبه سكن الأغارقة حكام البلاد وحي اليهود ثم الحي الوطني حي المصريين من أهل المدينة. أما الحي الملكي فكان يشرف على الميناء الشرقي وينتهي جنوباً عند أسوار المدينة[١]. ويقدر أنه كان يشغل ثلث رقعتها أو نحو ذلك. ومن الواضح أنه كان يمتد على المساحة التي يشغلها الآن حيا محرم بك والأزاريطة ومنطقة محطة الرمل وكيفما كان الأمر فإن هذا الحي كان أكثر الأحياء روعة وجمالاً، قامت فيه القصور وحدائق للحيوان والمتحف (دار الحكمة) ودار القضاء والمكتبة والمسرح والملعب[٢]، وقام فى وسطه أيضاً تل صناعي Panium (يغلب على الظن أنه كوم الدكة) لا يعرف على وجه اليقين سبب إقامته. وبالقرب من هذا النهد من الأرض كان المعبد الجنائزي الذي دفن فيه الإسكندر ومعابد أخرى للبطالمة المؤلهين.

وقد شغل حي اليهود الركن الشمالي الشرقي من المدينة (الشكل ١٢) أي كان إلى الشرق من الحي الملكي ويطل على البحر مباشرة. وكانت له أسواره الخاصة وبواباته ليحتمي سكانه وراءها وقت الاضطرابات العنصرية وما كان أكثرها في الإسكندرية[٣]. وربما امتد هذا الحي القديم على المنطقة التي يشغلها الآن حي الشاطبي وحديقة الشلالات.

واحتل الحي الوطني الجزء الجنوبي الغربي من المدينة أي موضع قرية راقودة القديمة ويشغل هذا المكان الآن أحياء باب سدرة ومينا البصل وكوم الشقافة. وكان أهم المباني في هذا القطاع من المدينة معبد السرابيوم أشهر معابد الإسكندرية والملعب وصوامع للغلال سبق الإشارة إليها[٤]. وقد بُنى السيرابيوم في مكان مجاور لعمود

---

(١) Everyman's Atlas.Op.cit. p. 86.

(٢) حوت مكتبة الإسكندرية نحو ٤٠٠ ألف كتاب أحرق أغلبها عند حصار يوليوس قيصر للمدينة وقضى على الباقي خلال الاضطرابات الدينية في العصر المسيحي.

(٣) Everyman's Atlas ..op. cit. p 86.

(٤) Ibid. p. 88.

السواري ليعبد فيه الإله سرابيس. وديانة سرابيس هي في تعاليمها مزيج من ديانة المصريين واليونانيين وكان الغرض من إقامتها هو التأليف بين قلوب المصريين والدخلاء من الإغريق. ولم تكن الإسكندرية التي حاصرها العرب غير هذا الحي الوطني وقد أصابه كثير من الأضرار على يد الجيوش الغازية وبسبب المنازعات والاضطرابات المحلية. وعلى الرغم من ذلك كله فقد بقيت معالمه في الوقت الذي اختفت فيه معالم الحيين الآخرين[١].

وكانت توجد خارج المدينة جبانتان إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب أما الشرقية منها فتوجد في المنطقة بين الشاطبي والإبراهيمية الحالية. وإلى جانبها قامت أيضاً ضاحية إليوسيس Eleusis وقصور ومغان لأثرياء الإسكندرية وكانوب تنتشر على جانبي القناة التي كانت تأتي من ناحية الإسكندرية لتصب قرب خليج أبي قير. وأما الجبانة الغربية أو مدينة الأموات فكانت حدائق تنتثر بينها المقابر وأماكن التحنيط وتشغل مساحة تقع بين حي القباري والمكس. وتوجد آثار المدينة الإغريقية الآن على عمق أكثر من ٧ أمتار من مستوى الأرض في بعض المناطق وذلك بسبب الهبوط الذي أصاب الساحل ونتيجة لتراكم مخلفات العصور المختلفة[٢].

وفي سنة ٣٠ ق.م سقطت مصر في يد الرومان وأصبحت ولاية رومانية بعد أن كانت دولة مستقلة. وكان لذلك أثره على مركز الإسكندرية السياسي فقد اتضعت مكانتها ومع هذا فقد اطرد نموها وأقيمت فيها كثير من المنشآت الجديدة (كمعبد القيصروم وعمود السواري) وخاصة في النصف الأول من العصر الروماني. بل إن المدينة ظهر لها خارج أسوارها ضاحية عسكرية لسكني أفراد الجيش الروماني أطلق

---

[١] Ibid. p. 80.

[٢] راجع Jondet. G cit, P. 57, 61.

عليها "مدينة النصر" Nicopolis وكانت تقع بين مصطفى باشا وجليمنوبولو[1]. ورغم ذلك فالذي نلاحظه أن المظهر العام للمدينة الرومانية لم يختلف كثيراً عن أيام البطالمة فلا زالت الأسوار تحيط بالمدينة ولا زالت الشوارع تجري في خطوط مستقيمة متقاطعة، حتى المعابد الوثنية بقى بعضها قائماً بعد أن تحول إلى كنائس[2]. وإن كان من اختلاف فهو في تلك الكنائس المسيحية التي أنشئت في العصر البيزنطي عصر انتشار المسيحية في مصر. وصارت بعد إنشائها من معالم الإسكندرية في العصر المسيحي. ومن أهم هذه الكنائس كنيسة القديس مرقس عند رأس لوكياس وكنيسة القديس أثناثيوس التي بُنيت في مكان جامع العطارين الحالي وكنيسة القديس ميخائيل التي ربما قامت قرب محطة الرمل. ثم كنيسة يوحنا المعمدان وقد أُقيمت على أنقاض معبد السيرابيوم وكنيسة العذراء مريم وقد بُنيت بالقرب من المرفأ الغربي[3]. ومن معالم العصر المسيحي أيضاً ظهور كثير من الأديرة كالحصون بناها الرهبان غربي المدينة في إقليم مريوط وكذلك في وادي النطرون لتكون أماكن للعبادة. وقد خرب معظمها ولم يبق منها الآن غير أربعة في وادي النطرون هي: دير البراموس ودير أنبا بشوي، ودير السريان، ودير أبي مقار[4]. وكان لإقليم مريوط شأن كبير أيام البطالمة والرومان فقد كان يمد الإسكندرية بمنتجاته من الفواكه والخمور وزيت الزيتون. ونضيف ما عرف من أن الإسكندرية كانت في نظر الإغريق والرومان لا تعتبر جزءاً من مصر وإنما مجاورة لها[5].

---

(1) فؤاد فرج – الإسكندرية ص ٢٦.

(2) عزيز سوريال عطية "الإسكندرية في العصر المسيحي" فصل من كتاب الإسكندرية الذي أخرجته الغرفة التجارية بمدينة الإسكندرية في سنة ١٩٤٩ ص ٧٨ – ٧٩.

(3) عزيز سوريال عطية – الإسكندرية في العصر المسيحي ص ٧٨ – ٧٩.

(4) نفس المرجع.

(5) إبراهيم نصحي ٢٧٣.

وقبل أن ينتهي العصر الروماني كان التخريب قد أصاب كثيراً من معالم الإسكندرية بسبب الاضطرابات الدينية والعنصرية والثورات الداخلية والغزو الفارسي الذي حدث في سنة ٦١٩ م. كانت الإسكندرية وقت دخول العرب قد فقدت مكتبتها الكبرى ودار الحكمة بها واختفى معبد السيرابيوم وتهدم القيصروم وذهب بهاء كثير من القصور الملكية. ومع ذلك فقد وجدها العرب عندما فتحوها صُلحًا في سنة ٦٤١م مدينة رائعة حصينة متألقة كثيرة القصور والحمامات وافرة الثراء مزدحمة بالسكان. ويذكر المؤرخون أن عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب يصف له المدينة بقوله "لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر وأربعين ألفاً من اليهود وأهل الذمة"[1] ومع ما في هذا الوصف من مبالغة فهو يشير على أيه حال إلى فتنة العرب بالإسكندرية عند رؤيتهم لها لأول مرة. ولا يهمنا في هذا المقام ونحن ندرس عواصم مصر أن نعرف كل ما طرأ على شكلها ومظهرها بعد أن تركتها الحكومة إلى مقرها القديم عند رأس الدلتا. ويكفي أن نوجز أهم ما طرأ على عمرانها فيما يلي:

انكمشت رقعة المدينة في العصر العربي عما كانت عليه في العصور السابقة (الشكل ١٣) فقد أحاط سور المدينة عندما أُعيد بناؤه بعد الغزو بالمنطقة الآهلة بالسكان فقط وترك خارجه الجزء الشرقي وكذلك المنطقة الجنوبية من المدينة الرومانية[2]. وأُنشىء للسور الجديد أبواب تقابل الأبواب القديمة سميت بأسماء جديدة. فباب رشيد أو القاهرة حل محل باب الشمس القديم وباب القمر سمى باب القرافة لأنه كان يؤدي إلى جبانة هناك أما في الجنوب فبني ما عُرف تارة بباب سدرة

---

[1] راجع بتلر – فتح العرب لمصر ترجمة محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٤٦ من ٢٧٠ – ٢٩٣.

[2] جمال الدين الشيال "- الإسكندرية – طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر" القاهرة ١٩٥٢ ص ٢١٠.

وتارة أخرى بباب البهار أو باب العمود[1]. وفي السور الشمالي كان باب البحر يشرف على الميناء الشرقية. هذا وقد جُدد السور في أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك. وكان من الطبيعي أن يتأثر مظهر المدينة الخارجي بدخول الدين الجديد – دين الإسلام - هذا الأثر توقف على عدد الحامية العربية في المدينة وعلى مدى انتشار الدين الإسلامي بين سكانها ومبلغ اهتمام الدولة بها. فأُنشئت فيها المساجد والبيوت لسكني العرب والمدارس والخوانق والربط والزوايا وكثير من الدور الحكومية كدار الإمارة ودار الصناعة ودار الطراز وغيرها. ومن المساجد ما أقيم على أطلال المعابد أو الكنائس القديمة ومنها ما أُنشىء في مواضع جديدة. وتذكر المراجع العربية التي كُتبت عن صدر الإسلام في مصر أنه كان بالمدينة ستة مساجد ولكنها لا تحدد أماكنها بدقة وهي: مسجد سليمان ومسجد الخضر ومسجد ذي القرنين ومسجد عمرو بن العاص ومسجد موسى ثم مسجد المنارة وقد بُني داخل المنارة لتقيم الحامية المرابطة بها الصلاة فيه. ومن مساجد العصر الفاطمي التي ورد ذكرها مسجد العطارين ومسجد الطرطوشي خارج باب البحر ومسجد المؤتمن. ومساجد أخرى لا نعلم عن مواقعها ولا أسمائها شيئاً. وبمرور الزمن كثرت المساجد في الإسكندرية فابن جبير الذي زار مصر في أوائل العصر الأيوبي يصف الإسكندرية بأنها "من أكثر بلاد الله مساجد"[2] ومصورات العصور الوسطى للمدينة تبين بوضوح كثيراً من مآذن المساجد والجوامع ويتميز العصر المملوكي بارتفاع شأن الإسكندرية في عالم التجارة وخاصة بعد هدم دمياط، فكانت قِبلة التجارة من الشرق

---

[1] سُمي باب سدرة لوجود شجرة ضخمة من أشجار السدر تنمو إلى جانبه وسمى باب البهار في العصر الأيوبي والمملوكي لأنه كان الباب الذي يدخل منه بهار الهند القادم بالمراكب أو على ظهور الجمال. وسمي باب العمود لأنه كان يوصل إلى عمود السواري – عن جمال الدين الشيال – المرجع السابق ص ٢١٢.

[2] كان المرفأ الغربي (الميناء الغربية) مخصص لسفن المسلمين بينما كانت سفن غيرهم من المسيحيين تفد إلى المرفأ الشرقي (الميناء الشرقية).

والغرب وظهر بها ما عرف بالفنادق لسكني التجار وخزن بضاعتهم. وفي هذا العصر أيضاً زاد الاهتمام بتحصين المدينة خوفاً من هجووم الصليبيين وانطمر خليج الإسكندرية عدة مرات ولكن كان يقيض له من السلاطين في كل مرة من يأمر بإعادة تطهيره وحفره فتعم المنفعة وتحمل التجارة على السفن بدل دواب الحمل وبتوفر الماء اللازم لشرب المدينة (راجع ص٦٩). وقد أصاب شكل المدينة في بعض تفاصيله شيء من التغيير تبدو مظاهره في زوال بعض المنشآت القديمة كمنارة الإسكندرية الشهيرة التي تهدمت وقام فوق أطلالها برج قايتباي وفي تهدم كثير من المباني القديمة وجسر الهيبتاستاديوم على أثر الزلزال المروع الذي نكبت به في القرن الرابع عشر. وتبدو مظاهره أيضاً فيما جدّ على المدينة من منشآت كالمنار الجديد على رأس السلسلة والمدارس والربط والفنادق ودور الصناعة والطراز والسلاح ثم الأسوار الثلاثة التي أحاطت بها[1].

---

[1] ا- جمال الدين الشيال – الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها... ص ٢٧٧ وما بعدها.
ب- السيد عبد العزيز سالم – تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي – القاهرة ١٦٩١ ص ٣٠ – ٣٤.

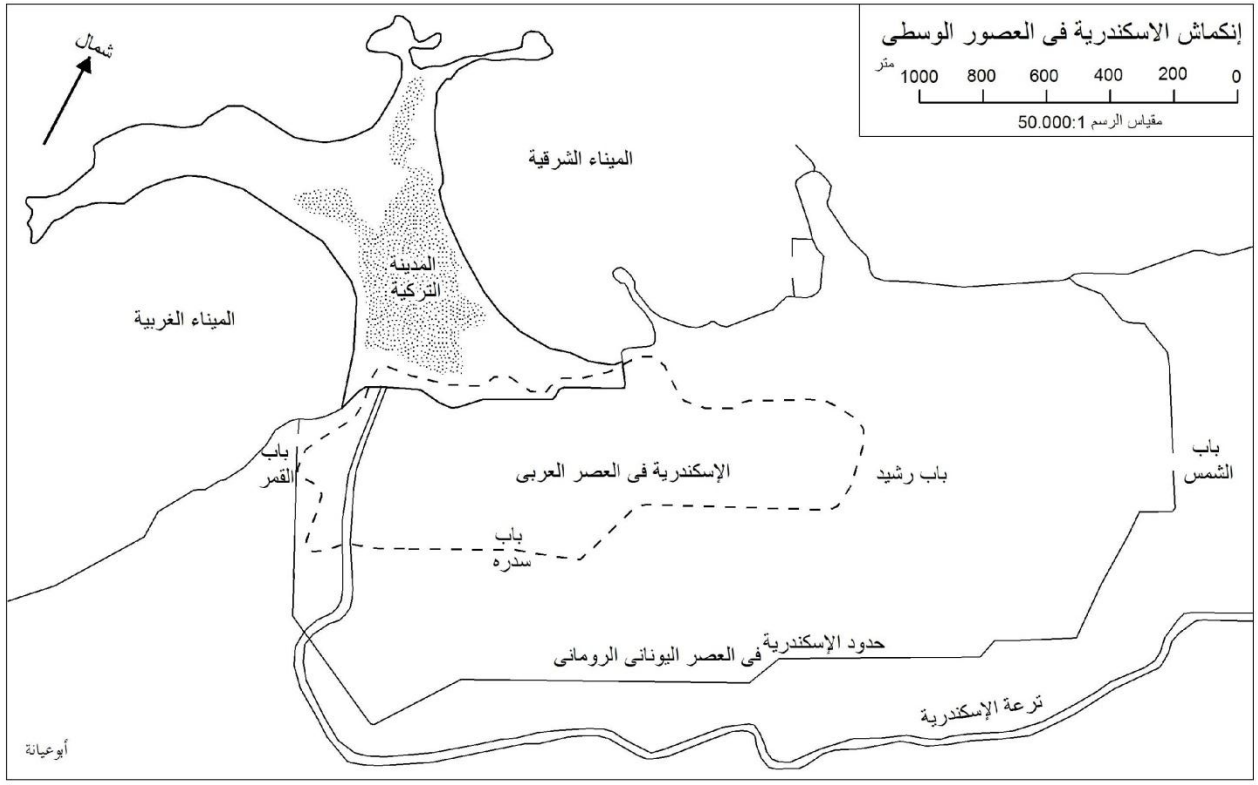
إنكماش الاسكندرية فى العصور الوسطى
متر
1000 800 600 400 200 0
مقياس الرسم 1:50.000
شمال
الميناء الشرقية
المدينة التركية
الميناء الغربية
باب القمر
الإسكندرية فى العصر العربى
باب رشيد
باب الشمس
باب سدره
حدود الإسكندرية فى العصر اليونانى الرومانى
ترعة الإسكندرية
أبوعيانة

الشكل (١٣)

وقبل أن ينتهي العصر المملوكي بنحو قرن ونصف قرن أصاب الإسكندرية داهية دهياء أثرت على حياتها والعمران فيها. فقد شن عليها بقايا الصليبين بقيادة ملك قبرص هجوماً خاطفاً مروعاً عام ١٣٦٥ م قتل فيه أكثر أهل المدينة وخربت الدور والقصور ونهبت الفنادق والمتاجر. حدث ذلك كله خلال أربعة أيام عصيبة غادرت الحملة بعدها المدينة إلى قبرص قبل أن يصل جند السلطان[1]. وكان أثر الغزوة من الشدة والبشاعة بحيث لم يقم للمدينة بعدها قائمة فقد انحط بها الزمن وقل سكانها. وفي هذا يقول المقريزي "فكانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث ومنها اختلّت أحوالها واتضع أهلها وقلّت أموالهم وزالت نعمهم". وسارت المدينة بعد ذلك من سيء إلى أسوأ حتى صارت في غاية الخراب قُبيل دخول العثمانيين مصر واقتصر العمران على ذلك الشريط الأرضي الذي كان يمتد بين الشاطىء وجزيرة فاروس واتسعت رقعته بمرور الأيام (الشكل ١٣) وزاد من تأخرها واضمحلالها تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح واهتمام العثمانيين بمينائي دمياط ورشيد دونها لأنهما أقرب منها إلى الشام وآسيا الصغرى[2]. وعلى الرغم من كل ذلك لم تختف الإسكندرية ولم تزل وإنما عاشت حياتها البسيطة الهادئة على بعض الصيد وشيء من تجارة إلى أن أقبل عليها الزمن مرة أخرى في بداية القرن التاسع عشر، فنمت وازدهرت كما لم تزدهر من قبل.

ولن يكون الحديث عن جغرافية الإسكندرية التاريخية وافياً دون الإشارة إلى سكانها وأعمالهم غير أن معلوماتنا عن أحوال سكانها خلال التاريخ معلومات متفرقة غير متكاملة لذلك ستكون الإشارة إليهم مقتضبة بالضرورة.

---

[1] Attiya, A S. The Crusade in the later Middle Ages. London 1988 pp. 348 – 77.

[2] راجع Lepére (G): Mémoire sur la villed'Alexandrie. Dans la "Description de l'Egypte". Etet Mod. T. II, partie 2, pp, 269 – 324.

لعل أهم ما يمكن أن نستخلصه من معلومات عن سكان الإسكندرية الإغريقية الرومانية أنهم كانوا خليطاً من مختلف الأمم بحثاً عن الرزق في مدينة حافلة بالنشاط والحركة اكتسبت لنفسها شهرة لا تبارى في عالم التجارة والصناعة والعلوم والمعارف. وفوق ذلك كانت عاصمة ضخمة لدولة مستقلة ثم صارت حاضرة أهم ولاية رومانية. كان سكانها خليطاً من الإغريق والإيطاليين والسوريين والليبيين والكيليكيين والأثيوبيين والعرب والسكيثيين والهنود والفرس[1]. ومع ذلك فالراجح أنهم لم يبلغوا المليون عدداً كما يزعم بعض الكتاب. وقد بنيت هذه التقديرات المبالغ فيها على ما حدثنا به الكتّاب الإغريق والرومان عن عظمة المدينة وازدهارها وضخامة عدد السكان الأحرار بها. فيصفها فيلون اليهودي مثلاً بأنها "عدة مدن داخل مدينة واحدة"[2] ويشبهها استرابون "بخزان عام" ويدعي ديودور الصقلي أن عدد المواطنين الأحرار بها كان في سنة ٦٠ ق.م نحو ٣٠٠ ألف نسمة[3]. لا يمكن أن نتصور أن الإسكندرية الإغريقية الرومانية – وهي المدينة التي لم تتجاوز مساحتها ٨.٢٥كم٢ عاش فيها وفي أرباضها مليون نسمة مع ما عُرف عن المعيشة والظروف الصحية في المدن القديمة. فبطء عملية نقل الغذاء إليها ونظام السكن وشكله فيها ناهيك عن بدائية الوسائل الصحية وتعرض مورد الماء للتلوث كل ذلك يحول دون بلوغ متوسط كثافة السكان في الإسكندرية القديمة ستة أمثاله في الإسكندرية الحديثة[4] وفي تقديرنا أن متوسط كثافة سكان الإسكندرية القديمة في أزهى أيامها لم يكن يجاوز متوسط كثافة حي كرموز في سنة ١٩٦٠ وهو ٥٨ ألف شخص في كم٢ وعلى هذا الأساس فإن سكان المدينة وأرباضها. ربما لم يزد عددهم على ٠.٥ مليون نسمة أغلبهم من المصريين واليهود والرقيق.

---

(1) إبراهيم نصحي ص ٥٩٦.

(2) Breccia, E. Guide de la ville et du Musée d'Alexandrie Alex. 1907. P 27.

(3) المرجع السابق.

(4) يبلغ متوسط الكثافة فى الإسكندرية في الوقت الحاضر نحو ٢١ ألف نسمة في الكم٢.

وقد عاشت الإسكندرية القديمة وعاش سكانها حياة نشطة متنوعة. فمنهم من مارس التجارة ومنهم من اشتغل بالصناعة وطائفة ثالثة وهبت نفسها للعلم والتعليم هذا فضلاً عمن خدم الدولة في وظائفها المدنية والعسكرية. ولن نتعرض هنا لنشاط الإسكندرية فى عالم التجارة فقد جاء ذكره في الفصل السابع. أما عن الصناعة والعلم فحديثهما طويل ذو شجون لن يسمح المقام بالإفاضة فيه. يكفينا أن نسجل ما اشتهرت به الإسكندرية من صناعات وأهم ما قدمه علماء جامعتها للعلم والمعرفة الإنسانية.

كان لاشتغال الإسكندرية بالوساطة التجارية بين الشرق والغرب فضل كبير على صناعتها. فقد أمدت التجارة الصناع بمختلف المواد الخام وهيأت للدولة فرصاً لبيع منتجاتها الصناعية في الخارج. ومن الواضح أن نمو الصناعة كان يستتبع في نفس الوقت اتساع مجال التجارة. ومما تجدر الإشارة إليه ونحن نتحدث عن النشاط الاقتصادي للإسكندرية الإغريقية الرومانية أن إشراف الدولة على التجارة والصناعة وتوجيهها لهما كان يصل إلى حد التدخل الفعلى والاحتكار.

اشتهرت الإسكندرية القديمة كما يذكر المؤرخون بكثير من الصناعات لعل أهمها صناعات الترف من المنسوجات الفخمة تصنع من الكتان والصوف والقطن والحلي من الذهب والفضة والنحاس والسجاجيد المزينة بخيوط الفضة ومختلف الأواني من الزجاج والخزف وأدوات الزينة والعطور والبخور والأدوية والكتب. إلى جانب ذلك ذاع صيت الإسكندرية في صناعة الورق من نبات البردي الواسع الانتشار في وادي النيل[1] وصُنع السفن البحرية والتجارية مستخدمة في ذلك الخشب والحديد المجلوبين من

---

[1] ا- انقطعت هذه الصناعة سنة ٦٥٠ م تقريباً وحل محلها صناعة الورق من الكتان المضروب بالقطن.

ب- راجع Milne, J. H, History of Egypt, Under the Romann Rule 1924, p. 257.

ج- Butler,H. The Arab conquest of Egypt.Oxford 1902, p 110.

أقطار البحر المتوسط. غير أن الوهن تطرق إلى صناعة الإسكندرية في أواخر الحكم البيزنطي بسبب ضعف الدولة وكثرة الفتن الداخلية وفداحة الضرائب ودخلت مصر تحت حكم العرب وقد قل نشاط مدينتها الأولى عن ذي قبل وانكمشت حياتها الاقتصادية بعض الشيء.

وتتيه الإسكندرية الاغريقية على كثير من مدن العالم بمآثر جامعتها وعلمائها على العلم والحضارة. والحقيقة أن شهرة الإسكندرية التاريخية في عالم الثقافة لم تكن دون شهرتها في عالم التجارة والصناعة بل ربما فاقتها في ذلك[١]. كانت جامعتها (دار الحكمة) نمطاً فريداً اختلف عما عرفته أثينا أيام مجدها. فقد كانت مصرية أصيلة في نظام الدراسة بها[٢] إغريقية في مناهج البحث عن الحقيقة. وعنيت أكثر ما عنيت بدراسة الفلك والطب والرياضيات والتاريخ، - تاريخ الأدب والفلسفة. ولم يحظ الشعر ولا اللغة بنفس الاهتمام ومع ذلك فقد خرّجت الجامعة شعراء نابهين من أمثال كليماكوس وثيوكريتوس وألحق بالجامعة مكتبة ضخمة وحديقة لإجراء التجارب النباتية فضلاً عن حديقة للحيوانات وهذه كلها من مستلزمات البحث العلمي حين يهدف إلى التطبيق. ومن بين مشاهير علماء جامعة الإسكندرية اراتوستين وبطليموس الجغرافي في الجغرافية الفلكية وأريستارخوس في الفلك وأرشميدس في الرياضة والطبيعة وثيوفراستوس في علم النبات وأراسيستراتوس في الطب وهكاتيوس في التاريخ وغيرهم كثير[٣]. ومن

---

[١] Poole. R. S. op. cit., p. 186.

[٢] كان النظام على نسق ما عرفته جامعة هليوبوليس العتيقة فكان الطلبة يجتمعون في حلقات حول الأستاذ وقت الدراسة وكان يصرف لكل طالب جرايته اليومية وتصرف له أيضاً إعانة مالية ليتفرغ بكليته للبحث العلمي.

[٣] ا- إبراهيم نصحي (١٩٤٦) ج٢ الفصل الثالث والعشرون – راجع زكي على الإسكندرية في عهد البطالمة والرومان ص ٢٢.

ب- Mahaffy., J. p.A History of Egypt – Under the Ptolemaic- dynasty.London, 1899, p 61, 262, 85, 242.

المؤسف حقاً أن تتلاشى هذه الحياة الفكرية تماماً في القرن الرابع الميلادي على أثر اضطراب الحالة السياسية وانتشار المسيحية وقيام أتباعها بمحو كل آثار الوثنية بما في ذلك الكتب[١]. ولم يكن ليشغل الناس بعد ذلك غير جدل ديني وفلسفة كهنوتية ضيقة الأفق بعيدة عن الواقع.

وعلى الرغم من أن الإسكندرية كانت قد فقدت شيئاً من بهائها القديم عندما دخلها العرب فقد أُعجب بها عمرو بن العاص كثيراً. ويروى أنه لشدة إعجابه بها فكر في اتخاذها عاصمة. فكتب إلى أمير المؤمنين عمر بذلك. ولكن عمر كان يكره أن يحول النيل وخاصة وقت ارتفاعه بين المسلمين في الإسكندرية وعاصمة الخلافة في الجزيرة العربية. فقد رد على رسالة عمرو ناصحاً "ألا تجعلوا بيني وبينكم ماء، متى أردت أن أركب راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت" فتحول عمرو بن العاص إلى مكان بالقرب من حصن بابليون وبنى عليه أول عاصمة لمصر الإسلامية، الفسطاط[2].

ويبدو أن قيام الفسطاط كقاعدة للحكم لم يؤثر على نشاط الإسكندرية الاقتصادي الذي مارسته في أواخر العصر البيزنطي. بيد أن انكماش العمران بالمدينة وخاصة في الجنوب والشرق أصبح ظاهرة واضحة بعد الغزو العربي وما تسبب عنه من هجرة كثير من الروم بها إلى رودس وقبرص وبيزنطة[٣] فقد نقصت مساحة الإسكندرية العربية بنحو الثلث عما كانت عليه أيام الرومان لذلك أحاطت الأسوار الجنوبية والشرقية بعد تجديدها بما كان آهلاً بسكانه تاركة ما أصابه الخراب بظاهر المدينة. وثمة شك في أن سكان الإسكندرية زاد عددهم في العصر العربي عما كان عليه في

---

[١] Milne, J, op. cit., p. 253.

[٢] المقريزي – الخطط جزء ٢ طبعة أحمد علي المليجي ص ٧٦.

[٣] أ- بتلر – فتح العرب لمصر ص ٢٦٣.

ب- المقريزي، المرجع السابق ص ٧٥.

العصر السابق خاصة وقد رأينا أن رقعتها انكمشت. بل الأغلب أن يكون السكان قلوا تدريجياً حتى نهاية الدولة الأيوبية ثم ارتفع عددهم على ما يُرجّح خلال العصر المملوكي عندما نشطت حركة التجارة العالمية عن طريق مصر وبعد أن هدمت دمياط. ويرجع هذا الانخفاض التدريجي في عدد السكان إلى تدهور الحالة الاقتصادية في المدينة بعد أن قل تيار التجارة العابرة وإلى ظهور بغداد والقاهرة كمراكز للتجارة العالمية ودخول دمياط ميدان المنافسة التجارية غير أن الإسكندرية العربية لم تبلغ أيام المماليك من النشاط والضخامة ما بلغته أيام مجدها الأول، ربما لأن عوامل اضمحلال الحياة المدنية التي بدأت تظهر في أواخر العصر البيزنطي قوى أثرها في هذا الجزء المتأخر من العصر العربي[١]. كان هذا العصر الذهبي على أية حال قصيراً فقد روّعت بزلزال مدمر في القرن الرابع عشر ونكبت كما قدمنا بغزوة صليبية (سنة ١٣٦٥م) قُتل وتشرد بسببها خلق كثير. ثم كانت الضربة القاضية بعد أن تحول أغلب التجارة بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء في أوائل القرن السادس عشر م. استقبلت الإسكندرية الغزاة العثمانيين إذن وهي مدينة حزينة صغيرة لم تلبث أن انكمشت فصارت قرية كئيبة يبلغ سكانها بضعة آلاف بعد قرن ونصف من الحكم العثماني[٢].

وقد ظلت الإسكندرية بعد دخول جيش سليم الأول مصر المدينة الثانية بعد العاصمة وأهم الثغور المصرية واعتنى الولاة والسلاطين بتحصينها والدفاع عنها. وكانت التجارة الخارجية والصناعة فضلاً عن الدفاع أهم وظائفها. وقد أشرنا إلى التجارة في مكان آخر. أما الصناعة فلم تختلف في أغلب منتجاتها ولا في أساليبها عما عرفته المدينة في العصر الإغريقي الروماني ولكنها لم تكن في ازدهارها القديم خلال فترة طويلة من

---

(١) Butzer, k(1960) op cit., pp 32-33.

(٢) أ - La pére, G. Mémoire sur la ville d'Alexandrie.Dans la "Descript on de l'Egypte" Etet Mod. T. II. Partie 2, pp. 269 324.

ب- بلغ عدد سكان رشيد في ذلك الوقت نحو ١٠٠ ألف نسمة.

العصور الوسطى بسبب منافسة العاصمة. ومهما يكن من شيء فإن الإسكندرية العربية اشتهرت بصناعة أنواع من المنسوجات الكتانية في دار الطراز وبناء السفن في دار الصناعة وصناعة الحلي والعطور والصابون وغير ذلك من صناعات الترف.

تحول عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية إلى السهل القريب من حصن بابليون (أو باب إليون) وأنشأ مدينة من الخيام ومنشآت الحصير ينزل فيها جنده أطلق عليها الفسطاط[1]. ثم تحول هذا المعسكر العربي المؤقت في بضع سنوات إلى مدينة دائمة مبنية من الحجر تقوم بدور العاصمة. ولكن الفسطاط لم تدم طويلاً كعاصمة للبلاد فقد انتقلت منها الحكومة إلى العسكر في شمالها بعد نحو قرن من الزمان ثم انتقلت ثانية إلى القطائع شمالي العسكر في عام ٨٧٠م. ولكنها ارتدت بعد ذلك إلى العسكر لفترة وجيزة وأخيراً استقر بها المقام في القاهرة المعزية سنة ٩٦٩م. وقد نمت القاهرة بعد ذك لتضم في محيطها مواضع العواصم الإسلامية السابقة لذلك يمكن القول أن القاهرة الحديثة هي وريثة كل العواصم الإسلامية الأولى وبابليون من قبل ذلك. بل إنها خليفة منف على الشاطىء الشرقي للنيل. ولعل في انتقال قاعدة الحكم من الإسكندرية إلى موقعها القديم عند قمة الدلتا تأكيد أي تأكيد لقيمة هذا الموقع الجغرافي. وقد عرف مينا ما له من أهمية كما بيّنا فأنشأ عنده أول عاصمة لمصر الموحدة. منف، وظلت منف مدينة كبيرة عظيمة على الرغم من انتقال الحكومة منها إلى غيرها من العواصم التي سبق الإشارة إليها وذلك بسبب احتفاظ الموقع بقيمته فترة

---

[1] اختلف المؤخون حول مصدر كلمة فسطاط فمنهم من يقول أنها عربي في أصلها وتعني الخيمة أو مجمع الناس إشارة إما إلى الخيمة أي الفسطاط الذي كان ينزل به عمرو بن العاص حين كان يحاصر حصن بابليون وإما إلى المعسكر الذي رابط فيه المسلمون. والفريق الآخر يرى أنها مشتقة من الأصل اللاتيني Fossatum أي العسكر وربما سمعها جنود عمرو أثناء حربهم مع الروم فأطلقوها على عاصمتهم الجديدة. ونحن لا نفضل رأياً على آخر إذ لكل منهما وجاهته (راجع بتلر ص ٢٤٩-٥٠).

طويلة. وحتى بعد أن عفا عليها الزمن ظهرت مدينة بديلة، بابليون مصر (أو منف الشرقية) على الضفة الشرقية للنهر ولكن إلى الشمال قليلاً من الموضع القديم وقد صارت بابليون مصر (كيمي قديماً) بحكم موقعها عاصمة مصر الوطنية ومعقل المسيحية في العصر المسيحي[١].

والموقع فضلاً عن أنه ملتقى إقليمين متكاملين يتحكم في طرق الملاحة النهرية بين الشمال والجنوب وتجتمع عنده طرق القوافل عبر الصحراء ويقترب من البحر الأحمر والمتوسط ثم هو فوق ذلك أصلح مكان للحكم والإدارة[٢]. وقد يُقال عن هذا الموقع أنه ليس مركزياً لأن الوادي أطول في امتداده من الدلتا ولكن اتساع الدلتا وكثرة سكانها نسبياً يعوض طول الوادي المديد.

اختار القائد العربي إذن موضع عاصمة المستقبل على الضفة الشرقية للنيل عملاً بنصيحة عمر التي أشرنا إليها[٣] ولم توجه هذه النصيحة إلى عمرو بن العاص وحده دون غيره من الولاة. فقد كتب عمر بذلك إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله في منطقة البصره "فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذي كان ينزل فيه فنزل البصرة[٤] وربما كان انتقال مقر الحكم إلى الداخل بعيداً عن البحر عملاً سديداً كفل للمسلمين السلامة في ذلك الوقت. فهم كانوا في حرب مع عدو له أساطيل بحرية لم يتمرسوا على قتالها. لذلك كان من خطل الرأي في تصورنا أن ينشىء العرب قاعدة الحكم الجديدة في مكان بحري تتهدده الأساطيل.

---

[١] بتلر. ص ١٨١.

[٢] Haswell, C. op, cit , p. 171.

[٣] تجدر الاشارة إلى أنه بالرغم من نصيحة عمر فقد فضلت بعض القبائل العربية الوافدة السكني في بر الجيزة والاحتماء بقلعة أقيمت هناك (عن Clerget, Vol. p 159)

[٤] المقريزي – الخطط – ج٢ ص ٧٦.

وقد رأى عمرو أن يكون الموضع في الفضاء بين المقطم وحصن بابليون فوق مستوى ماء الفيضان. ولعل في إقامة العاصمة على الضفة الشرقية قرب قمة الدلتا وفي كنف حصن بابليون خير دليل على رغبة المسلمين الأكيدة في تأمين عاصمتهم ضد الأعداء والقدرة على الدفاع عنها وقت الهجوم. وقد زاد من القيمة الاستراتيجية للموضع وجود جزيرة الروضة الحالية (جزيرة الصناعة سابقاً) وكانت حصينة آهلة بالسكان يربطها بشاطىء النهر جسر مرفوع على مراكب. إلى هذه الجزيرة يمكن الالتجاء وقت الضرورة ومنها يمكن قطع الطريق على الأعداء القادمين من قِبل النهر[١]. ولم يخف على عمرو بن العاص حين اختار موضع الفسطاط وفرة الماء وأحجار البناء بالقرب منه ووجود مأخذ خليج تراجان القديم غير بعيد عنه هذا فضلاً عن جفاف الأرض قرب المقطم (مما يجعلها صالحة لدفن الموتى) وجفاف الهواء بعيداً عن النيل[٢]. وإذا كانت مواضع العواصم الإسلامية اللاحقة في هجرة مستمرة نحو الشمال فذلك لتكون قريبة من قمة الدلتا حيث مداخل الصعيد عن طريق النهر وربما طلباً للهواء العليل القادم من الشمال.

---

[١] أ- بتلر – فتح العرب لمصر ص ١٧٩.

ب- كادت جزيرة الروضة أن تفقد أهميتها كحلقة في سلسلة الدفاع حول العاصمة بسبب انسداد مجرى النيل بينها وبين الفسطاط في منتصف القرن العاشر م. وقد حاول كافور الأخشيدي أن يعيد الفرع الشرقي وقام بالحفر ولكن دون جدوى. وانتهى الأمر بأن كان الناس يصلون من الفسطاط إلى مقياس الروضة سيراً على الأقدام وأصبحوا يأخذون الماء من فرع الجيزة. وفي أوائل القرن ١٢ م دخلت الجزيرة فى أملاك الملك الصالح أيوب وأنشأ فيها قلعة عظيمة بعد أن هدم ما كان بها من مساكن وكنائس. واجتهد في إعادة حفر الفرع الشرقي القديم حتى عادت الحياة ثانية وعادت الروضة جزيرة كما كانت أول الأمر. ولكن القلعة خربت في عصر المماليك فضاع ما كان للجزيرة من أهمية دفاعية.

[٢] - أ Clerget, M: op. cit., vol. I. p: 101 – 105.

ب- اختطت الفسطاط كما يقول اليعقوبي بعيداً عن النيل ثم اتسعوا في البلد فاختطوا على النيل (اليعقوبي – كتاب البلدان – ليدن ١٨٩٢ ص ٣٣١).

وليس من السهل تحديد الرقعة التي شغلتها الفسطاط عند إنشائها وذلك بسبب التغيرات التي طرأت على خطتها في القرون التالية واندثار كثير من المعالم التي يمكن الاستدلال بها عليها. وقد تحدث المقريزي عن حدود الفسطاط بعد أكثر من سبعة قرون من إنشائها وكانت روايته أساساً لجميع من حاولوا الكشف عن آثارها. ولكن الحدود التي ذكرها هذا الكاتب ربما لم تكن غير حدود الفسطاط أو بمعنى أدق "مصر" في أوج عزها واتساعها. يقول المقريزي "إن مدينة مصر محدودة بحدود أربعة، فحدها الشرقي اليوم من قلعة الجبل، وأنت آخذ إلى باب القرافة فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجارح، وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهي إلى الرصد، حيث انتهى الحد الشرقي، فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التي يسميها أهل مصر الجهة القبلية. وحدها البحري من قناطر السباع حيث ابتدأ الحد الغربي إلى قلعة الجبل، حيث ابتدأ الحد الشرقي، فهذا عرض مصر من جهة الشمال، التي تُعرف بمصر بالجهة البحرية وما بين هذه الجهات الأربع يطلق عليه الآن "مصر[١]" (الشكل ١٤) وقد استعان علي بهجت عند إجراء حفائره بالفسطاط برواية المقريزي هذه ولكنه خرج بتحديد جديد لرقعة المدينة يخالف بعض الشيء التحديد الذي ذكره المقريزي[٢]. ففي رأيه أن حدود الفسطاط كانت على النحو الآتي:

الحد الشمالي: ويقع بين كوم الجارح وقنطرة السد.

الحد القبلي: ويمتد ما بين الرصد وشاطىء النيل غرباً.

---

[١] المقريزي – الخطط ج ٢ ص ٤٩.

[٢] أ- علي بهجت والبير جبريل (كتاب حفائر مصر) القاهرة ١٩٢٨ ص ٢٥ – ٢٧.

ب- يقول C. Becker في هذا الشأن أن الفسطاط امتدت قرب نهر النيل على طول مسافة تبلغ ٥ كيلومترات من دير الطين الحالي في الجنوب حتى أرض ابن طولون في الشمال أما عرضها فلم يزد على ثلاثة أرباع الكيلومتر.

راجع Becker, C; Ency. F Islam 1913 I p: 836 – 40.

الحد الغربي: الشاطىء الأيمن للنيل وهذا الحد كان ينتقل على تتابع السنين من تنقل الجسر نحو الغرب.

الحد الشرقي: وكان يمتد فيما وراء الحد الذي عيّنه المقريزي أي إلى حدود القرافة الحالية ويسير جنوباً حتى الرصد[2].

وعلى أي الأحوال قُسمت هذه المدينة العسكرية عند نشأتها الأولى إلى خطط يتوسطها جامع عمرو ويفصل بينها أرض فضاء. ونزل بكل خطة أو حي قبيلة من القبائل لها مسجدها وديوان لتسجيل المشتركين منها في الجيش ومن كان لهم من الأبناء حق الانتظام فى الجندية والحصول على العطاء والرزق. وبالقرب من جامع عمرو كانت تمتد أكبر الخطط، خطة أهل الراية أو خطة الرؤساء من حاملي الأعلام[٢].

---

[١] علي بهجت والبير جبريل ص ٢٥ – ٢٧.

[٢] جرجي زيدان (تاريخ التمدن الإسلامي) الجزء الثاني – طبعة جديدة راجعها وعلق عليها الدكتور حسين مؤنس ص ١٨٢.

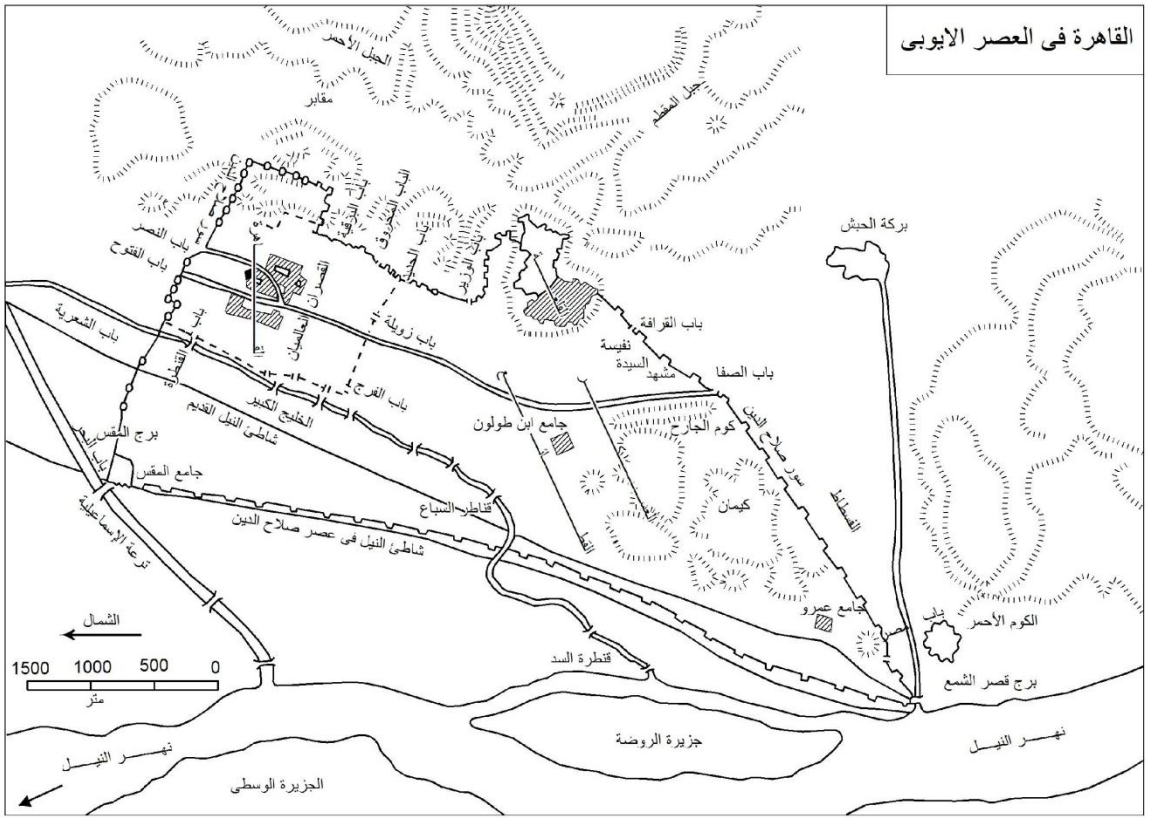
القاهرة فى العصر الايوبى
الجبل الأحمر
مقابر
جبل المقطم
باب النصر
باب الفتوح
باب الشعرية
باب زويلة
باب القرافة
نفيسة
السيدة
مشهد
باب الصفا
باب الفرج
الخليج الكبير
شاطئ النيل القديم
برج القس
جامع المقس
جامع ابن طولون
كوم الجارح
كيمان
سور صلاح الدين
جامع عمرو
الكوم الأحمر
برج قصر الشمع
قناطر السباع
شاطئ النيل فى عصر صلاح الدين
ترعة الإسماعيلية
قنطرة السد
جزيرة الروضة
الجزيرة الوسطى
نهر النيل
بركة الحبش
الشمال
1500 1000 500 0
متر

الشكل (١٤)

وكان أهل الراية جماعة من المهاجرين والأنصار ينتمون إلى عدة قبائل ومع ذلك كان لهم ديوان خاص لحصر الجند والقيام على توزيع الغنائم. وبعد فترة وجيزة زاد عدد الخطط على العشرين استقرت بها قبائل عربية أغلبها يمنية (منها تجيب وغطيف ومعافر) وقبائل فارسية مسلمة (منها بني وائل وراشدة) وقبائل يهودية دخلت الإسلام كبني روبيل فضلاً عن جماعات أخرى مختلفة العنصر نزلت فيما عرف بالحمراوات[1]. وكانت هندسة الخطة أول الأمر بسيطة عليها مسحة من بداوة الصحراء: "تقيم القبيلة منازل على حدود خطتها. وتترك بينها فضاء للدواب. وقد ضاق هذا الفضاء شيئاً فشيئاً بإنشاء مبان جديدة وتحول إلى جزائر من المباني تتخللها الدروب والأزقة[2]. ويضيف السيوطي (القرن ١٥م) إلى ذلك قوله "وترك المسلمون حين اختطوا بينهم وبين البحر (النيل) والحصن فضاء لدوابهم فلم يزل الأمر كذلك حتى ولي معاوية بن أبي سفيان فأقطع في الفضاء وبنيت به الدور"[3]. كان التعمير على أية حال لا يسير على خطة معينة لذلك اضطرب نظام المدينة كلها فيما بعد. ومن مظاهر هذا الاضطراب عدم وجود شوارع رئيسية تأخذ من طرف لطرف بل هنالك الدروب والأزقة الملتوية يظل ما في الأسواق منها سقوف من الأخشاب والأغصان.

أما المباني فكانت هي الأخرى بسيطة أول الأمر غير منيعة ولا مرتفعة تحمل طابع البداوة. لا شيء فيها من الزينة ولا جمال التنسيق تدعم بعضها أحجار وأعمدة رومانية. فالدور من طبقة واحدة تبني من اللبِن وحظائر الدواب ترى هنا وهناك. ثم علا البناء بمضي الزمن فصار إلى أربع طبقات أو خمس في القرن العاشر الميلادي[4]. وجامع عمرو

---

(1) على بهجت والبير جبريل ص ٢٢.

(2) جرجي زيدان. ج ٢ ص ١٨٢.

(3) السيوطي (جلال الدين) كتاب حسن المحاضرة – مقتطفات منه اختارها محمد محمود صبيح ص ٤٥.

(4) ابن حوقل (كتاب صورة الأرض) ليدن ١٩٣٨ ص ١٤٦

نفسه كان بسيطاً في بنائه وهندسته[١] ولكن ببداية القرن الثامن الميلادي زين الجامع ووسع وأنشئت بعض المنشآت العامة في وسط المدينة لعل أهمها أهراء عظيمة للغلال وقصر للحاكم وبيت المال. ويتضح من أقوال المؤرخين والرحالة أن قلب المدينة صار منذ القرن الثامن الميلادي يقع على النيل بين قصر الشمع وعلوة الكبش التي تشرف على مأخذ خليج أمير المؤمنين من النيل. وفي ذلك الوقت أيضاً امتلأ الفضاء الذي يفصل الخطط بعضها عن بعض بالمباني[٢]ولم يكن لمدينة الجيش هذه منذ نشأتها الأولي أسوار أو خنادق تحيط بها وإنما كان يحيط بها أشجار شوكية[٣].وظلت هكذا بغير تحصينات دفاعية حتي سنة ٦٨٣م عندما قام الزبير والي مصر بحفر خندق حولها لحمايتها من هجوم جيوش مروان بن معاوية الأموي. ولكن الخندق لم يحط علي ما يبدو بالأطراف الشمالية التي كانت قد هجرت كما أخبرنا المقريزي.

وقد أحرق مروان الثاني المدينة سنة ٧٥٠م عندما تتبعه العباسيون في مصر ولم يترك الحريق إلا جامع عمرو. وربما كان هذا الحدث هو السبب الذي دفع الولاة العباسيون إلى اتخاذ مقر الحكم عند الفسطاط. فقد انتقل مقر حكمهم إلي الحمراء القصوى إحدى خطط الفسطاط التي هجرها أهلها وهناك بنوا المسجد ودار الإمارة وبعض الدور العامة وسموا منشأتهم الجديدة العسكر.

وقد نمت هذه الضاحية بمرور الزمن ووصلت في امتدادها إلى شاطىء النيل وظهرت فيها المساجد والأسواق وكثرت الدور العامة حتي اتصلت بالفسطاط التي كانت قد عُمّرت من جديد وكوّنا معاً مدينة واحدة (الشكل ١٤). ومن الجدير بالذكر أنه بعد نحو قرن من احتكاك العرب بأصحاب الحضارات القديمة من الفرس والمصريين والروم تعلموا كثيراً من أمور تخطيط المدن وتنظيم الحياة فيها ويظهر ذلك جلياً في كل العواصم التي أنشئت في

---

(١) Schemeil, M. op, cit, p, 89 – 90.
(٢) Clerget, M, op, cit; vol, I, p 113
(٣) Becker, C, H, "Al-Fustat" Ency. of Islam, vol, I, pp 1913 886 -40.

مصر بعد الفسطاط بما في ذلك العسكر. ففي هذه الحاضرة الجديدة مُدّت الشوارع في خطوط مستقيمة متوازية وأنشئت بها المستشفيات العامة وزودت بقوة من رجال الشرطة لحماية الحقوق والممتلكات والمحافظة علي أرواح الناس ووضع فيها نظام للضرائب المفروضة على التجارة ودخلت أسواقها تحت إشراف دار الحسبة[١]

وظلت العسكر مقراً للولاة العباسيين حتي جاء أحمد بن طولون وأنشأ القطائع[٢] لتكون قاعدة الحكم الجديد بدل العسكر. بناها في مكان حلت به البركة والسعد كما تصور يقع شمالي العسكر علي أرض مرتفعة بعيدة عن النيل وقريبة من المقطم (الشكلان ١٤،١٥) حيث يطيب الهواء وتقل الرطوبة النسبية. ويحدد أبو المحاسن موضعها بقوله " كان موقعها من قبة الهواء التي صار مكانها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون وهو طول القطائع، وأما عرضها فإنه كان من أول الرميلة من تحت القلعة إلى الموضع الذي يعرف الآن بالأرض الصفراء، عند مشهد الرأس الذي يقال له الآن زين العابدين وكانت مساحة القطائع ميلاً في ميل"[٣]وقد بدأ ابن طولون بإنشاء قصره الكبير سنة ٨٧٠م وترك أمامه

---

[١] Clerget, M. vol. 114

[٢] سميت القطائع بهذا الاسم لأن ابن طولون أقطعها قطعاً بين خدمه وحاشيته ورجال دولته.

[٣] أ– أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي: كتاب النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، جزء ٣ ص ١٤

ب – حدد الأستاذ محمد رمزي حدود القطائع علي النحو التالي: "الحد البحري ويبدأ من جامع سنجر الجاولي حتى باب العزب بالقلعة، والحد الشرقي سور القلعة، من باب العزب حتى جامع السلطان الأشرف قانصوه الغوري... عند باب الجبل والحد القبلي ويبدأ من جامع الغوري المذكور حتى جامع سيدي علي زين العابدين والحد الغربي من جامع سيدي علي زين العابدين وينتهي بجامع سنجر الجاولي".

ميدان فسيح يضرب فيه بالصوالجة[1]" وبعدئذ تقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حول القصر والميدان، فاختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط. ثم قطعت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها: فكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم. والروم قطيعة مفردة تعرف بهم.. وبنى القواد في مواضع متفرقة، فعمرت القطائع عمارة حسنة. وتفرقت فيها السكك والأزقة وبُنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت وسميت أسواقها فقيل سوق العيارين وكان يجمع العطارين والبزّازين... وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين. فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام[2]. ووفر ابن طولون لعاصمته الجديدة ما يلزمها من ماء الشرب بأن حفر بئراً في الجنوب الشرقي منها وشيد عليها ساقية ترفع الماء إلى قناطر تحمله بدورها إلى العاصمة في سرعة وسهولة. ثم بنى جامعه المشهور على هيئة جديدة تخالف ما عرفته مصر. كان ابن طولون في الحقيقة يحرص على أن تكون عاصمته فريدة في مظهرها وتخطيطها رائعة في مبانيها على أهبة القتال في كل الأوقات. ويبدو أن حسن موضع القطائع شجع الناس على البناء فقد ازدادت عمارتها وازينت في عهد خمارويه وامتدت مبانيها إلى العسكر والفسطاط فصارت المدن الثلاث كأنها مدينة واحدة[3].

---

[1] الصوالجة هي كرة تضرب بالمضرب من فوق ظهور الخيل.

[2] المقريزي – الخطط – ج٢ – ص ١٠٦.

[3] شحاته عيسى – القاهرة ص ٤٠.

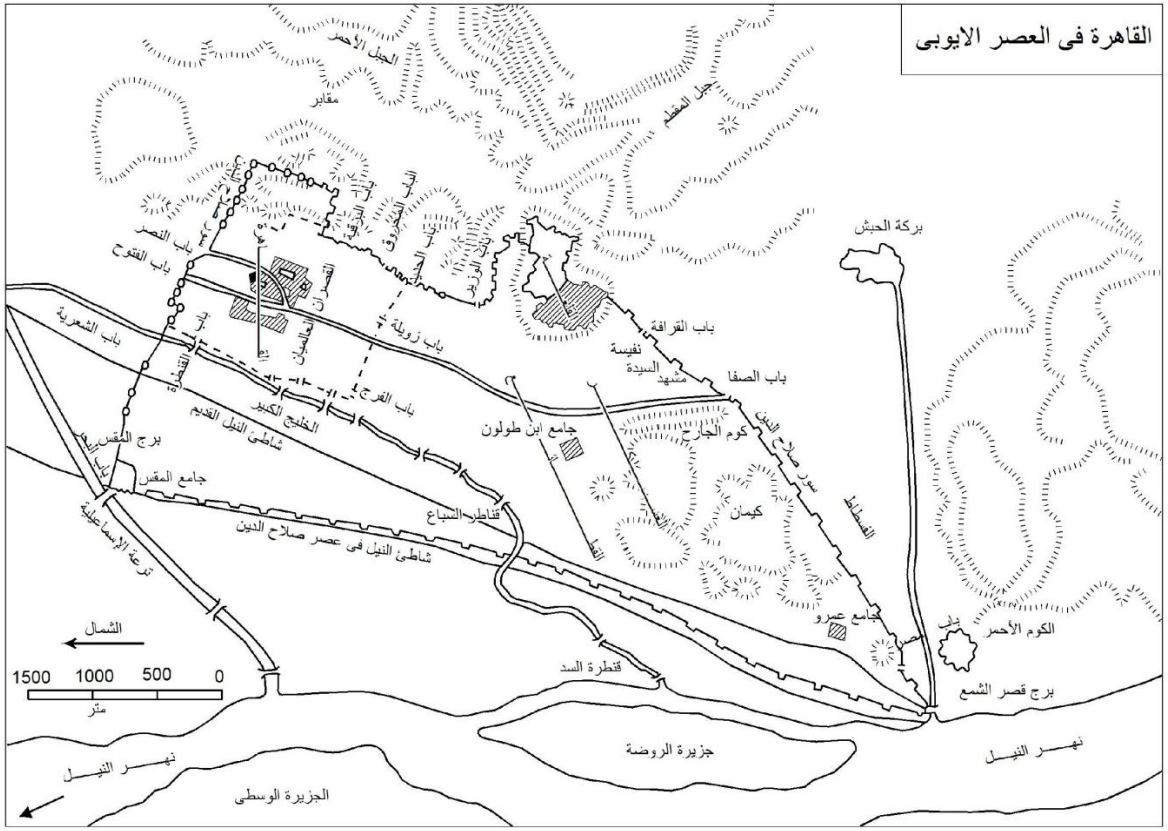
القاهرة فى العصر الايوبى
الجبل الأحمر
مقابر
جبل المقطم
باب النصر
باب الفتوح
باب الشعرية
باب زويلة
باب القرافة
باب الصفا
باب الفرج
القصران
العاصيان
القنطرة
الخليج الكبير
شاطئ النيل القديم
برج المقس
جامع المقس
جامع ابن طولون
تفيسة السيدة
مشهد
كوم الجارح
كيمان
سور صلاح الدين
القطائع
جامع عمرو
قناطر السباع
شاطئ النيل فى عصر صلاح الدين
ترعة الإسماعيلية
قنطرة السد
جزيرة الروضة
الجزيرة الوسطى
نهر النيل
بركة الحبش
الكوم الأحمر
برج قصر الشمع
الشمال
1500 1000 500 0
متر

الشكل (١٥)

وتحدثنا كتب التاريخ عن فخامة مباني القطائع في عهده وعن متنزهاتها ومساجدها وحماماتها فأجسام النخل في بستان خمارويه كان مكسوة نحاساً مذهباً وزرع الريحان على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة وطعّم شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك وسرح فيه من الطير كالطواويس ودجاج الحبش شيئاً كثيراً، وعمل مجلساً في القصر المطل على البستان طليت حيطانه كلها بالذهب[1]. إلى غير ذلك من مظاهر الترف والبذخ.

ولم يتجاوز عمر القطائع كحاضرة خمساً وثلاثين سنة ففي سنة ٩٠٤م احتلها القائد العباسي محمد بن سليمان وانتقم من أسرة ابن طولون بأن دمر كثيراً من مبانيها. ولكنها مع ذلك بقيت على شيء من العمارة إلى نهاية عهد المستنصر بالله الفاطمي حين وقعت الشدة العظمى (١٠٦٥– ١٠٧٢) فخربت هي والعسكر وتهدمت وتحولت إلى تلال وكيمان بين مصر (الفسطاط و القطائع) والقاهرة[2].

انتقل الوالي العباسي بعد دخوله مصر إلى العسكر مرة أخرى وكانت قد أصبحت جزءاً من الفسطاط كما ألمعنا. وقد قُدر للفسطاط أن تنمو بعد ذلك و تزدهر على الرغم من ظهور القاهرة وبلغت من وفرة العمارة ونشاط التجارة وكثرة السكان ما جعلها أكبر المدن الإسلامية وأغناها بعد بغداد. ولنقف قليلاً لنشهد ما كان عليه مظهرها وحياة سكانها قبل أن يجور عليها الزمن.

اتسعت رقعة الفسطاط في تلك الفترة فقد أصبحت العسكر والقطائع امتداداً لها. وبلغت بذلك ما بلغته بابليون القديمة من اتساع. بل زحفت تدريجياً نحو النيل حتى تكون على صلة وثيقة به. ويشير المقريزي إلى أنها انقسمت إلى قسمين لكل منه شرطة خاصة: عمل أسفل ويشمل أطراف المدينة الشمالية الغربية حتى حدود

---

[1] المقريزي الخطط – جزء ٢ ص ١٠٨ – ١٠٩.

[2] المقريزى ، ج ٢، ص ١٢٤

القاهرة وعمل فوق وهو عمل واسع يشمل الأجزاء الجنوبية والشرقية من المدينة[١] وصارت الخطط فيما تنسب إلى صنعة من الصنائع أو تجارة من التجارات أو مسجد من المساجد بعد أن كانت تنسب إلى القبيلة التي تنزل بها[٢]. وكثرت جوامعها ومساجدها حتى بلغت جملتها أكثر من ٤٥٩. وعمرت بالطواحين والمخابز وازدانت بالقصور والبساتين وامتدت جبانتها على مساحة واسعة عرفت بالقرافة الكبرى وتنوعت أوجه نشاطها. ويتضح من الدراسات الأثرية أن عمارة الدور أتقنت عن ذي قبل. فقد بنيت بالآجر (قوالب الطين المحروق) والمونة المتخذة من الجير والقصرمل (الرماد المتخلف من الحريق) أو من الجير والحمرة وبني أساسها بالدبش ومونة الطين أو الطين المخلوط بالجير. وفرشت الجدران من الداخل والخارج بالجير المخلوط بالرمل والجبس. وزينت بالعقود على الأبواب والنوافذ والأقباء وزودت بأنابيب من الفخار لحمل ماء الآبار إلى الطبقات العليا ومجارير منقورة في الصخر[٣]. وعلت بعض الدور علواً ظاهراً فقد بنيت دور من سبع طبقات بل من أربع عشرة طبقة يسكن الواحدة منها ٣٥٠ ساكناً. ويحكى أنه زرع على سطوح بعضها حدائق من الرياحين والأزهار والأشجار المثمرة[٤]. ولكن الغالبية العظمى من المساكن كانت قليلة الارتفاع تتوسطها أفنية.

وكان شرب الناس من ماء النيل ينقل في روايا على ظهور الجمال ثم يصعد به الحمالون في المنازل. أما عدد الجمال التي تعمل في نقل هذا الماء إلى المدينة فعظيم. فقد روى ناصر خسرو أنه كان بمصر والقاهرة عام ٤٤٠هـ (١٠٤٨ – ١٠٤٩م) اثنان

---

[١] المقريزي – الخطط – ج٢ – ص ٧٨

[٢] علي بهجت وجبريل ص ٣٧

[٣] المرجع السابق ص ١٣١

[٤] Lane – Poole S. The story of Cairo. London 1906, p.109.

وخمسون ألف جمل لحمل روايا الماء في هاتين المدينتين[١]. أما ماء الآبار فلم يكن مستساغاً لذلك قصر استعماله على بعض الأغراض المنزلية.

ورغم ذلك فقد قاست الفسطاط شأنها في ذلك شأن كثير من مدن العصور الوسطى والقديمة من قلة النظافة وكثرة أسباب المرض وسوء الصحة. وقد بلغنا من أمر ذلك ما حدثنا به المقدسي وابن رضوان طبيب الحاكم بأمر الله الفاطمي القرن ١١م عن سوء الأحوال الصحية في الفسطاط فالمقدسي يصف مياهها بأنها كدرة وآبارها وضرة[٢]. ويصف ابن رضوان الحالة وصف الخبير فيقول : " وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وأبنيتها عالية ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا ما يموت في دورهم من السنانير والكلاب ونحوها من الحيوان الذي يخالط الناس في شوارعهم وأرزقتهم فتتعفن وتخالط عفونتها الهواء... ومن شأنهم أيضاً أن يرموا في النيل الذي يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها وخرارات كنفهم تصب فيه. وربما انقطع جري الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء... ويعلوها في العشيات خاصة في أيام الصيف بخار كدر أسود وأغبر، لاسيماً إذا كان الهواء سليماً من الرياح[٣]. ونضيف أن الفسطاط والقاهرة كانتا تشكوان من كثرة البرك والمناقع قرب شاطئ النيل فوجودها كان يفسد الهواء ويسئ إلى الصحة العامة بما كانت تنفثه من أمراض[٤]، مما حدا بعبد العزيز بن مروان أن يهجر الفسطاط ويقيم في حلوان ودفع بعض الولاة إلى الإقامة في الإسكندرية تاركين من يمثلهم في العاصمة[٥].

---

[١] ناصر خسرو – سفرنامة – ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص٤٦.

[٢] المقدسي – أحسن التقاسيم – ليدن ١٩٠٦ ص ٢٠٠.

[٣] المقريزي – الخطط جزء ٢ ص ١٦٧ – ١٦٩.

[٤] Clerget, C. op. cit, vol. I, p. 111.

[٥] المرجع السابق ص ١١٢

وفي أول الأمر كان القبط هم الذين يمارسون الصناعة والتجارة ويحتلون الوظائف غير الرئاسية في المدينة. وكان لابد لهم من تعلم اللغة العربية حتى ينجحوا في أداء مهمتهم، فتعلموها ونطقوها فكان لذلك أثره في اختفاء لغة الأجداد إذ لم ينقض النصف الأول من القرن العاشر حتى كانت اللغة العربية هي اللغة الحية الوحيدة في البلاد[١]. وكما انتشرت اللغة العربية فقد انتشر الدين الإسلامي بين القبط من سكان العاصمة والمدن الأخرى والأقاليم. ولكن بدرجة أبطأ من ذيوع اللغة. وربما لم يصبح دين الغالبية إلا منذ عصر المماليك.

ومما يدعو للأسف ألا يترك لنا الكتاب العرب ما يفيد في معرفة ما وصل إليه عدد سكان المدينة عندما بلغت أوج عزها. فكل ما ذكر في هذا الصدد إشارات عابرة لا تفيد بل قد تؤدي بنا – إن لم نكن على حذر – إلى الوقوع في أخطاء جسيمة. فالفسطاط في تقدير ابن حوقل (٩٧٧م) نحو ثلث بغداد[٢]. والمقدسي (٩٨٥م) الذي أدهشه شدة ازدحام الناس في الفسطاط لم يعبر عن ذلك إلا بقوله "كان يصلي خلف الإمام مالا يقل عن ١٠.٠٠٠ شخص" وأن الفسطاط أعظم مدينة في العالم الإسلامي[٣]. ويكتب المقريزي بعد عدة قرون ما يفيد أن مدينة مصر (الفسطاط والعسكر والقطائع) كان فيها أيام عزها ١٠٠ ألف بيت في بعضها ١٠٠ أو٢٠٠ ساكن وكان البيت مؤلفاً من خمس طبقات أو ست وربما سبع. معنى ذلك أن سكان مدينة مصر بلغوا في يوم ما أكثر من مليون نسمة مما لا يستقيم مع ما عرف عن مساحة رقعتها وطبيعة الحياة فيها.

---

[١] نفس المرجع ص ٢١٠.

[٢] ابن حوقل – كتاب صورة الأرض – ليدن ١٩٣٨ ص ١٤٦.

[٣] المقدسي – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – ليدن ١٩٠٦ ص ١٩٨.

ويرى كلرجيه M. Clerget أن عدد سكان الفسطاط بلغ في تلك الفترة نحو ١٥٠.٠٠٠ نسمة فقط[1].

وكانت وسيلة الانتقال في داخل المدينة هي بطبيعة الحال دواب الحمل من الحمير أو الجمال. أما الخيل فكانت وقفاً على الجند ورجال الجيش. ومما ذكره ناصر خسرو أنه كان بالفسطاط والقاهرة نحو خمسين ألف حمار للتأجير يشاهد المرء عدداً كبيراً منها عند مداخل الشوارع والأسواق[2] ولما كانت جزيرة الروضة جزءاً لا يتجزأ من المدينة فقد وصلها بها جسر المراكب ووصلها ببر الجيزة جسر آخر حدثنا عنهما ابن حوقل[3] وناصر خسرو. وقد تحول جسر المراكب بين الجزيرة وبر مصر إلى جسر مبنى في سنة ١٢٤٠م وهو تاريخ بناء قلعة الملك الصالح أيوب في الروضة وظل هذا الجسر قائماً حتى خرب أيام محمد علي.

ظلت الفسطاط من أهم مراكز الصناعة والتجارة في مصر عدة قرون ولم تنكمش حياتها الاقتصادية بعد قيام القاهرة. بل إنها عادت فنافست القاهرة في هذا المجال بعد الحريق الذي تعرضت له في أواخر القرن الثاني عشر م. وإذا رجعنا إلى القرن العاشر الميلادي نجد أن المقدسي الذي زار مصر سنة ٩٨٥م أسهب في وصف الفسطاط وأشاد بثرائها وازدهارها واكتفى بإشارة سريعة إلى القاهرة[4]. كانت الفسطاط في رأي المقدسي أعظم مدينة في العالم الإسلامي ورغم ذلك فالأسعار فيها رخيصة لكثرة مايرد إليها من ريف مصر. وفي خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي غصت المدينة بالأسواق الكبيرة المليئة بمختلف السلع والمتاجر. فكانت هناك قيسارية العسل،

---

(1) Clerget, M. op. cit, vol, Ip 23.

(2) زكي محمد حسن – الرحالة المسلمون في العصور الوسطى القاهرة ١٩٤٥ ص ٥٩

(3) ابن حوقل – كتاب صورة الأرض – ليدن ١٩٣٨ ص ١٤٦

(4) المقدسي – كتاب أحسن التقاسيم – ليدن ١٩٠٦ ص ٢٠٠.

وقيسارية الحبال وقيسارية البز (المنسوجات) وسوق القناديل الذي عده ناصر خسرو (١٠٤٧ م) أغنى أسواق العالم لكثرة ما به من التحف النادرة تحمل إليه من أصقاع العالم كله[١]. كما ذكر هذا الرحالة أنه " كان للباعة دكاكين بمدينة مصر على ساحل النيل وكانت البضائع تفرغ على أبوابهم وكان الازدحام من الشدة بحيث كان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب"[٢]. ويأتي ابن سعيد بعد ذلك بنحو قرنين (١٢٤٠م) فيجد أن الفسطاط لازالت رغم ما بُليت به من حريق في أواخر القرن الثاني عشر عظيمة التجارة وأكثر أرزاقاً وأرخص أسعاراً من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط... والمراكب التي تصل بالخيرات تحط هناك ويباع ما يصل فيها بالقرب منها وليس يتفق ذلك في ساحل القاهرة لأنه يبعد عن المدينة"[٣]. وفي موضع آخر يصف هذا الرحالة مرفأ الفسطاط فيقول "... رأيت ساحلاً كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض إلا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التي تصل من جميع أقطار الأرض". كذلك كان[٤] لكل سلعة مرسى معين على طول الفسطاط. فكانت الحبوب تفرغ في موردة الحلفاء. وترسو السفن المحملة بالأخشاب قرب دار الصناعة. وتنتهي رحلة سفن الصيد عند ساحل البوري[٥]. ويتضح من رواية ابن سعيد السابقة أنه كان للفسطاط صلات تجارية بالعالم الخارجي. فكان يحمل إليها من متاجر بحر الروم الرقيق وأنواع الفراء والديباج والسيوف. ووفد إليها من سلع الشرق ووسط أفريقية العاج وريش النعام والمسك والعود والكافور.

---

[١] ناصر خسرو – سفر نامه ص ٥٩.

[٢] المرجع السابق ص ٦٢.

[٣] المقريزي – الخطط – الجزء الثاني ص ١٧٣ – ١٧٤.

[٤] المرجع السابق.

[٥] علي بهجت ص ٣٣.

وزخرت المدينة بالمعامل من كل نوع تصنع السكر والورق وتنسج المنسوجات وتصنع الحديد والنحاس وتنتج المصنوعات الخشبية والعاجية والأواني الزجاجية والخزفية. وقد اختصت الفسطاط دون القاهرة حتى عهد متأخر بصناعة السكر والصابون. وفي هذا يقول ابن سعيد (١٩٤٠م) " وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم مايجري هذا المجرى لأن القاهرة بنيت للاختصاص بالجند[1]". إلى جانب هذه الصناعات أنشأت الدولة صناعة السفن. وكان مقر دار الصناعة (صناعة السفن) في أول الأمر على الساحل الجنوبي الشرقي للروضة ثم أنشئت دار أخرى على الضفة الشرقية للنهر إلى الشمال قليلاً من جامع عمرو بن العاص. وأصبحت هذه الدار فيما بعد أكثر دور الصناعة في مصر إنتاجاً لسفن الأسطول والمراكب التي كانت تحتاج إليها أعمال الدولة[٢].

بلغت الفسطاط أوج عزها في القرن العاشر والنصف الأول من القرن الحادي عشر ولكنها ما لبثت أن تدهورت في أواخره بسبب ضعف الدولة الفاطمية وما صحبه من تمرد الجند وانتشار الفوضى والاضطراب وكذلك بسبب "الشدة العظمى" أو المجاعة المخيفة التي حلت بمصر سنة ١٠٥٠م وظلت بعد ذلك سبع سنوات. ويبدو أن الأجزاء الشمالية من المدينة (القطائع والعسكر) كانت أكثر أجزاء المدينة تدهوراً وخراباً بعد تلك الحوادث ثم جاءت الضربة القاضية التي أطاحت بها كمدينة لها شخصيتها على يد شاور وزير العاضد في أواخر عام ١١٦٨ م. فقد أمر هذا الوزير بإحراقها بعد ترحيل أهلها خوفاً من وقوعها في يد الصليبيين بقيادة أموري Amalric ملك بيت المقدس[٣]. وظلت النار مشتعلة مدة أربعة وخمسين يوماً أتت خلالها على أغلب المدينة وتركت

---

[1] أ- المقريزي – الخطط – جزء ٢ ص ١٧٢.

ب- ابن دقماق – كتاب الانتصار – ج ٤ القاهرة ١٨٩٣ ص ٣٦.

[٢] علي بهجت والبير جبريل ص ٣٢.

[٣] Lane – Poole, S, op, cit p’ 110.

وراءها خراباً لا زالت آثاره باقية حتى اليوم خلف مصر القديمة[١]. يقول المقريزي في حديثه عن تلك الكارثة "نادى شاور بمصر أن لا يقيم بها أحد وأزعج الناس في النقلة منها فتركوا أموالهم وأثقالهم ونجوا بأنفسهم وأولادهم وقد ماج الناس واضطربوا... وبلغ كراء الدابة من مصر إلى القاهرة بضعة عشر ديناراً وكراء الجمل إلى ثلاثين ديناراً ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات... وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط، وعشرة آلاف مشعل نار، فرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء فصار منظراً مهولاً، فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر...لتمام أربعة وخمسين يوماً"[٢].

وقد قدر لما بقى من المدينة (وهي المنطقة الوسطى حول جامع عمرو) أن ينمو ويعمر من جديد بعد أن تمت عودة كثير من السكان فظهرت لدور الفنادق والمتاجر والمعامل ولكن على شقة تمتد بحذاء النيل بعيدة عن الخراب الذي خلفه الحريق. فعند زيارة ابن جبير لمدينة مصر سنة ١٠٨٣ أي بعد ١٤ سنة من حدوث الحريق المدمر نزل بفندق أنيق عرف بفندق أبى الثناء قريباً من جامع عمرو وجال في المدينة وكان من بين ما لاحظه أن"أكثرها مستجد والبنيان بها متصل" وعلى مقربة منها آثار من الخراب تدل على عظمة المدينة فيما سلف[٣].

وبالرغم من محاولات الأيوبيين لإرجاع المدينة إلى سابق عمرانها وازدهارها إلا أنها كانت تسير في طريق الاضمحلال[٤]. بينما كان نجم القاهرة آخذ في الصعود. حقيقة

---

[١] ابن دقماق – كتاب الانتصار – الجزء الرابع ٥٢ – ٥٣.

[٢] لمقريزي – الخطط – جزء ٢ ص ١٦٣.

[٣] ابن جبير. رحلة ابن جبير. تحقيق دكتور حسن نصار. القارة ١٩٥٥ ص ٢٤.

[٤] كان من مظاهر هذا الاضمحلال أنه لم يبق بها مسجد جامع واحد بعد الحريق الذي تعرضت له. عن Schemeil, M, Le Caire, p, 49.

انتعشت الفسطاط بعض الانتعاش أيام الأيوبيين – وآية ذلك ما لمسه ابن جبير وابن سعيد من وفرة نشاطها التجاري والصناعي وخاصة بعد أن ترك الملك الصالح قلعة الجبل ونزل قلعة الروضة – ولكنه كان انتعاشاً مؤقتا لم يدم طويلاً. لم تكن الفسطاط التي رآها ابن سعيد على أية حال هي الفسطاط العظيمة الباهرة التي حدثنا عنها المقدسي أو ناصر خسرو. رأى ابن سعيد مدينة حزينة كئيبة غير متينة البنيان ينم مظهرها الخارجي عن قرب تلاشيها. ولنتركه يحدثنا عما رآه: " لما أقبلت على الفسطاط أدبرت عني المسرة وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ودخلت من بابها (باب الصفا) وهو دون غلق، مفض إلى خراب معمور بمبان سيئة الوضع، غير مستقيمة الشوارع. وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة. وحول أبوابها من التراب والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف" [1].

سارت المدينة في طريق التلاشي بعد زيارة ابن سعيد حتى صارت حياً من أحياء القاهرة واختفى اسم الفسطاط ليحل محله اسم "مصر القديمة". وعندما احتل نابليون مصر في أواخر القرن الثامن عشر كان عدد سكان حي "مصر القديمة" نحو عشرة آلاف وكان ساحله لا يزال كما رآه ابن سعيد في القرن الثالث عشر الميلادي يستقبل كثيراً من المراكب المحملة بمحاصيل الصعيد.

أما القاهرة فقد أنشأها جوهر الصقلي قائد المعز في شهر يولية عام ٩٦٩ م لتكون عاصمة البلاد بعد الفسطاط. كان قيام القاهرة أعمق في معناه من مجرد تغير عاصمة وتغير أسرة حاكمة. كان في الواقع الأمر مقدمة لانقلاب في الدين والفن والثقافة. ولم تكن القاهرة (أو مصر القاهرة) في أول أمرها أكثر من مدينة عسكرية

---

[1] المقريزي. الخطط. ج ٢ ،ص ١٧٢ – ١٧٣.

صغيرة (لا تختلف عن العسكر والقطائع) ينزل بها الخليفة وجنوده[1] ثم أخذت تنمو حتى اتصلت بمصر (الفسطاط) من وراء الأسوار وامتدت شمالاً وأنشئت بعض مناظرها غربي الخليج كل ذلك وهي ما زالت "منزل سكني للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلجأ إليه"[2]. وقد تغير الحال بقيام دولة بني أيوب في مصر إذ تخلى السلطان عن ملكيته لكل شيء في المدينة وسمح للشعب بالإقامة فيها بعد أن كانت محرمة عليه فتحول إليها كثير من أرباب الصنائع والتجارة وأهل الفكر حتى طغت على الفسطاط في هذا المجال كما سنفصل فيما بعد.

وقد اختير موضع القاهرة فوق مستوى ماء الفيضان إلى شمالي الفسطاط بنحو أربعة كيلومترات وإلى الجنوب مباشرة من قرية قديمة كانت تعرف بمدينة الأصبغ. ويصف المقريزي مكان القاهرة قبل إنشائها بأنه كان "رملة فيما بين مصر (الفسطاط) وعين شمس يمر بها الناس عند مسيرهم من الفسطاط إلى عين شمس... ولم يكن عند نزول جوهر بهذه الرملة بنيان سوى أماكن هي بستان الأخشيد محمد ابن طغج... ودير للنصارى يعرف بدير العظام.. ومكان ثالث يعرف بقصير الشوك"[3]. وكانت أوضح حدودها في شرقيها وغربيها. ففي الشرق جبل المقطم تحتمي به وفي الغرب خليج القاهرة الذي عُرف في صدر الإسلام باسم خليج أمير المؤمنين وجرى بين النيل وبحر القلزم. وفي الجنوب والشمال منها امتدت البساتين والحقول تتخللها المنازل والقرى. ولا ريب أن

---

[1] كان اسمها الذي اختاره لها جوهر الصقلي "المنصورية" نسبة إلى المنصور والد المعز. ولكن المعز اختار لها بعد وصوله من المغرب اسم "القاهرة" ويسرف المؤرخون في خبر تسمية المعز لعاصمته ويذكرون في ذلك قصصاً هي في أغلب الظن في نسيج أخيلتهم (راجع المقريزي – ج ٢ ص ٢٠٥).

[2] المرجع السابق ص ١٨٤.

[3] المقريزي – الخطط جزء ٢ ص ١٧٣.

مجال اختيار موضع القاهرة كان ضيقاً أمام جوهر فكان لابد أن تكون المدينة بقرب الخليج وغير بعيدة عن الفسطاط.

وقد تغيرت قيمة الموضع وتغيرت خطة المدينة خلال القرون بسبب ميل مجرى النيل للانحراف جهة الغرب بعيداً عنها. وفي كل مرة ينتقل فيها الشاطئ يترك النهر وراءه خطاً من البرك تصبح بمرور الزمن مباءة للأمراض الخطرة وعيباً من عيوب الموضع[1] (الشكل ٥). وقد سبق لنا أن بيّنا كيف كانت الأرض الجديدة تظهر فوق سطح الماء وكيف كانت تتصل بالبر (ص ٨٣) ومهما يكن الأمر فإن هذه الظاهرة لم تؤثر في قليل أو كثير على قيمة الموقع، خاصة وأن القاهرة كانت تحاول دائماً أن تتكيف وفق كل تغير. ويستدل من رواية المؤرخين وخاصة المقريزي أن أهم التغيرات في مجرى النهر حدثت في الفترة بين ٩٠٠م – ١٣٥٠م (الشكل ١٤). ففي تلك الفترة تقدمت الضفة الشرقية الممتدة من مكان قريب من جامع عمرو وآخر يتفق مع ميدان المحطة بضعة مئات من الأمتار جهة الغرب. وكذلك ظهرت جزيرتا بولاق والفيل إلى الشمال من ذلك وأصبحت جزءاً من البر الشرقي في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادي وبذلك اتسع مجال امتداد القاهرة نحو الغرب بما يقدر بنحو ٣٥٣٠ فداناً في النصف الأول من القرن الرابع عشر م[2]. ولكن من ناحية أخرى بعدت المدينة عن النهر وعن مائه وكان لابد لها من أن تتقدم نحو الغرب و أن تمد خليجها في نفس الاتجاه ليأتي بماء الشرب. وقد نجحت في ذلك بعض النجاح فدخل بعض الأرض الجديدة ضمن رقعة المدينة ولو أننا لا ندري على وجه دقيق مدى العمران بها. وحفر الامتداد الغربي

---

(1) Clerget, M. op; cit, vol.I p, 111.

(2) ا- Haswell, C; op; cit, p. 174

ب- تحول النهر إلى نحت شاطئ بولاق بعد القرن الرابع عشر ولوقف هذا النحت صنع جسر في عرض النهر بين بولاق وامبابة فتوقف تآكل الشاطئ الشرقي – المقريزي – جزء ٢ ص ٣٥٤ وما بعدها.

للخليج من مأخذه القديم قرب ميدان السيدة زينب إلى نقطة تقع في مقابلة الجزء الأوسط من جزيرة الروضة. ويبدو أن كثرة القناطر على الخليج الكبير[١]. ووقوفها في سبيل الملاحة فيه وعدم كفاية مائه لمد الأرض الجديدة بحاجتها منه هي التي دفعت الناصر قلاوون إلى حفر الخليج الناصري وامتداده المعروف بخليج الذكر في أواخر القرن الرابع عشر[٢] (الشكل ٥).

شغلت القاهرة أول الأمر رقعة من الأرض مربعة الشكل مساحتها نحو ٣٥٠ فدانا (شكلا ١٥،١٦) بني حولها سور منخفض من اللبن ليأمن شر القرامطة بلغ عرضه عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان[٣]، وله من الأبواب ثمانية هي: باب زويلة وباب الفرج في الجنوب وباب الفتوح وباب النصر في الشمال وباب القراطين (الذي عرف فيما بعد بباب المحروق) وباب البرقية في الشرق، وباب السعادة ثم باب القنطرة في الغرب. ويبدو أن جوهر كان يحمل معه خطة دقيقة للعاصمة الجديدة أقرها المعز قبل أن يغادر قائده أرض المغرب. كانت خطة ذات طابع إغريقي روماني تشبه خطة الإسكندرية كما روى المقريزي لعل أهم ما يميزها وجود شارع رئيسي يمتد من الشمال إلى الجنوب مستقبلاً ريح الشمال وماراً بالميادين الوسطى التي يشرف عليها قصر الحاكم ومنازل حاشيته ومساكن جنده وينتهي إلى الأبواب ومن ثم إلى طرق المواصلات الرئيسية من جهتيه. وتتقاطع مع شارع القصبة بزوايا قائمة شوارع عرضية متوازية تمتد من الشرق

---

[١] الخليج الكبير أو خليج القاهرة هو البقية الباقية من خليج أمير المؤمنين الذي حفره عمرو بن العاص بين الفسطاط والقلزم لينقل فيه الميرة إلى عاصمة الخلافة. وقد طُم الخليج من جهة القلزم بأمر الخليفة المنصور (القرن ٨ م) ثم أخذ الجزء الغربي منه ينكمش حتى صار في أواخر الدولة الفاطمية ينتهي عند موضع شرقي عين شمس يسمى بركة الجب وقد ظل هذا الخليج قائماً حتى ردم خلال القرن ١٩ م) وقام مكانه شارع الخليج.

[٢] Haswell C. op cit; p: 174.

[٣] المقريزي – الخطط – ج ٢ ص ٢٥٠.

إلى الغرب[1]. فالشارع الأعظم أو قصبة القاهرة كان يخترق المدينة من الشمال إلى الجنوب ماراً بميدان " بين القصرين" وينتهي في الشمال بباب النصر وباب الفتوح حيث تنتهي الطرق القادمة من البحر وفلسطين والدلتا. وفي الجنوب أنشئ باب زويلة ليوصل إلى طريق الفسطاط وبلاد الصعيد. وقامت الشوارع العرضية بفصل الحارات (الأحياء) بعضها عن بعض. ولما كان سكان العاصمة الجديدة من عناصر مختلفة (بربر، أكراد، سودان، أروام، أتراك) فقد ظل لكل حارة طابعها وشخصيتها على الأقل في بدء حياة القاهرة، وهي في هذا تختلف عن الفسطاط التي سكنها في أول الأمر قبائل ينتمي أغلبها إلى أصل واحد ومجتمع واحد لذلك جاءت خططها متشابهة.

كان العمران داخل أسوار المدينة في أول الأمر قليلاً مبعثراً يقتصر على قصر الخليفة تحيط به عن بُعد منازل رجال حاشيته وقواده وثكنات جنده وجامع للصلاة وتدريس المذهب الشيعي هذا فضلاً عن الحدائق والبساتين فقد بنى جوهر القصر الشرقي الكبير لنزول المعز[2]. بناه في الوقت الذي كان يبني فيه الأسوار. ولم يكن في الواقع إلا مجموعة كبيرة في القصور يبلغ عدد حجراتها نحو ٤ آلاف ضمها سور واحد له عدة أبواب واتصلت بعضها ببعض بسراديب سفلية. ومن المباني الهامة التي أنشأها جوهر، الجامع الأزهر لإقامة الصلوات وتدريس أصول المذهب الشيعي. وقد بناه أول الأمر على مساحة تبلغ نصف مساحته الحالية (١٢٠٠ م٢) ولكنها اتسعت على مر الزمن بما أضيف إليه من مبان في العهود اللاحقة. ثم جاءت فرق الجيش من المغاربة والروم فبنت الحارات المحيطة بالقصر والجامع. وبعد وفاة المعز بنى ابنه العزيز بالله قصراً

---

[1] Clerget, op. cit, vol. I. pp. 129 – 130.

[2] يطنب المؤرخون في وصف قصور الخلفاء الفاطميين وما حوت من كنوز ويسرفون في الحديث عن المناظر ومباهجها وترف الخلفاء وبذخهم (راجع – المقريزي – الخطط – ج ٢ ص ٢٥٣ – ٢٧٦ وناصر خسرو – سفرنامة – ص ٥٠،٥٨ وزكي محمد حسن – كنوز الفاطميين ص ٧٤ – ٧٦.

أطلق عليه القصر الغربي الصغير جعل بينه وبين القصر الكبير فضاء واسعاً يقف فيه عشرة آلاف من العساكر ما بين فارس وراجل يطلق عليه "بين القصرين". وبمضي الزمن تعددت القصور في المدينة وكثرت المناظر بها وفي ضواحيها، ظهرت الحوانيت والأسواق (لخدمة الجند) والجوامع (مثل جامع الحاكم والجامع الأقمر وجامع الجيوشي) وضاقت بالوافدين من المغاربة فامتدت خارج أسوارها في أواخر عهد الدولة الفاطمية وخاصة نحو الشمال والجنوب[١]. وبلغت حاراتها خمس عشرة حارة متميزة لكل منها مدخل أو مدخلان يفتحان على الشوارع العرضية[٢]. وهذا ناصر خسرو يحدثنا عما رآه في القاهرة بعد مضى نحو ثمانين سنة على إنشائها. وحديثه هو حديث المعجب المفتون بما يرى. فحوانيتها في تقديره لا تقل عن عشرين ألف كلها ملك الخليفة وخاناتها وحماماتها لا يمكن حصرها. أما مبانيها فعالية محكمة البناء وفي كل منها خمس أو ست طبقات تفصل بينها حدائق تروى بماء الآبار[٣].

بيد أن سور المدينة الذي بناه جوهر كان قد تهدم كما نبه هذا الرحالة. وعاشت القاهرة خلال فترة طويلة من حكم المستنصر بالله الفاطمي في سلام وبدون أسوار إلى أن دبت الفوضى وكثرت الفتن وثورات الجند بسبب الشدة العظمى وكثرة المظالم وضعف الخليفة. فاستدعى بدر الجمالي صاحب الشام ليعيد الأمن والسلام للبلاد. وكان مما قام به هذا الوزير إنشاء سور للمدينة عام ١٠٨٧م ليحصّنها ضد ثورات الجند وأعداء البلاد في الخارج كما عمل على تعمير ما خرب من منازل القاهرة. كان سوره من اللبن له أبواب ضخمة من الحجر المحكم الوضع احتفظت بأسمائها القديمة وإن كانت مواضع بعضها ابتعد قليلاً عن المواضع الأصلية. كما أحاط السور الجديد بمساحة

---

[١] جرجي زيدان – ج ٢ ص ١٨٦.

[٢] Clerget, M vol. I. p, 1٣٠.

[٣] ناصر خسرو – سفر نامه، ص ٥٨،٥٠.

أكبر قليلاً من المساحة التي أحاط بها السور القديم وربما كان الهدف من ذلك هو الإبقاء على المساحات الفضاء والبساتين التي كانت تحيط بقصور الخلفاء فلم يكن الخلفاء الفاطميون ليرضوا أن يضيع جمال المنظر في سبيل توطين أكبر عدد من الوافدين. وقد بلغت رقعة المدينة بعد إنشاء السور الجديد نحو ٤١٥ فداناً أي بإضافة ٦٥ فداناً وقع أغلبها في جهة الجنوب والشمال (الشكل ١٦) ومع ذلك لم تكن القاهرة حتى أواخر القرن التاني عشر الميلادي أكثر عمارة ولا أوفر أرزاقاً من الفسطاط. ويحكي المقريزي عن انتشار الخراب في القاهرة أيام الشدة العظمى وثورات الجند وما قام به بدر الجمالي لتدارك ذلك: " فقد أباح (بدر الجمالي) للناس من العسكرية والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء في القاهرة ما خلا من فسطاط مصر ومات أهله فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا به المنازل في القاهرة وسكنوها. إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية "[1]. وهكذا انتهت المرحلة الأولى في حياة القاهرة. انتهت وهي لم تزل مدينة ملكية يسكنها الجند وأتباع السلطان.

بدأت المرحلة التالية باستيلاء صلاح الدين الأيوبي على مقاليد الحكم في عام ١١٧١م وكان سنياً ينقم على المذهب الشيعي. لذلك آل على نفسه أن يطمس آثار الفاطميين مروجو هذا المذهب في مصر والشرق العربي. فأسكن قصورهم أتباعه وحاشيته وضباط جيشه وأقاربه وسمح للعامة بالسكني في القاهرة (بعد أن كان دخولهم إليها بإذن خاص)[2] فنقلوا بعض أنقاض الفسطاط واستخدموها في إقامة مبانيهم لهذا تغيرت ملامح المدينة واضطربت خطتها وتحولت مناظرها الملكية وبساتينها

---

[1] المرجع السابق Lane – Poole S. op. cit; pp 125-171.

[2] المقريزي – الخط – ج ٢ ، ص ٢٢٧.

إلى " حارات وشوارع ومسالك وأزقة "[١]. وعلى الرغم من ذلك كله فقد غدت القاهرة في أوائل القرن الثالث عشر أكبر كثيراً مما كانت أيام الفاطميين (الشكل ١٥) لها سور عظيم من الحجر يربطها بمينائها على النيل، المقس، ويمتد جنوباً ليحيط بمواضع العواصم الإسلامية السابقة[٢]. ولها قلعة تشرف عليها من علٍ تحرسها من الصليبيين وينزل بها السلطان هذا فضلاً عن الجسر الأعظم الذي أُقيم على الشاطئ الغربي لصد غارات الأعداء من جهة الغرب والمارستان الذي أُنشئ لعلاج المرضى والجوامع والمدارس والكليات التي ظهرت لأول مرة لتدريس مذهب أهل السنة[٣]. كان صلاح الدين على الرغم من انشغاله بحرب الصليبيين هو العقل المدبر والقوة المحركة وراء كل هذه الأعمال العظيمة ولكن القدر لم يمهله حتى يتمها فأتمها خلفاؤه من بعده. قامت منشآته لتدوم قرون عدة بل لازالت قلعته قائمة بعد كثير من التعديل. كما ينبغي أن نسجل أن هذه الأعمال غيرت من مظهر المدينة وعدلت خطتها وحددت اتجاهات نموها فيما تلا من عهود. فبناء القلعة ونزول السلطان بها مثلاً كان له أكبر الأثر في جذب المدينة الفاطمية نحو الجنوب الشرقي بعد أن كان محورها يتجه نحو الشمال؛ كما قام سوق الخيل والحمير والجمال – أحد الأسواق الهامة في أي مدينة عربية – في الرميلة قرب القلعة[٤]. بل أن حركة الإنشاء والتعمير نشطت في موضع القطائع القديم فبنى الناس الدور والمساجد والمعامل وغيرها من مستلزمات الحياة وعند أطراف القاهرة الفاطمية من جهة الجنوب وفي المكان الذي كانت تشغله حارات السودانيين أيام الفاطمين مدّت الحدائق الغنَّاء بعد أن هدمت الحارات وقضي على أهلها بالقتل. وكان

---

[١] المقريزي – الخطط – ج ٢ ، ص ٢٢٧.

[٢] جلبت الأحجار اللازمة لبناء السور من الأهرامات الصغيرة بالجيزة، وبلغ محيطه كما جاء في رواية المقريزي ٢٩٣٠٢ ذراعاً أو نحو ١٨٧٥٣ متراً.

[٣] Lane – Poole. S op. cit, pp. 171-192.

[٤] Clerget, M. op, cit, vol. 2 p 146.

من نتائج مدّ الحائط الشمالي بين المقطم والنيل (الشكل ١٥) أن أصبحت الأرض التي تقع بين الخليج والنيل (وهي الأرض التي ظهرت نتيجة لتغير مجرى النهر) في مأمن من الغارات القادمة من الشمال مما سمح بتقدم مباني القاهرة وبساتينها نحو شاطئ النهر وأصبح الخليج فيما بعد يقع وسط المدينة بعد أن ظل يحدها من جهة الغرب عدة قرون[١]. أما ما أصاب الفسطاط في عهد صلاح الدين ومن خلفه فقد أشرنا إليه فيما سبق. ويمكن أن نلمس ما بلغته القاهرة الأيوبية من نمو وازدهار في العلم والأدب والفنون وما بلغه سكانها من رقي إذا استعرضنا قصائد عماد الدين الكاتب وأخبار رحلتي عبد اللطيف البغدادي وابن جبير وما جاء في خطط المقريزي. والذي يدعو للعجب أن هذه المدينة نمت وازدهرت رغم توالي المحن عليها. فقد ابتليت في مدى نصف قرن (من ١١٧٩م – ١٢٣١م) باثنتى عشرة كارثة مهلكة بين مجاعة ووباء – دع عنك ثورات الجند وماكان ينجم عنها من قتل وتخريب[٢]. وقد تحدثنا على لسان عبد اللطيف البغدادي في فصل سابق عن هول مجاعة ١١٩٨ – ١٢٠٢م وما سببته من خسارة في الأنفس والأموال.

زالت الدولة الأيوبية بقتل توران شاه ابن الملك الصالح أيوب عام ١٢٥٠م وخلفتها في حكم مصر دولة المماليك. وينقسم العصر المملوكي إلى مرحلتين: المرحلة الأولى وهي التي استغرقت المدة بين (١٢٥٠م – ١٣٨١م) وحكم خلالها المماليك البحرية الذي اشتراهم الملك الصالح وأنزلهم قلعته في جزيرة الروضة. المرحلة الثانية وهي التي بدأت عام ١٣٨٢م وانتهت في سنة ١٥١٧م واستأثر بالحكم فيها طبقة من المماليك عرفت بالمماليك البرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي أسكنهم فيها سيدهم قلاوون. وقد عاشت القاهرة عصرها الذهبي في عهد المماليك البحرية. وبلغت من اتساع الرقعة وازدهار

---

(١) Becker, C. H. "Cairo" Ency. of Islam vol. I pp. 840-44.

(٢) حدثت هذه الكوارث في سني : ١١٧٩، ١١٨١، ١١٩٣، ١١٩٥، ١١٩٨- ١٢٠٢، ١٢٠٦ ، ١٢٢٠، ١٢٢٦، ١٢٢٩، ١٢٣١م.

الحياة الاقتصادية ما رسمه لها وتمناه صلاح الدين الأيوبي. وعلى الرغم من كثرة الفتن والتخريب على عهد المماليك وسوء حال الشعب عامة فقد سُمي بعض هؤلاء الحكام "بالسلاطين البنائين" لكثرة منشآتهم ووصفت القاهرة بالعظمة والتألق. وربما كان سبب ذلك كله هو كثرة الأموال التي كانت تتدفق عليهم من جباية الضرائب الثقيلة على التجارة العابرة[١]، وشغفهم الزائد بالبناء والتشييد وخاصة المساجد ذات القباب والمآذن الجميلة العالية، والتقرب إلى الله ببنائها على أن تكفر عما اقترفوه من آثام في حياتهم الشريرة اللاهية.

في هذا العهد المملوكي على أية حال تحولت قلعة صلاح الدين وما جاورها إلى ضاحية سلطانية حصينة بها القصور والمساجد والحدائق يأتي لها الماء من النيل وتحصل عليه كذلك من باطن الأرض. أما القاهرة الفاطمية فقد تغيرت أغلب معالمها تماماً لكثرت ما ظهر فيها من أسواق وكثرة ما أنشئ فيها من مساجد ومدارس ورباع وقياسر وحمامات وقصور تمتد حولها حدائق ذات قنوات ونافورات. وكان من نتيجة تكدس المباني وتزاحمها بغير نظام أن ضاقت السبل وكثرت الأزقة والدروب المسدودة وتعتذر الانتقال السريع من مكان لآخر. وإذا ما تركنا أسوار القاهرة الفاطمية نجد العمران قد امتد في كل اتجاه تقريباً. وقد أمدنا القلقشندي (في الجزء الثالث من كتابه صبح الأعشى)[٢] والمقريزي في خططه (جزء أول) وصفا قيّما لهذه التطور العمراني وسنكتفي هنا بتسجيل ما ذكره المقريزي. يقول " فلما خرب المشرق والعراق بهجوم عساكر التتر منذ كان جنكيز خان في أعوام بضع عشرة وستمائة (أوائل القرن الثالث عشر م) إلى أن قتل الخليفة المستعصم ببغداد في سنة ست وخمسين وستمائة (١٢٥٨م)، كثر قدوم المشارقة إلى مصر وعمرت حافتي الخليج الكبير وما دار على بركة

---

[١] Clerget, M. op. cit, vol. Ip. 153.

[٢] القلقشندي – صبح الأعشى – الجزء الثالث – القاهرة ١٩١٤ ص ٣٧٠.

الفيل وعظمت عمارة الحسينية [حي بشمال القاهرة الفاطمية] فلما كانت سلطنة الملك الناصر قلاوون الثالثة [١٢٩٩م-١٣١٠م]... تزايدت العمائر بالحسينية حتى صارت من الريدانية إلى باب الفتوح. وعمر ما حول بركة الفيل والصليبة إلى جامع ابن طولون وما جاوره إلى المشهد النفيسي. وحكر الناس أرض الزهري [تملكوها] وما قرب منها وهو من قناطر السباع [قناطر كانت على خليج أمير المؤمنين موضعها الآن ميدان السيدة زينب] ومن قناطر السباع إلى البركة الناصرية إلى اللوق إلى المقس (الشكل ٥ و ١٥). فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصري اتسعت الخطة فيما بين المقس.. وساحل النيل [بولاق] وأنشأ الناس فيها البساتين العظيمة والمساكن الكثيرة والأسواق والجوامع والمساجد والحمامات والشون وهي في المواضع التي من باب البحر خارج المقس إلى ساحل النيل المسمى ببولاق ومن بولاق إلى منية السيرج ومنه في القبلة إلى منشأة المهراني. وعُمّر ماخرج عن باب زويلة [جنوبي القاهرة الفاطمية] يمنه ويسره... وعُمّرت القرافة من باب القرافة إلى بركة الحبش ومن القرافة الكبرى إلى الجبل عرضاً حتى أنه استحدث أيام الناصر بن قلاوون [٢٩٤ – ٣١٠] بضع وستون حكراً ولم يبق مكان يحكر. واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصار بلداً واحداً يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياصر والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والشون والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات متصلاً جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر[في الشمال] إلى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ومن شاطىء النيل بالجيزة إلى جبل المقطم[1]". هذا ما

---

[1] أ- المقريزي – الخطط – طبعة قديمة لا تحمل تاريخاً جزء ١ ص ٢٢٨.

ب- ذكر المقريزي أن القاهرة كان بها في القرن الرابع عشر م: ٣٧ حارة (حياً)، ٣٠ خطة (قسماً)، ٦٥ درباً (طريقاً)، ١٢ زقاقاً، ٤٩ رحبة، ٥٠ سوقاً، ٢٣ قيسارية (سوق شبه مقفل)،

كان عليه حال القاهرة خلال القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن ١٤ م، أكبر عاصمة إسلامية وافرة الثراء كثيرة السكان. لكن بوادر الاضمحلال ما لبثت أن حلت بالمدينة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر وازدادت الحالة سوءاً في القرن الخامس عشر ثم اسرعت المدينة في طريق الانحدار نتيجة لاتفاق غزو الأتراك لمصر مع تحول التجارة العالمية عنها إلى طريق رأس الرجاء الصالح في أوائل القرن السادس عشر م. ولم يفت المقريزي أن يروي ما أصاب القاهرة من تدهور بعد أن بلغت أوج عزها ويعدد الأسباب. فيقول "وما زالت هذه الأماكن [التي ذكرت آنفاً] في كثرة العمارة وزيادة العدد تضيق بأهلها لكثرتهم وتختال عجباً لما بلغوا في تحسينها وتأنقوا في جودتها وتنميقها حتى حدث العناء الكبير في سنة ٧٤٩هـ (١٢٤٨م) فخلا كثير من هذه المواضع وبقى كثير أدركناه فلما كانت الحوادث سنة ٨٠٦هـ (١٤٠٣م) وقصر جرى النيل في مده وخربت البلاد الشامية بدخول الطاغية تيمورلنك وتحريقها وقتل أهلها وارتفاع أسعار الديار المصرية وكثرة الغلاء وطول مدته وتلف النقود المتعامل بها وفسادها وكثرة الحروب والفتن بين أهل الدولة وخراب الصعيد وجلاء أهله عنه وتداعى أسفل أرض مصر من البلاد الشرقية والغربية إلى الخراب واتضاع أمور ملوك مصر وسوء حال الرعية واستيلاء الفقر والحاجة والمسكنة على الناس وكثرة تنوع المظالم الحادثة من أرباب الدولة بمصادرة الجمهور وتتبع أرباب الأموال واحتجاب ما بأيديهم من المال بالقوة والقهر والغلبة وطرح البضائع مما يتجر فيه السلطان وأصحابه على التجار والباعة بأعلى الأثمان إلى غير ذلك مما لا يتسع ضبطه...، كثر الخراب بالأماكن التي تقدم ذكرها وعم سائرها وصارت كيماناً وخرائب موحشة مقفرة يأويها البوم...

---

١١ خاناً (وكالة)، ٥٥ قصراً، ٤٤ حماماً شعبياً، ١١ ميداناً؛ هذا فضلاً عن عدد كبير من المناظر.

ومستهدمة واقعة وآيلة إلى السقوط والدثور، سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً"[1].

سارت القاهرة في طريق الاضمحلال بخطى سريعة على أثر وقوعها في يد الأتراك. فقد تحولت من عاصمة لدولة مستقلة ذات سيادة إلى عاصمة لإقليم من أقاليم الإمبراطورية العثمانية، أضف إلى ذلك أنه كان للسياسة الداخلية التي اتبعها الأتراك في حكم مصر أثر كبير في انتشار الانقسام والفتنة والحروب الداخلية مما سبب سفك دماء كثيرة وفناء عدد كبير من السكان. وقد تميزت هذه السياسة بالانصراف عن تحسين أمور مصر إلى الاهتمام فقط بجمع الضرائب. لذلك لم يكن غريباً أن يكون الاضمحلال عاماً يشمل المدن والريف. وربما كان هذا الاضمحلال أقل في حدته لو لم تتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ولو لم تتوال سني انخفاض النيل وانتشار الأوبئة. لكل ذلك انكمشت القاهرة (الشكل ١٦) وانكمشت حياتها الاقتصادية وقل عدد سكانها. وقد قدر علماء الحملة الفرنسية مساحة القاهرة المأهولة في أواخر القرن الثامن عشر بنحو ١٨٤٠ فداناً أي أقل من ربع مساحة باريس في ذلك الوقت[٢] وكان مظهرها الخارجي هو مظهر المدينة التي انحط بها الزمن: مساحات واسعة من الأرض الفضاء والأرض المزروعة والمباني المتهدمة يقف وسطها ما عرف "بالأحواش" أو مساكن عامة الشعب وهذه تتقارب وتتزاحم في بضع مواضع تاركة بينها مسالكًا ودروباً أغلبها غير نافذ[٣] ورحاباً صغيرة. أما قصور المماليك وكبار التجار فكانت تحيط ببركه الفيل والأزبكية والحبش وتنتشر قريباً من النيل بين المزارع.، وكما اتضعت الحياة الاقتصادية في المدينة فقد اتضع الفن المعماري بها أيضاً ولكنه لم يمت. ولعل أهم مباني هذا

---

[1] المقريزي – ج ا طبعة قديمة لا تحمل تاريخاً ص ٢٢٨.

[٢] Clerget, M. op. cit, vol. I, p. 180.

[٣] المرجع السابق.

العصر هو سبيل خسرو باشا ومنزل جمال الدين الذهبي (أحد تجار القاهرة) وبعض المساجد وخاصة مسجد سنان باشا ببولاق، وجامع محمد أبو الذهب بحي الأزهر[1].

وطول حياة القاهرة عاش فيها خليط من مختلف العناصر والجنسيات (والأديان). وربما نجد تفسير ذلك في التاريخ الحافل بالأحداث الذي عاشته المدينة وفي موقعها المهم الذي تتلاقى عنده الطرق وتحتك في منطقته مختلف العناصر البشرية، هذا فضلاً عن شهرة مصر وفضلها على بلاد العالم. وعلى أنه يجب ألا يفهم

---

[1] Lane – Poole, S. op. pp. 287-314.

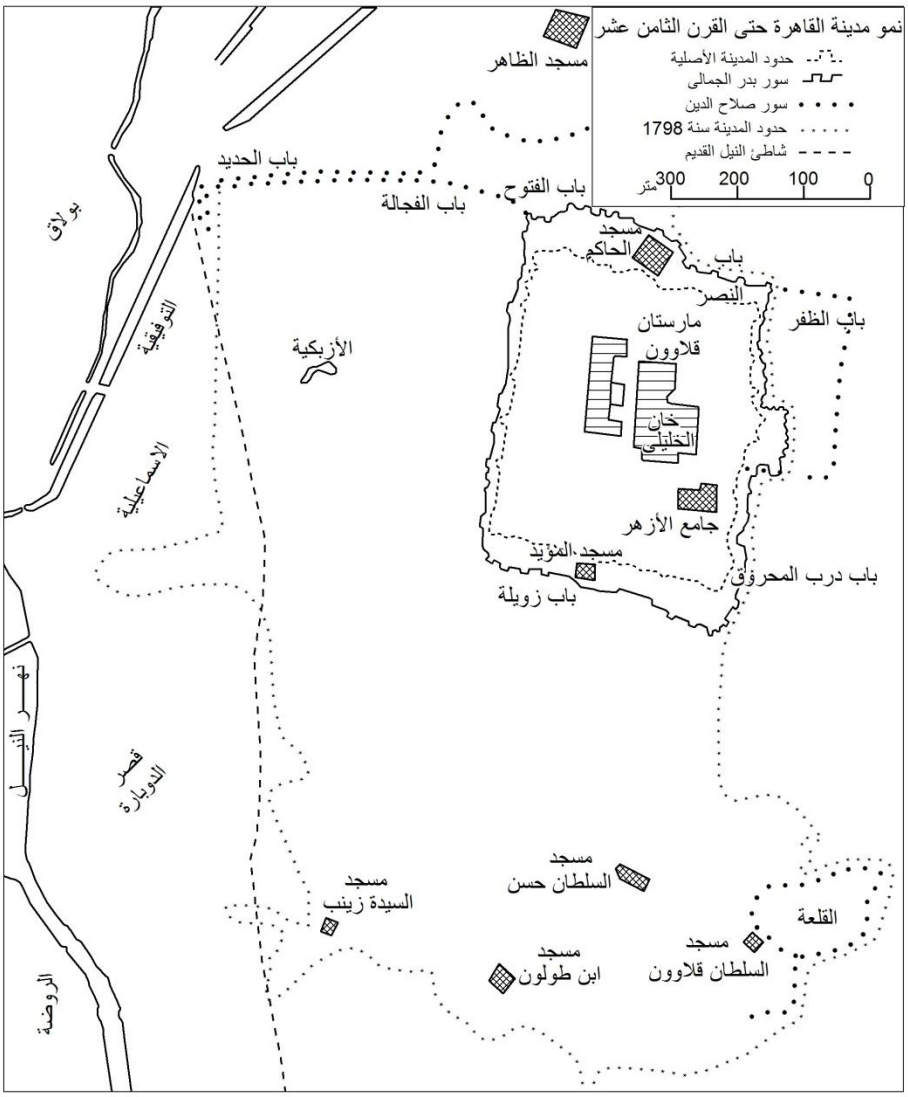
نمو مدينة القاهرة حتى القرن الثامن عشر
حدود المدينة الأصلية
سور بدر الجمالى
سور صلاح الدين
حدود المدينة سنة 1798
شاطئ النيل القديم
متر 300 200 100 0
مسجد الظاهر
باب الحديد
باب الفتوح
باب الفجالة
بولاق
التوفيقية
الأزبكية
مسجد الحاكم
باب النصر
باب الظفر
مارستان قلاوون
خان الخليلي
الاسماعيلية
جامع الأزهر
مسجد المؤيد
باب درب المحروق
باب زويلة
نهر النيل
قصر الدوبارة
مسجد السلطان حسن
مسجد السيدة زينب
القلعة
مسجد السلطان قلاوون
مسجد ابن طولون
الروضة

الشكل (١٦)

من ذلك أن العنصر الحامي عنصر أهل البلاد قد ضاعت ملامحه بهذا الاختلاط والامتزاج. الواقع أن العناصر الأجنبية الدخلية كانت من قلة العدد بحيث دمغها العنصر المحلي بطابعه. وإذا كانت القاهرة قد أصبحت في يوم من الأيام أعظم مدينة إسلامية فذلك بفضل سكانها من القبط المتعربين ممن دخلوا الإسلام[1]. غير أنه من الصعب علينا معرفة تطور عدد سكان القاهرة على وجه سليم خلال الفترة التي سبقت القرن التاسع عشر. ويرجع ذلك إلى ضآلة معلوماتنا عن هذا الموضوع. فالكتّاب العرب لم يعنوا مطلقاً بذكر عدد سكان العواصم الإسلامية ولا بدراسة نشاط السكان فيها وتوزيعهم بطريقة جادة منظمة. كل ما تركوه يقتصر على إشارات عابرة مضللة في أغلب الأحيان. ولم يكن الرحالة الأوربيون الذين قدّر لها زيارة المدينة أكثر عناية واهتماماً بهذه الناحية. فتقديراتهم مبالغ فيها وأبعد ما تكون عن الواقع. نذكر على سبيل المثال كوستلا Costela الذي قدّر سكان القاهرة سنة ١٦٠٣ بنحو ثلاثة ملايين نسمة خلاف النساء والأطفال[2].

وقد خرج كلرجيه من دراسته وبحثه لهذا الموضوع بأن سكان القاهرة بلغوا نحو ١٠٠ ألف شخص في القرن العاشر أقاموا داخل الأسوار وخارجها. ويفسر ارتفاع عدد سكان المدينة بعد فترة وجيزة من إنشائها بوفود آلاف من المغاربة. ثم ارتفع عدد السكان في القرنين التاليين فبلغ رقماً يتراوح بين ١٥٠.٠٠٠-٢٠٠.٠٠٠ نسمة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر م. ثم أسرع السكان في النمو خلال الحكم المملوكي حتى جاوزوا نصف المليون (٦٠٠ ألف نسمة) خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر وهي الفترة التي بلغت فيها القاهرة الذروة في الاتساع والازدهار. ويرفض كلرجيه القول بأن

---

(1) أ- Clerget, M. op. cit, vol. I, p. 212.

ب- صار الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم من القبط أقلية في أواخر العهد المملوكي وعاش كثير منهم في حي يقع إلى الشمال الشرقي من بركة الأزبكية.

(2) المرجع السابق : ص ٢٣٨.

العاصمة صارت مدينة مليونية حينذاك فهذا في ظنه مبالغة كبيرة. ثم ظهرت كما أشرنا بوادر الاضمحلال في المدينة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر صاحبها ولا ريب انخفاض تدريجي في عدد السكان. إذ هناك علاقة قوية بين درجة ازدهار الحياة الاقتصادية في المدن وعدد سكانها. وأسرعت القاهرة بعد ذلك في طريق الاضمحلال وتدهور عدد سكانها وخاصة بعد أن سقطت في يد الأتراك وانكمشت حياتها الاقتصادية. وقبل أن ينتهي القرن الثامن عشر الميلادي كان عدد سكان المدينة قد انخفض إلى نحو ٢٦٠ ألف نسمة كما قدر جومار أحد علماء الحملة الفرنسية[1].

كان سكان القاهرة على أيه حال يحصلون على ماء الشرب من النيل ومن الخليج في فصل الفيضان يحمل إليهم في الروايا على الظهر أما في فصل انخفاض النيل فكانوا يعتمدون على ما خزنوه من مائه وعلى بعض مياه الآبار القريبة من شاطىء النهر. ونظراً لارتفاع ملوحة الماء الباطني بالبعد عن النيل فقد اقتصر استعماله على ري الحدائق ورش الطرقات وفي بعض الأغراض المنزلية. ويبدو أن القاهرة كانت تستهلك كميات هائلة من الماء إيماناً منها بالنظافة وليس أدل على ذلك من كثرة ما كان بها من حمامات عامة وخاصة أعجب بها عبد اللطيف البغدادي (١١٩٨-١٢٠٠م) أيماً عجاب. وقال إنه لم يشاهد "أحسن منها وصفاً ولا أتم حكمة ولا أحسن منظراً أو مخبراً. أما أولاً فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان ثجاجان حار وبارد وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جداً مرتفع، فإذا اختلطا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير. وداخل الحمام مقاصير بأبواب، وفي المسلح أيضاً مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوم... وهذا المسلح بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية في وسطه بركة مرخمة... وهو مع ذلك كثير الضياء، جاماته مختلفة الألوان ضافية الأصباغ بحيث إذا دخل الإنسان لم يؤثر الخروج منه، لأنه إذا بالغ

---

[1] Clerget, M. op. cit., vol.I P, 238, 239.

بعض الرؤساء أن يتخذ داراً لجلوسه وتناهى في ذلك لم تكن أحسن منه"[١] ظاهرة أخرى تستحق التنويه هي تلك الأسبلة التي كانت تقام في الطرقات يشرب منها المارة. وقد كثرت هذه المنشآت في العصر المملوكي وظهر بعضها في العصر التركي وكان الدافع إلى بنائها هو التقرب إلى الله والتكفير عن الذنوب. وإن دل ذلك على شيء فعلى قيمة الماء الحيوية في تلك البيئة الجافة التي يعيش فيها أهل القاهرة.

وعلى الرغم من أن مصر كانت خلال تاريخها الطويل تعتمد على الزراعة إلا أن الصناعة وخاصة تلك التي تعتمد على الخامات المحلية كانت تجذب أعداداً كبيرة من الصناع تعيش في عاصمة البلاد ومدن الدلتا والصعيد. وقُبيل دخول العرب مصر كانت الصناعة تتركز في العاصمة وبعض المواني وخاصة تنيس وفي أسيوط أحد مراكز الوجه القبلي.

ولم يتغير هذا الوضع كثيراً بعد دخول العرب لفترة تبلغ أكثر من قرنين ونصف قرن إذ لم تشارك الفسطاط في النشاط الصناعي بالقطر إلا بدرجة محدوده وكان أهم مصنوعاتها إذ ذاك هي الأواني الفخارية والزجاجية ثم المنسوجات. وقد بدأت النهضة الصناعية الكبرى في مصر الإسلامية بتولي الفاطميين حكم مصر وقيام القاهرة في القرن العاشر الميلادي فتقدمت الصناعة وتعددت منتجاتها في الفسطاط واشتهرت مراكز النسيج القديمة على ساحل الدلتا (مثل تنيس ودمياط وشطا ودبيق) بصناعة أنواع من الملابس الملكية الفاخرة تُجهّز في دور الطراز خصيصاً للخليفة وأهله ورجال الحاشية[٢]. الحقيقة أن الترف والأبهة كانا من سمات الحياة التي عاشها الفاطميون في مصر. وقد استوجب ذلك العناية بالصناعة والبحث عن مهرة الصناع من القبط وغيرهم

---

[١] زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، ص ١١٦.

[٢] Weheba, A, F.The agriculture of Egypt during the Arab period.Unpublished M. A. thesis – London 1952, pp 176 – 187.

والاحتفاء بهم. غير أن القاهرة لم تستطع في هذا العصر أن تسلب الفسطاط أهميتها الصناعية فقد ظلت هذه المدينة الأخيرة تحتل المركز الأول في الصناعة والتجارة كما سبق أن تقدم. فلما زالت دولة الفاطميين وقامت دولة بني أيوب شاع المذهب السني وهو يخالف المذهب الشيعي – الذي نادى به الفاطميون - في الدعوة إلى السير على سنة السلف في البساطة والتقشف. فاضمحلت الفنون وصناعات الترف لقلة الطلب عليها[١]. واتجه الاهتمام إلى صناعة بناء السفن التجارية والأساطيل الحربية وصناعة السكر والزيوت والورق والصابون والجلود. وقد اشتهرت الفسطاط بصناعة السكر والورق والصابون كما أخبرنا ابن سعيد بينما اشتهرت القاهرة بصناعة بعض أنواع المنسوجات وأدوات الحرب والجلود والسفن الحربية في دار صناعتها بالمقس. وبعد انتهاء حكم الأيوبيين جلس المماليك على عرش مصر [منتصف القرن الثالث عشر م] وكانوا أهل ترف وبذخ تفيض خزائنهم بالمال فانتعشت الصناعة والفنون على عهدهم انتعاشاً عظيماً[٢]. في هذا العهد تركز كثير من الصناعات في القاهرة التي اتسعت لتشمل مصر، وأحرز الصناع مهارة كبيرة ربما نتيجة لذيوع نظام الطوائف الذي تطورت عنه نقابات العمال في العصر الحديث. فكان لكل حرفة طائفة ولكل طائفة شيخ يرعى مصالح أفرادها يقوم بتوجيههم التوجيه الفني ومن أهم الصناعات التي ازدهرت في القاهرة أيام المماليك صناعة الأسلحة وأدوات الحرب وبناء السفن وصناعة المنسوجات الحريرية المطرزة والفرش والخيم والسروج والأواني النحاسية المكفتة وصناعة الزجاج والخزف والتحف الخشبية المطعمة بالعاج والأبنوس هذا فضلاً عن الصناعات الغذائية كصناعة السكر والحلوى وعصر الزيوت وطحن الغلال وتلك التي تتصل بحياة الناس كصناعة الأواني الفخارية والحصر والصابون والبناء والورق إلى غير ذلك من

---

(١) Clerget, M. op, cit, vol, II, p 228.
(٢) Lane-Poole, S. opm cit., pp. 193 – 254.

الصناعات[1]. ولكن هذا الأزدهار لم يدم أكثر من قرنين ونصف قرن إذ اضطربت أحوال البلاد في أواخر الحكم المملوكي وحل الخراب بمساحات واسعة في القاهرة. وساءت الحالة بعد دخول الأتراك في أوائل القرن السادس عشر الميلادي فقد انتكست على عهدهم الحضارة وخبا نور العلم وتدهورت الصناعة وانحط الفن. وكان من أهم أسباب تأخر الصناعة والفن ترحيل ألفين من مهرة الصناع والفنانين إلى العاصمة الإمبراطورية الجديدة الآستانة. ومن الصناعات التي اندثرت في ذلك العصر صناعة المنسوجات الممتازه التي ازدهرت في العصور السابقة وكذلك صناعة السجاد. كانت القاهرة على أيه حال أهم مركز صناعي في البلاد ولكن الصناعات كانت رديئة النوع بدائية في طرقها وأساليبها كما أن منتجاتها كانت تستهلك محلياً[2] نذكر من هذه الصناعات على سبيل المثال طحن الغلال، وضرب الأرز وتبيضه، وصناعة السكر، وعصر الزيوت ودباغة الجلود، وبناء السفن وصناعة البسط واستخراج البيض وصناعة الحلي[3].

ولقد اكتسبت القاهرة خلال فترة طويلة من العصور الوسطى شهرة واسعة في عالم التجارة ووصفها بعض زوارها من الرحالة بأنها إحدى مراكز التجارة الرئيسية في العالم والفضل في ذلك يرجع إلى موقعها الجغرافي وأهميتها السياسية وشدة الإقبال على الأعمال التجارية من جانب سلاطينها وكثير من أهلها. وكأي مدينة عربية ظهرت في القاهرة منذ النشأة الأولى القياسر والأسواق في مواضع من شارع القصبة وقرب قصر الخليفة وأبواب المدينة. ولكن القاهرة لم تبلغ في ذلك الوقت ما بلغته الفسطاط من رواج واتساع تجارة لأنها كانت مدينة ملكية. فلما زالت دولة الفاطميين تحول النشاط التجاري إليها فظهر في العصر الأيوبي أسواق كثيرة بالقرب من القلعة، محل إقامة

---

(1) Clerget, M. op. cit. pp. 242 – 296.
(2) Lane-Poole, S: op, cit, pp: 287 – 214.
(3) Girard P.S, MémoiressutL'agriculture, L'industrieet la Commerce de l' Egypte.Desc.De l'EgyEtet.Mod.II, p. 490 and after.

السلطان. لعل أهمها سوق الدواب الذي سبق الإشار إليه. ثم بلغت التجارة الداخلية أوج نشاطها في العصر المملوكي الأول بسبب كثرة الأموال وكثرة السكان. ويروي المقريزي أنه كان بالقاهرة وظواهرها من الأسواق في تلك الفترة شيء كثير جدا باد أغلبها وأن الذي خرب المنطقة بين اللوق والمقس وحدها اثنان وخمسون سوقاً يبلغ حوانيت كل منها نحو الستين حانوتاً، فكيف ببقية الجهات[1]. كانت القاهرة سوق مصر الأول تفد إليها أنواع المتاجر من أنحاء القطر هذا فضلاً عما كان يرد إليها من بحر القلزم والبحر الإسكندراني ومن ثم يوزع بعضها على الأقاليم ويشحن البعض الآخر إلى بلاد العالم المختلفة كما جاء في الفصل السابع. وقد استلزم هذا النشاط التجاري بناء الحانات والفنادق لينزل بها التجار ببضاعتهم ودوابهم ويختزنون سلعهم في مخازنها وحواصلها وتؤدي لهم الأعمال المصرفية. وإلى هذه الخانات والفنادق كان تجار التجزئة يفدون لشراء ما يبغون من بضاعة. ويمكن القول إن نشاط التجارة في القاهرة كان يعني رخاء البلاد كما كان كسادها نتيجة حتمية للفقر وقلة السكان. ويتضح ذلك من دراسة مقارنة للقاهرة الزاهرة في عصر المماليك والقاهرة المتدهورة في العصر التركي. بيد أنه لم يخل تعاطي التجارة من صعاب وعقبات لعل أهمها تعدد المكوس المفروضة على المتاجر وخاصة في العصر الفاطمي والمملوكي وتعدد الأوزان والمكاييل وسرعة تلفها وتعرض قيمة العملة المتداولة لخفض مفاجيء واختفاء نظام الاقتراض من المرابين اليهود بفائدة معلومة.

ونختم هذه الدراسة بإشارة إلى دور القاهرة في نشر الثقافة الإسلامية والحفاظ عليها في عصور الظلام. منذ النشأة الأولى عقد للأزهر الزعامة الثقافية والعلمية على جامع عمرو في الفسطاط وجامع ابن طولون في القطائع وغيرها من الجوامع والمعاهد التي ظهرت في العصر الإسلامي الأول. فقد اختصه الخلفاء الفاطميون بكثير من العناية

---

[1] المقريزي – الخطط – ج٢ – طبعة أحمد علي المليجي ص ١٥٢ إلى ١٧٤.

والرعاية وأوقفوا عليه ريع كثير من ممتلكاتهم للإنفاق على أساتذته وطلابه وخدمه وسد تكاليف إنارته وإصلاحه. ولا غرو فقد كان الأزهر حينذاك مركز الدعوة الشيعية في العالم الإسلامي يفد إليه الطلاب لتلقي تعاليم المذهب الشيعي والاستماع إلى دروس في الفلسفة واللغة والرياضة والطب[١]. وقد تحولت هذه الجامعة الفاطمية إلى جامعة سنية منذ أيام صلاح الدين الأيوبي. وأصبحت حصناً للدين ومركز إشعاع ثقافي في دنيا الإسلام. ولنذكر أنه إلى جانب الجامعة الأزهرية ظهرت على مر القرون كثير من المدارس والمعاهد والمكتبات العامة والخاصة أسهمت هي الأخرى في المحافظة على علوم الدين واللغة وشجعت على التأليف والنسخ.

---

[١] Lane- Poole, S.A History of Egypt, vol. VI London 1901; p; 188.

قائمة المراجع

أولا: المراجع العربية

- إبراهيم رزقانه وأنور شكري وعبد المنعم أبو بكر وحسن أحمد محمود "حضارة مصر والشرق القديم".
- ابراهيم نصحي. تاريخ مصر في عصر البطالمة. القاهرة ١٩٤٦ .
- ابن الجيعان: شرف الدين يحيى (ت ٩٠٢هـ). التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية. مطبوعات القاهرة، ١٨٩٨.
- ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية.
- ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد (توفي في ٦١٤ هـ). رحلة ابن جبير. ليدن ١٨٥٢
- ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ت٣٧٧هـ). صورة الأرض. ليدن ١٩٣٨.
- ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ت٣٧٧هـ). كتاب المسالك والممالك – ليدن ١٨٧٢ .
- ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (٢٠٥هـ - ٣٠٠هـ) المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩.
- ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي الشهير بابن دقماق (٧٥٠هـ – ٨٠٩هـ). الانتصار لواسطة عقد الأمصار. طبعة القاهرة ١٨٩٤.
- ابن مماتي: الأسعد بن مماتي (ت٦٠٦هـ). قوانين الدواوين. جمعه وحققه عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٣.
- أدولف إرمان وهرمان رانكة. مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال. القاهرة ١٩٥٣.

- أرشيبالد لويس. القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط. ترجمة أحمد محمد عيسى القاهرة ١٩٦٠.
- بتلر. فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد. القاهرة ١٩٤٦.
- تاريخ الفيوم للنابلسي طبعة القاهرة.
- جرجي زيدان. تاريخ التمدن الإسلامي. الجزء الثاني، طبعة جديدة راجعها وعلق عليها الدكتور حسين مؤنس. القاهرة.
- جمال الدين الشيال "الإسكندرية: طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر" القاهرة ١٩٥٢.
- زكي محمد حسن – الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. القاهرة ١٩٤٥.
- سليم حسن. أقسام مصر الجغرافية. القاهرة ١٩٤٤ .
- سليمان حزين. البيئة والموقع الجغرافي وأثرهما في تاريخ مصر العام، مجلة الجمعية الجغرافية ١٩٤٢.
- السيد عبد العزيز سالم. تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي. القاهرة ١٦٩١.
- السيوطي (جلال الدين) كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، مقتطفات اختارها محمد محمود صبيح.
- عباس عمار: المدخل الشرقي لمصر، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٤٦.
- عزيز سوريال عطية – الإسكندرية في العصر المسيحي ص ٧٨ – ٧٩.
- علي بهجت والبير جبريل. "كتاب حفائر مصر" القاهرة ١٩٢٨.
- عمر طوسون – كتاب مالية مصر – القاهرة ١٩٣١.
- فؤاد فرج – الإسكندرية جزء أول القاهرة ١٩٤٢ ص ٥١.
- القلقشندى: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على (٧٥٦هـ – ٨٢١هـ).صبح الأعشى في صناعة الإنشا. دار الكتب المصرية، القاهرة.
- القلقشندي – صبح الأعشى. القاهرة.

- كتاب الإفادة والاعتبار طبعة باريس ١٨١٠
- المقدسي – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم – ليدن ١٩٠٦ .
- المقريزي – الخطط – الجزء الأول، القاهرة ١٩٠٥ ص ١١٠
- المقريزي – كتاب السلوك – القاهرة ١٩٤٣.
- المقريزي: تقي الدين أحمد بن على (ت٨٤٥هـ). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. طبعة القاهرة.
- ناصر خسرو – سفرنامة – ترجمة الدكتور يحيى الخشاب.
- ناصر خسرو علوى: سفرنامة. نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه يحيى الخشاب. الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥.
- النويري "نهاية الأرب" الجزء الأول ص ٢٦٢.
- وهيب كامل "استرابون في مصر".
- ياقوت الحموي: شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت عبد الله الحموي (٥٧٥هـ – ٦٢٦هـ). معجم البلدان.
- اليعقوبي: أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت٢٩٢هـ). كتاب البلدان. طبعة ليدن ١٨٩٢.

ثانيا: المراجع الإنجليزية

- Adler, M. The Itinerary of Benjamin of Tudela. London 1907. P. 75.
- Adu Salih, Churches and Monasteries of Egypt, Trans. By B. Evetts, Oxford 1895, pp. 170-80.
- Amer, M, (with Menghin, O,) Excavations at Maadi Cairo, 1932 and 1936,
- Atlas of Ancient & Classical geography, London, 1952, p. 5.
- Attiya, A S. The Crusade in the later Middle Ages. London 1988 pp. 348 – 77.
- Audebeau, C. etMosséri, V. Le LabourageenÈgypte. Bull. De l'inst. D'Egypt, 1916- pp. 83 – 127.
- Audebeau, M. Terres du Bas. Delta. Bull. Inst. Egy. Sess. 1925-26.
- Ball, J. Egypt in the Classical geographers. Cairo, 1942, p, 384.
- Barois, J. Irrigation in Egypt. Trans. A. Miiler. Washington, 1890, p. 22.
- Becker, C, H, "Al-Fustat" Ency. of Islam, vol, I, pp 1913 886 -40.
- Becker, C. H. "Cairo" Ency. Of Islam vol. I pp. 840-44.
- Becker, C; Ency. F Islam 1913 I p: 836 – 40.
- Bell, H. The Administration of Egypt under the Umayyad khalifs". – (1) Congress of Orientalists'. Oxford 1928.
- Bevan, E. A History of Egypt under the Ptolemaic Dynsaty. London 1914.
- Bovill, E. Caravans of the old Sahara. London 1933. P. 43.
- Breasted J, A History of Egypt. London 1935, p 32.
- Breccia, E. Guide de la villeet du Muséed'Alexandrie Alex. 1907. P 27.
- Brugsch Ch. La Geographie de nomes, ou division administrative de la Haute et de la BasseEgypte… Leipzig 1878.
- Bull, Soc de Geog. Egypte T XXXIII, p.7.
- Butler,H. The Arab conquest of Egypt.Oxford 1902, p 110.
- Butzer, K. "Environment and Human Ecology in Egypt." Bull Soc. Geog, d'Ègypte, T. XXXII, 1959, pp. 63-74.

- Butzer, K. “Remarks on the Geography of Settlement in the Nile Valley during Hellenistic Times,” Bull. De la Soc. De Geog, d’ Egypte.Vol XXXIII 1960 p. 12.
- Carruthers, W. “Plants of Ancient Egypt” Nature, sep 1886, pp. 445-51.
- Childe, G. Man Makes Himself London 1951, p. 168.
- Clark, A. “Historical geography” In American geography Ed, James, Syracuse University Press, 1954, pp. 70-96.
- Clerget, M. Le Caire, Le Caire 1934, T. I. p. 14.
- Darby, H.On the Relations of geography and History.Reprinted from "Transactions and Papers, 1953, No. 19, P. 5.
- Daressy, G. In Bull. De l’inst. Egypt. Dec, 1895.
- De Candolle, Alph. L’Origine des plantes cultiveés. Paris 1883, pp. 145-270.
- De Sacy. S. Droit de propriété Territorial enÈgypte.
- Delile, A. “Histoire de plantescultivéesenÈgypte” in La Desenption De l’Egypte Hist., National T; If, 1813, chap., I.
- Diodorus of Sicily. The Library of History.Trans.By. C. Oldfather, Vol. I, London 1933 p 50.
- Fisher, W. The Middle East. London, 1950, P. 59.
- Girard P.S, MémoiressutL’agriculture, L’industrieet la Commerce de l’ Egypte.Desc.De l’EgyEtet.Mod.II, p. 490 and after.
- Girard, P. S. Memoire Sur lagriculture, l’industrieet le commerce de l’Egypte.Desc.De ‘Egy.Etet.Mod. Tom. Sec. p. 647.
- Gregory, J. “Is the Earth drying up.? Geog, J, vol. 48, pp 148-77, 1914.
- Hannotaux.G. Histoire de la Nation Egyptianne. Paris 1431, Tome I p. 337.
- Hans W. Son Ahlmann.“The Present Climatic Fluctation.” G. J. vol. CXII, 165-195, 1948.
- Hardy, E.The Large Estates of Byzantine Egypt, N. Y. 1931.Chap. I.
- Hartshorne, R. The Nature of geography. Lancaster, 1951, P. 148.
- Haswell, C. Cairo – Origin and Development. Bull. De la soc.Sult. De Geogvolxl. 1922. pp. 171 – 72.
- Herodotus, The Histories. London, 1954, p. 115.

- Heyd, W. Histoire du Commerce du Levant au Moyenâges. Leipzig 1885, vol. I. p. 51.
- Huntington, E. The Pulse of Asia.Principles of Human geography. N. Y. 1951.
- Huzayyin, S. “Changes in Climate, Vegetation, and Human Adjustment in TheSaharo-Arabian Belt, With Special Reference to Africa.” In Man’s Role in Changing The Face of The Earth. Ed. Thomas, W & Others Chicago, 1955.Part 1.
- Huzayyin, S. Arabia and the Far East, Cairo 1942.
- Huzayyin, S. The place of Egypt in Prehistory Cairo, 1941, Butzer, K. W. “Envrionment and Human Ecology in Egypt” Bull. Soc. De geog D’ Egypte, T. XXXII, 1959, pp. 43-85.
- J, Milne. A, History of Egypt, p. 358
- Jasny N; TheWheat of Classical Antiquity. Baltimore 1944, p, 131.
- Johannesen, R. Ptolemy Fhiladelphus and Scientific Agriculture. Cass. Phil. vol, XVIII; 1932.p; 156.
- Jondet, G Les Ports submerges’ de L’anciene=ne ile de Pharos. Mem.Instit.Eg.Vol. IX Le Caire 1916.
- Kamal, Y. MonumentaCartographica.AfrietAegyEpoq.Arab.Part 4.D, 892.
- Kammérer, A. La Mer Rouge. Tome. 1. Pp. 65-80.
- La pére, G. Mémoire sur la villed’Alexandrie.Dans la “Descript on de l’Egypte” Etet Mod. T. II. Partie 2, pp. 269 324.
- Lane – Poole S. The story of Cairo. London 1906, p.109
- Lane- Poole, S. A History of Egypt – The Middle Ages. London 1901, p. 350.
- Lepére (G): Mémoire sur la villed’Alexandrie. Dans la “Description de l’Egypte”. Etet Mod. T. II, partie 2, pp, 269 – 324.
- Lyons, H. The Physiography of the River Nile, Cairo 1905, p, 349
- M. Audebeau, M. Essay sur l’affaissement du nord du delta Egyptiendepuisl’empireRomain. Bull, instd’Egypte (1918-1919, pp. 117-134)
- Mahaffy., J. p.A History of Egypt – Under the Ptolemaic-dynasty.London, 1899, p 61, 262, 85, 242.
- Maspero, G. “Histoire ancienne des peoples de l’Orientclassique.” Vol. I, Les Origines: EgypteetChaldeé. Paris 1897, pp. 16-19.

- Mc Burney, c.The Stone Age of Northern Africa. London 1960, P 245.
- Milne, J. History of Egypt – Under Roman Rule. London 1924, P. 255.
- Mitchell, J. Historical geography London, 1954, pp. 12-15.
- Moret, A.The Nile & Egyptian Civilization. London 1927, p. 41.
- Peake, H and Fleure. H. Times and Places, Oxford, 1956, P. 118.
- Petrie, P. Wisdom of the Egyptians. London 1940, vol. LXIII, p, 135.
- Pliny's Natural History Trans. Bostoch, J. and Riley, H. Vol. I, P. 404.
- Poole, R, S. The Cities of Egypt. London 1882, p. 19.
- Quatreméro, E. MémoiresGeographiquesetHistorigues. Paris 1811. T. I. p. 194.
- Reynier, M. L'Agriculture de l'Egypte.Mémoires sur l'Egypte, vol. IV, P. 4 & 5.
- Rolfe, D. "Environmental Infeunces in the Agriculture of Ancient Egypt". Am. J. Sem. Lang & Lit, vol, XXXIII, 1917, p, 153.
- Rostovtzeff, M. A History of Ancient World. Oxford 1939, p. 357.
- Rostovtzeff, M. A Large Estate in Egypt in the 5rd century B.C. Madison 1922, p. 93.
- Rostovtzeff, M. The Social and Economic History of the Roman Empire. Oxford, 1926, p. 147.
- Rostovtzeff, M. The Social and Economis History of the Hellenistic World.Oxford 1941, vol. I, pp. 8-19.
- Rostovtzeff. M, The Camb Anc. His., 1928, vol. 7, p. 134.
- Rouge' (J. de) Geographieancienne de la BasseÈgypte. Paris 1891.
- Sauer, Carl, "The Survey Method in geography and its Objectives" Ann. Assn. Am. Geogrs, 41 (1954) 17-33.
- Schweinforth, M. "Sur la flore des anciensjardins Arabs."Bull Inst. Egy.2ieme Serie.Cairo 1881, pp 305-10.
- Semple, E.The geography of The Mediterranean Region. London 1932, p. 99.
- Smailes, D The Geography of Towns London 1953, chap. I.
- Smith, F. "The Egyptian "Norag" and its origin" Bull, de la soc. Sul, de geog. T. X 1921. pp, 251:259.

- Toussoun, O. La Geographie de l'Ègypte a l' Epoque Arabe. I. VIII. Le Caire 1928.
- W. Petrie. A History of Egypt. Vol. I, 1894.
- Weedon A. "Report on Mariout" Cairo. Sc. J. vol. VI, 1912.
- Weheba, A, F. The agriculture of Egypt during the Arab period. Unpublished M. A. thesis – London 1952.
- Willcocks, W. Egyptian irrigation. London 1913.
- Wooldrigde, s. & East, W. The Spirit and Purpose of geography. London, 1952.